2020
6.1.2020

رواية

وجيه غالي

ترجمة: هناء نصير

بيرة في نادي البلياردو

تأليف

وجيه غالي

ترجمة

هناء نُصير

بيرة في نادي البلياردو

منشورات بتانة
الطبعة الثالثة
٢٠١٧

بيرة في نادي البلياردو

تأليف

وجيه غالي

ترجمة

هناء نُصير

بيرة في نادي البلياردو

تأليف

وجيـه غــالي

ترجمة

هنـــاء نُصيـــر

الغُلاف: عبد الرحمن الصواف

التّصميم الداخِلي: وسام سعيد

الطبعة الثالثة, 2017

رَدمُك: 978-977-6233-85-0

رقمُ الإيداع: 2017/19839

مـؤسسـة بتــانـة

القاهرة

34 شارع طلعت حرب

عمارة يعقوبيان - شقة 25

ت: 49570 257 -202+

دبـي

ص.ب : 97721

ت: 971543446107+

www.battana.org

@battana.org

@Battana_

جميـع الحقـوق محفوظـة للناشـر

طبقاً لقوانين حفظ حقوق الملكية الفكرية

لايُسمح بإعادة إستخدام وطبع أو توزيع أي جزء من مادّة الكتاب، مرئيًا أو صوتيًا أو مطبوعًا أو إليكترونيًا، بدون إذن مُسبق مِن الناشِر طبقًا لقوانين حِفظ حقوق المِلكية الفكرية.

الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي مؤلفها ولاتعكس بالضرورة رأي مؤسسة بتانة.

إهـداء

إلى أستاذيّ وقدوتيّ:

منيرفا سعد وعلي عبد العزيز

الجزء الأول

«نحن بالأحرى نرنو إلى أن نصبح شخوصًا روائية».

ديستوفسكي

أخذت أراقب خالتي توقع الأوراق: ثلاثمائة ورقة أو يزيد مرتبة في رزمة. يعطيها سكرتيرها الواقفُ خلفَها الواحدةَ منها فتُوقِّعها، ثم يضعُها على الرزمةِ الأخْرَى الموقعة. يبدو أنني قد فعلتُ شيئًا أزعجَها، فقد ألقَتْ بنظرة ناحيتي بينما هي مستمرةٌ في التوقيعِ.

كان كل توقيع لخالتي يعني ببساطة تخليها عن ثلاثةِ أفدنةٍ من الأرض لأحد الفلاحين، والأرض تساوي الكثير من المال في بلدنا. قد يظهرُ اسمُها في الصحف غدًا لكرمِها ولطفِها تجاه الفلاحين الفقراء.

أردت أن أشعلَ سيجارة، ولكن لم يكنْ مَعِي ثقاب. وضعت السيجارة في فمي وحاولت أن ألفت نظر السكرتير ليعيرني ثقابًا، لكنه لم ينتبهْ. انتظرت قليلًا، استجمعْتُ شجاعتي، وقررْتُ أن أنتظرَ حتى تنتهي خالتي من التوقيعِ بتنازُلِها عما يساوي عشرةَ آلافِ جنيهٍ قبل أن أطلب عود الثقاب ذلك. واحد. . . اثنين. . . ثلاثة. . . أربعة. . . حوالي خمسة آلاف، خمسة. . . ستة. . . سبعة.

- هل لي بثقاب يا حسن أفندي؟

لم تسمعني خالتي، وكذلك لم يسمعني حسن أفندي. لم يلتفتْ حتى.

هناك على المنضدة توجد قداحة «رونسن» كبيرة على شكل مصباح علاء الدين، تقدمت ناحية المنضدة. خطوة واحدة أوصلتني إليها، ثم

أصبحت القداحة بين يدي، تك تك. لم تكن تعمل. تمتمتْ خالتي بضع كلمات لحسن أفندي، فمدَّ يدَه في جيبِه، أخرج صندوقًا جديدًا من أعواد الثقاب، وأعطاني إيَّاه.

نظرتُ إلى الساعة: التاسعة وعشرون دقيقة. فقط عشر دقائق بعد، وينقضي على حضوري ساعة ونصف الساعة. واصلت التدخين بينما الرزمة الموقعة تزيد على حساب الأخرى غير الموقعة. بقي في تقديري خمسون ورقة لم توقع بعد. لا بُد أنها تشعر بالتعب الآن، المسكينة؛ توقع على ألف ورقة يوميًّا لليوم الثالث على التوالي. شعرت بالتعاطف معها، فلديها عشرة آلاف فدان ترعاها. ولكن لحسن الحظ، حددت الحكومة الجديدة ملكيتها بمائتي فدان فقط. تذكرت أنها أعطتني مرة في أوروبا ورقة بخمسة جنيهات!

وفي هذه اللحظة دخلت ماري. وماري صديقة طيبة للعائلة، تساعد هنا وهناك في حفلات الاستقبال، دائمًا حاضرة في أوقات المرض، دائمًا تتذكر أعياد الميلاد. هي لا تتذكر تاريخ ميلادي أو تاريخ ميلاد أمي، ولكننا لم نخبرها كذلك!

سألتْ ماري وهي تجلس إلى جانبي:

- أهلًا رام، ما الذي تفعله هنا؟

- أتيت لكي أقترض بعض المال.

لم تقل شيئًا، فهي الأخرى ثرية. في موقف مثل موقفي ينبغي على المرء

أن يفصح عما يريد منذ البداية، خاصة لمن يمتلكون المال. يجعلهم ذلك يشعرون بالقرب من بعضهم البعض، ولا يمكنك التنبؤ بما يحدث بعد ذلك.

للحق، شعرت بالأسف تجاه ماري. فهي تريد بشدة أن تحادثني، أن تخبرني أنها تتمنى أن أحصل على المال. وتريد كذلك أن تسألني عما سأفعل به. لكن وضعها حساس، فلم يمر يومان على شرائها الكاديلاك الجديدة تلك، وسيكون من الفجاجة التحدثُ بشأن المال الآن. ألقيتُ عليها نظرة وابتسمت.

سألتني ماري:

- كيف حال والدتك؟

- مريضة للغاية.

كنت أكذب. وكان هذا كفيلًا بإسكاتها لعشر دقائق أخرى على الأقل. فقد كان أغلب اهتمامي منصبًّا على خالتي التي مازالت توقع على الأوراق. رأيتُ أنَّ تنازلها عن أرض بقيمة مليون جنيه لأناس لا تعرفهم، قد يحثها على إعطائي ألف جنيهٍ أنا الآخر، خاصةً إذا ما ألمحت إلى أنني سأغادر البلاد لو كان هذا المبلغ بحوزتي.

نظرتُ إلى خالتي، ثم إلى الساعة، ثم إلى ماري وقلتُ لها:

- أهلًا ماري. تبدين على خير ما يرام. كيف حال سيارتك الجديدة؟

نظرت إلى بِرِقَّةٍ وقالتْ:

- كم أنت لطيفٌ يا عزيزي! السيارةُ لا بَأْسَ بها. السيارة القديمة كانت تكلفني الكثير من المال لِأَجْلِ الوقود، ما اضطرني لشراء غيرها، إذ لم أعد قادرة على تَحَمُّلِ نفقاتها.

حركة طفيفة على المكتب المجاور أَنْبَأَتْنِي أن التوقيع قد انتهى لهذا اليوم.

قالَتْ خالتي:

- آه، ماري. لم ألحظ دخولك. أوف! لقد سَئِمْتُ من كل هذه التوقيعات. لا بُدَّ أنك متعبٌ أيضًا يا حسن أفندي. ولكن هذا أقل ما نفعله لهؤلاء الفلاحين الملاعين.

جيد. حاولت أن أبدو فلاحًا بقدر المستطاع.

- انتظريني يا ماري، سوف أعود بعد لحظات.

خرجت خالتي من الحجرة، وتبعها حسن أفندي حاملًا ألف ورقة تساوي قيمتها مليون جنيه، أو أقل بقليل، فهي تبيع الأرض بسعر منخفض مدعية أمام الحكومة أنها تتنازل عنها بالمجان للفلاحين الفقراء.

قلت مجددًا:

- أهلًا يا ماري.

سألتني:

- أخبرني هل تعمل الآن؟

قلت لها:

- وجدت طريقة فريدة لاستغلال الفلاحين، ولكن ينقصني رأس المال.

ردَّتْ:

- لا ينبغي لك أن تمزح في هذه الأمور يا عزيزي.

عادت خالتي إلى الغرفة معلنة أن سعر رغيف الخبز قد زاد خمسة قروش. أثر ذلك فيهما بشدة لأن كلتيهما تشتري الخبز يوميًّا. حاولت أن أكون مفيدًا وأُخَفِّفَ عنهما، فقلت لهما إنني أعرف مخبزًا يبيع الخبز بالجملة حسب الوزن. ثم أخبرتهما أن بإمكانهما تسخين الخبز البائت، ولكني لم أخلص إلى نتيجة في محاولة تحديد ما تستطيعان توفيره بعد خصم كلفة الكيروسين المستخدم في التسخين. وكنت على وشك إخبارهما كيف تستطيعان التهرب من المحصل بالقفز من ترام العباسية، لكنني عدلتُ عن ذلك. ثم خرجتُ من الحجرة للحظة، وألصقت أذني بثقب الباب.

قالت ماري محذرة خالتي:

- كوني على حذر، فقد جاء لاقتراض النقود.

- أعرف يا عزيزتي، ولذلك اتصلت بك، فهو لن يجرؤ على طلب المال في حضورك.

غادرت منزل خالتي إلى جروبي. أخذت أتناول الويسكي والفول السوداني، وأراقب الجمع المثير المحيط بي، شاعرًا براحة لأن خالتي رفضت إقراضي المال. حسنًا، لقد سألتها إقراضي المال فقط لأنني شعرت بأن ضميري يلح

عليَّ لفعل ذلك. لقد كان ذلك شيئًا ينبغي عليَّ فعله، ولكنني أخذت أُرْجِئُه. بعد فترة حضر عمر وجميل، تبعهما يحيى، ثم فوزي وإسماعيل.

قد يكون جروبي أجمل مكان لشرب الويسكي. البار يقع تحت شجرة ضخمة في الحديقة، ويقوم بتقديم المشروبات نادل أسود وسيم يتحدث سبع لغات. تَشاركنا جميعًا في شرب زجاجة ويسكي، وأخذت أراقبهم يتنافسون على دفع ثمن الزجاجة. فاز يحيى، ودفع ثمنها. غادرنا جروبي معًا، وكان كل منهم يمتلك سيارة.

دائمًا ما أشعر بملل في فترة الصباح، لأنهم جميعًا يكونون إما في العمل أو في الجامعة. أحيانًا أذهب إلى نادي البلياردو، لِأَلعَبَ مباراة مع جميل. فهو هناك طول الوقت. هو يملك النادي في الواقع. ويمكنني الذهاب كلما شئت، لولا وجود فونت. كلما وبّختُ نفسي لإفراطي في شرب الخمر، ألقيت باللوم على فونت. أقول لنفسي: «إن فونت هو الذي يدفعني لشرب الخمر».

سألته ذات مرة:

- أخبرني ماذا تريدني أن أفعل بالضبط يا فونت.

فرد عليّ:

- واصل الهرب، أيها الحثالة.

فذهبت إلى جروبي وواصلت السكر. على الرغم من كوني ما زلت أقرأ «النيو ستاتس مان» و«الجارديان»، وربما تكون نسختي هي النسخة

الوحيدة من «التريبيون» التي تأتي إلى مصر.

قلت له في مناسبة أخرى، وكنت ثملًا وفي مزاج جيد:

- فونت، ربما تكون أنت الشاب الوحيد الغاضب في مصر الآن.

وانتابتني نوبة ضحك، فقد أدركت طرافة ما قلت للتو.

فرد غاضبًا:

- اذهب وواصل العيش على حساب هؤلاء الطفيليين.

لقد كنت أنا السبب في اشتغال فونت بنادي البلياردو. اعتقد جميل أنني كنت أمزح حين أخبرته أن هذه هي الطريقة الوحيدة لانتشال فونت من الشارع، لذا كان عليَّ أن أريه فونت واقفًا خلف عربة يد لبيع الخضروات في شارع الساقية يبيع الخيار، من بين جميع الخضروات. صدم جميل حين رأى صديق الدراسة يقف وسط الباعة الجائلين الذين يبيعون الفول والبصل والخس ولب عباد الشمس. كان هذا الاقتراح كل ما استطعت تدبيره لكي أمنع جميل من إعطاء فونت مبلغًا محترمًا يكفيه للعيش بكرامة بقية حياته. فربما بصق عليه أو ضربه.

بالطبع كنت أدرك ما الذي يحاول فونت أن يكونه، جيمي بورتر آخر يبيع الخيار على الرغم من شهادته الجامعية. لقد شاهدنا المسرحية معًا في لندن.

أوقف جميل السيارة أمام عربة فونت، فقال الأخير:

- اذهبا من هنا.

فقلت له إنني أريد أن أشتري خيارًا، ولكنني أخشى أن يغش في الميزان.

فصاح بي:

- اغرب عني وإلَّا حطمْتُ وجهك.

هذا هو فونت، يجيد السخرية من باقي الرفاق، ولكن حين يصل الأمر إليَّ، فإنه يستشيط غضبًا. أخبره جميل أنه يحتاج شخصًا يرعى نادي البلياردو لأجله.

تدخلْتُ قائلًا لجميل:

- إنه متغطرس، ولا يريد أن يعمل في مكان حيث يتوافد زملاء الدراسة.

صاح بي فونت:

- هل تعتقد أنني أهتم لآرائكم أيها الحمقى؟

جميل، وهو شخص هادئ بطبعه، أخبره أنه يحتاج بالفعل من يعمل بالنادي. ربما كان فونت قبِل العمل لو لم أكن موجودًا. ولكنه نظر إليَّ وتعبيرات وجهه تصيح «أيها الخائن».

- فونت. . .

سألته بالإنجليزية:

- ما رأي باقي الباعة في فيرجينيا وولف؟

وقع فونت في الفخ، وأجاب بالإنجليزية أيضًا:

- أتسخر منهم لأنهم لم تتح لهم قط الفرصة للذهاب للمدارس؟ أيها

الحثالة. هل قرأ هذا الحشرة إلى جوارك كتابًا طيلة حياته؟ بالرغم من كل الأموال التي يمتلكها، ما هو إلا خنزير جاهل.

في الواقع، جميل شخص لين العريكة، لم يعترض على تسمية فونت له بالخنزير الجاهل. ولكن في ذلك الوقت كان هناك خطر آخر يقترب. لدى سماعهم فونت، المرتدي الجلباب البلدي والواقف خلف عربة الخيار، يتحدث بالإنجليزية، اقترب الباعة الآخرون ليستطلعوا الأمر.

- ده جاسوس.

قلت لهم ذلك، فأصبحوا عدوانيين على الفور وأخذوا يتصايحون:

- احنا هنوري ابن الكلب ده.

أطاح الغضب بعقل فونت، ولكننا تمكنا من جره إلى السيارة وانطلقنا مسرعين. كان لزامًا عليَّ أن أترك السيارة حالما أصبحنا في أمان من الباعة لأتجنب غضب فونت، ولكن بعد أسبوع كان فونت يلمع طاولات البلياردو بالملحق الأدبي «للجارديان».

بعد أن غادرت جروبي، ذهبت إلى نادي البلياردو. والنادي عبارة عن مكان فسيح يحتوي، بالإضافة إلى طاولات البلياردو التي يتوسطها سجاد سميك، على بار أنيق وعدد من المقاعد الجلدية الوثيرة. المكان أنيق بغير تكلف، وله هيبة غريبة تجعلك تأبى الإتيان بتصرف غير لائق أثناء وجودك به. حين فقد والد جميل الأمل نهائيًا في إتمام ابنه لتعليمه، رضخ لرغبته في إنشاء نادٍ للبلياردو؛ غير أن النادي أثبت جدارته كمشروع

استثماري ممتاز، على الرغم من أن الدكتور حمزة، والد جميل هذا، اشتراكي أصيل وليس ليبراليًّا ثريًّا ولا هو واحدٌ من قارئي «النايشن». كما أنه كان ناشطًا سياسيًّا سُجِنَ لفترة على يد حاشية فاروق.

أحيانًا يأتي الدكتور حمزة إلى النادي للعب البلياردو. هو رجل طويل، نحيل، وأنيق، تلقّى تعليمًا فرنسيًّا، ويكتب حاليًا لجريدة «الاكسبريس» الفرنسية. أريد أن أكون مثل الدكتور حمزة. فهو يعجبني كثيرًا بملبسه الأنيق وسماته الأرستقراطية، وكونه قد سُجِنَ لآرائه الاشتراكية. كنت أود أن أسجن مثله، ولكني لا أود أن أسجن الآن.

حين وصلت إلى نادي البلياردو، وجدت فونت ينظف السجاد بالمكنسة الكهربائية. وقفت خلف البار أراقبه لبعض الوقت. هناك دائمًا تعبير ذاهل على وجه فونت. الطريقة التي يحرك بها المكنسة على السجاد، بينما حاجباه مرتفعان إلى أعلى وعيناه مفتوحتان على سعتهما تتابعان كل انعطاف للمكنسة على السجاد بين الطاولات، تعطي الانطباع بأنه إذا استطاع فقط أن يصل بالآلة إلى هذا المنعطف البعيد، فإنه سيصل بالتأكيد إلى الجواب عمّا يحيره.

- درافت باس، فونت؟

- نعم، لا بأس.

فتحت زجاجتين من البيرة المصرية «ستيلا» وصببتهما في وعاء كبير، ثم أخذت أرج البيرة حتى خرج منها كل الغاز الموجود بها، فأضفت نقطتين

من الفودكا وبعض الويسكي. كان هذا الخليط هو أقرب ما نستطيع تحضيره للوصول إلى «الدرافت باس» التي تعودنا شربها في لندن ولكنها غير متاحة في مصر.

هناك في لندن، في شارع صغير يتفرع من طريق إيدجوار، اعتاد بعض فتيان عصابات الشوارع بالإضافة إلى عدد من العمال الأيرلنديين، وفي الواقع كل من هب ودب، أن يتجمعوا للعب النرد. ولقد ربحنا ذات مرة أنا وفونت مبلغًا كبيرًا من المال، فنحن المصريين مقامرون بطبعنا. حين يجتمع بعض المصريين، هي فقط مسألة وقت حتى يبدأوا في المقامرة. نحن كسالى ونحب الضحك كثيرًا. ولكن فقط حين نقامر نكون متيقّظين ونعمل باجتهاد.

اشترينا أنا وفونت بجزء من المال الذي ربحناه قدحين مصنوعين من الفضة من متجر في إيدجوار، نقشنا اسمينا عليهما، وأقسمنا ألَّا نشرب منهما غير «درافت باس». أحضرت القدحين من خلف البار حيث نحتفظ بهما، وصببت الخليط فيهما بانتظار أن ينتهي فونت ويطفئ المكنسة.

قال فونت حين تذوق خليط البيرة:

- ليست سيئة. كم قدحًا صنعتَ؟

أجبته:

- قدحين لكلٍّ منّا.

فقال:

- سأظل ثملًا لباقي اليوم.

- سأقضي باقي اليوم هنا أنا أيضًا.

بدا لي أن فونت يشعر بالوحشة، أو أنه يريد أن يناقش أمرًا ما معي. فلولا ذلك ما بادلني الحديث، وما كنت لأجرؤ على محادثته.

بادرني فونت:

- أتدري ما مشكلتنا؟

(حين يستخدم فونت صيغة الجمع للإشارة إلينا معًا، فإنه يكون متلطفًا معي على غير عادته مؤخرًا).

- مشكلتنا أننا لا نمتلك ثقافة خاصة بنا، فنحن إنجليزيان أكثر منا مصريين؛ وإن ذلك لشيء محزن.

- تحدث عن نفسك، فأنا أستطيع أن أتبادل النكات مع أعتى المصريين.

- ربما تكون محقًا. ربما ثقافتنا عبارة عن مجموعة من النكات.

- لا يا فونت. إنها ليست كذلك. ولكن المشكلة الحقيقية أننا لم نتعلم اللغة العربية بشكل لائق.

بهذه الطريقة أصبح عليَّ أن أتحدث إلى فونت: أن أعارضه، على الأقل في الجزء الأول من النهار الذي علينا قضاؤه سويًا. وكذلك أصبح عليَّ أن أتحدث ببطء كي لا يتهمني بمحاولة التحذلق بدلًا من محاولة إجراء محادثة عادية معه.

سأل فونت:

- ولكن ماذا تقصد بقولك إن إطلاق النكات يُعدّ ثقافة؟

- أقصد أن إطلاق النكات وتبادلها يعني للمصريين ما تعنيه أهازيج «الكاليبسو» الارتجالية لسكان جزر الهند الغربية، وما تعنيه الروحانيات وموسيقى «الجاز» للأمريكيين السود.

واصلت الحديث قائلًا كل ما يحضر على لساني، فبهذه الطريقة فقط أستطيع إقناع فونت بجدية حديثي.

- في الواقع، إن إطلاق النكات لا يقل في كونه ثقافة عن العزف على الأرغن.

أعدت ملء القدحين، وشرعت في صنع المزيد من مزيج البيرة، بينما أخذ فونت يفكر فيما قلت للتو. وفكرت في أنني أحيانًا أتفوه بكلمات تبدو لي فيما بعد أقل سخافة مما كانت عليه حين قلتها.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة حين دخل أول الزبائن إلى النادي: أريفيان ودورومانين. وهما اثنان من أثرياء الأرمن، بدينان، يمتلكان محل الأحذية الذي يحتل الطابق الأسفل من البناية، ويتمتعان بروح دعابة عالية.

ألقيا علينا التحية حين دخلا:

- طاب يومكما. طاب يومكما أيها البروفسوران.

كانت الدرجة الجامعية التي يحملها فونت موضعًا لتندرهما.

- لقد أتينا لنلعب البلي من أجل إمتاعك يا هير دكتور بروفسور فونت؛ إن أقصى طموح لنا في حياتنا المتواضعة هو إمتاع عينيك العالمتين بمجهودنا الطفولي، وإعطاء عقلك الفرصة للتأمل في أمور رفيعة.

ثم انحنيا متظاهرين بتقبيل يديه كما اعتاد البعض في أوساط السراي.

قال فونت:

- انظر إلى هؤلاء. إنهما يدفعان للعامل المسكين لديهما ستة جنيهات كراتب شهري مقابل العمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، بينما يأتيان إلى هنا للمقامرة بآلاف الجنيهات وكأنها بعض حبات من الفول السوداني.

رد دوروماين هازئًا:

- نرجو عفوك يا هير دكتور فونت. لو أن حسن الذي يعمل لدينا كان حاصلًا على أقل الدرجات العلمية من جامعة هيدلبرج أو السربون لكنا أعطيناه... ثمانية جنيهات.

إن قولي إن الاثنين يمتلكان متجر الأحذية يفتقر إلى الدقة. في الواقع كان هذا صحيحًا فيما مضى، أما الآن فقد خسر أحدهما حصته لصالح الآخر. إنهما يتراهنان على مبالغ طائلة، وحين ينفد المال من أحدهما فإنه يراهن على حصته من المتجر، ويرفض الرابح إقراض الخاسر أية نقود. أذكر أن دوروماين خسر ذات مرة كل ما يملك بما في ذلك سيارته، فرفض أريفيان أن يقرضه أجرة الترام كي يعود إلى منزله.

شرع فونت في وضع الكرات وإعداد الطاولة للعب. كنت أنا قد فرغت

من تناول القدح الثاني، فشعرت باسترخاء، وأخذ عقلي الشرقي يسرح في أمور غير شرقية مثل فونت، وآخرين مثله ممن عرفت، وفي الفونت الذي كنته أنا ذات يوم. فونت الذي هو جيمي بورتر، وليس كير هارديز، في العصر الفيكتوري المصري. فونت وأمثاله المعزولون الذين هم نتاج اليسار الإنجليزي ممن لا دخل لهم بالصراع الطبقي الدائر في مصر، ولا يمتلكون الحماسة للثورات المندلعة في العالم العربي.

تواردت إلى ذهني هذه الأفكار وأفكار أخرى مختلفة عن روعة الجلوس في جروبي واحتساء الويسكي دون أن يكون عليَّ أن أدفع ثمنه، أو الحضور إلى نادي البلياردو حيث زجاجات الخمر متاحة دائمًا. حين وصلت أفكاري إلى هذه النقطة مددت يدي إلى زجاجة «المارتل» القريبة مني، ورشفت جرعة.

حقًّا، إن الحياة ليست بالسيئة.

عاد فونت بعد أن فرغ من إعداد طاولة اللعب، وكان مفعول البيرة قد ظهر في انخفاض حاجبيه. سألني إن كنت قد قابلت ديدي نكلا منذ عدت من لندن، فأجبته بالنفي.

فقال:

- لقد قابلت إدنا وليفي بالأمس. سيأتيان اليوم إلى منزلي. لم لا تأتي أنت أيضًا؟

ليفي وإدنا... وفونت. أتمنى لو يتركون البلاد جميعًا ويتركونني لحالي. ليفي وإدنا، خاصة إدنا. كنت على وشك أن آخذ رشفة أخرى من زجاجة

المارتل، ولكن فونت أوقفني بقوله:

- لا تكن جبانًا لعينًا.

تنهدت ورشفت من قدح البيرة في المقابل.

- تعلم أنني لم أرَ إدنا منذ وقت كبير.

- يمكنك رؤيتها الليلة.

- لكنني لا أرغب في ذلك.

- حسنًا، لا تأتِ إذن.

- أنت تعلم جيدًا أنني سآتي.

ابتسم فونت، فقلت له:

- أتمنى لو يزج بنا في السجن نحن الأربعة. في مكان ما على شاطئ البحر الأحمر، حتى يكون لديك سبب مقنع للغضب. أستطيع تخيل حاجبيك وقد وصلا إلى قفاك من شدة الدهشة.

سأل فونت على الفور بينما بدأ حاجباه في الارتفاع:

- ماذا تعني بقولك هذا؟ لماذا يزج بنا في السجن؟ هل أنت متورط في شيء ما؟

- لا.

- رام؟

- قلت لك مئات المرات إنني غير متورط في أي شيء.

اشتقت لرؤية إدنا. اشتقت لرؤية شعرها الطويل الأسود الضارب إلى

الحمرة، وعينيها البنيتين الواسعتين. أخذت أتذكر كيف اعتدنا أن نجلس متربعين على الأرض كما يفعل أولاد البلد. بينما أجلس أنا خلفها أمشط لها شعرها بضربات طويلة حانية، ثم أقسمه إلى قسمين. وأصنع من كل قسم ضفيرة صغيرة، أربط طرفها الأسفل بشريط.

قلت لفونت:

- دعنا نتحدث عن أي شيء آخر. دعنا نتناول المزيد من البيرة.

تقاسمت مع فونت ما تبقى من مزيج البيرة، وأخذت أراقب كيف أخذ حاجباه في الارتفاع حين بدأ يتكلم.

سأل فونت:

- هل رأيت ما فعل؟

سألت بدوري:

- من؟

- جايتسكيل.

- جايتسكيل. جايتسكيل! بالله عليك يا فونت، هل تتوقع مني أن أهتم بـــ 25

أجبت محتدًّا. ثم لمحت تلك الوحشة في وجهه، فسيطرت على غضبي وأجبته:

- نعم. نعم، رأيت ما فعل. ولكن ماذا كنت تتوقع؟ فالسياسيون هم السياسيون.

صاح فونت:

- إن ذلك غير صحيح. فهناك كوني زلبياكوس وكذلك فينر بروكواي.

- توقف عن الصياح، يا فونت.

كان ثلاثة رجال قد دلفوا إلى داخل النادي، ووقفوا ينظرون إلينا.

- اذهب وأعد لهم طاولة للعب.

أخذ فونت بعض المفاتيح من خلف البار، وذهب مترنحًا لإعداد الطاولة. كنت قد بدأت أثمل، فأخذت رشفة من زجاجة المارتل وأشعلت سيجارة.

لا يشعر فونت أبدا بسخافة موقفه كمصري يهتاج بشدة لقرار جايتسكيل في انجلترا تأييد صناعة الأسلحة النووية. قد يكون صحيحًا أنه أبدى سخطه على السياسة الداخلية المصرية كذلك، ولكن موقفه هذا أيضًا يبدو سخيفًا. إن موقفه أشبه بمن يريد تزيين كعكة لم تخرج بعد من الفرن. فونت يعرف كيف يزين الكعكة، ولكنه لا يعرف كيف يخبزها، لذلك انتظر عبد الناصر كي يخبزها من أجله قبل أن يقوم هو بتزيينها. هذا إذا سُمح له بذلك عاجلًا أو آجلًا! أما في الوقت الحاضر، فهو يجلس ويحكم على الكعكات المخبوزة، ويتمنى أن تخرج الكعكة المصرية، أو العربية، في الشكل الملائم.

وجدت نفسي أضحك بدون مقدمات، وهذه عادة سخيفة لا أستطيع التخلص منها. ولكنني تخيلت الكعكة أمامي، غير مستوية السطح كما ينبغي لها أن تكون. وتخيلت نفسي أقتطع بإصبعي قطعًا صغيرة من

أماكن متفرقة من الكعكة لآكلها كما يفعل الأطفال. كنت ثملًا، ووجدت هذا المشهد فكاهيًا للغاية، فأخذت أضحك عاليًا.

صاح أريفيان فجأة:

- مرحبًا بروفسور، هل أفلحنا في إمتاع معاليك؟

صحت مناديًا عليه:

- هل تعرف جايتسكيل، يا أريفيان؟

رد عليَّ أثناء قيامه بإسقاط الكرة في الزاوية:

- بالطبع إن جايتسكيليان أرميني عظيم.

سألته مجددًا:

- ودكتور سمرسكيليان ولورد ستانسجاشن وكينجسلي مارتينيان، هل تعرفهم جميعًا؟

رد أريفيان:

- لقد لعبت البلياردو معهم جميعًا.

غادرت نادي البلياردو دون أن أودِّع فونت؛ فقد كنت ثملًا وأردت أن أذهب لأي مكان آخر قبل أن ينال مني الاكتئاب؛ لذا ركبت الأتوبيس إلى المنزل.

ومنزلنا عبارة عن شقة جميلة تطل على نيل الزمالك. الغريب أنني لم أسأل أمي يومًا كم تملك من المال، على الرغم من ملكيتنا لهذه الشقة الجميلة، واستمرارنا في العيش بنفس المستوى الذي اعتدناه دائمًا.

- لم لا تحاول البحث عن عمل يا عزيزي؟

كثيرًا ما تسألني أمي.

فأنا لا أعمل حاليًا. في الواقع، أنا لم أعمل منذ عدت من أوربا. ومع ذلك لا تعتقدوا أنني أمتلك من المال شيئًا. أنا لا أمتلك المال وليس لديَّ أب ينفق عليَّ. في الواقع، إن امتلاك أب في مصر رفاهية لا تتوفر لأناس كثيرين. ليس معنى ذلك إننا أولاد سفاح. فأمهاتنا يتزوجن زواجًا شرعيًّا وكل شيء، ولكن أزواجهن يموتون مبكرًا. ومتوسط سن الوفاة حوالي الخامسة والثلاثين. أخذتني أمي للعيش مع والديها بعد وفاة أبي حين كنت في حوالى الرابعة. حين بلغت السابعة، أصبح في المنزل أربع أرامل وثمانية أيتام، يعيشون في كنف والدهن الذي بلغ سنًّا متقدمة رغم كل شيء. في البداية، لم ألتفت إلى أن خالاتي فقط ثريَّات وليس أمي. لذلك جرفني تيار الثراء الساري في العائلة. كنت ألبس جيدًا كباقي يتامى العائلة، وأذهب إلى نفس المدارس. لكن حين جاء دوري في السفر إلى إحدى الدول الأوربية لاستكمال تعليمي كباقي أيتام العائلة حين يصلون إلى مرحلة البلوغ، انقطع المدد. وكان عليَّ أن أدرك أنني لا أملك أي مال. والآن عليَّ أن أعيش على المدد من أصدقاء الدراسة. إن «العيش على حساب هؤلاء الطفيليين» كريه بالنسبة إليَّ كما هو بالنسبة لفونت. ولكنِّي تصورت قبل عودتي إلى مصر، أن عبد الناصر قد غير الأوضاع بقوة سحرية، وأنه لم يعد هناك أي «مدد» لأعيش عليه. كنت سأعمل، لو

كان بإمكاني الحصول على مال يساوي ما يحصل عليه أصدقائي. لكنني، والحال كما هي عليه الآن؛ سأضطر إلى ترك أصدقائي الأثرياء إذا عملت. وأنا أحب أصدقائي!

اتصلت تليفونيًّا بمنزل عصام التركي، فأجابت أخته.

- أهلًا زوزو. هل عصام موجود؟

- لا، ليس هنا. أظن أنك تبحث عنه لأنك تريد اللعب.

- لا تكوني سخيفة يا زوزو، فأنت تعلمين أنني ما عدت أقامر.

حين سمعت أمي كلمة مقامرة، أتت من فورها لتسمع المحادثة.

- حسنًا، إن عصام ليس هنا، ولكنني سأخبرك عن مكانه إذا وعدتني بشيء.

- أعدك.

- أقنعه أن يأخذني إلى الحفلة الراقصة في سميراميس يوم السبت القادم.

- لماذا لا تذهبين برفقة أصدقائك؟

- أنت تعرف عاداتنا نحن الأتراك، أنا محظوظة لأنهم سمحوا لي بالذهاب أصلًا.

- كنت أعتقد أن الأتراك متمدينون منذ أربعين عامًا، وإنكم كلكم أمريكيون الآن وأعضاء في حلف الناتو.

- ما هذا؟

- لا شيء، أنا فقط أمازحك. أعدك أنني سأحاول إقناعه. لكن، أين هو؟

- في سراي نكلا باشا.

- شكرًا يا زوزو.

- اسمع. إنهم يلعبون البكاراه وليس البوكر.

- كيف عرفت؟

- أعرف لأنه اقترض مني مائة جنيهٍ.

- شكرًا يا زوزو. مع السلامة.

انتظرت أمي ريثما أنهي المكالمة لتستوضح الأمر:

- إذن فهم يلعبون البكاراه الآن. حسنًا، أتوقع أن يكسب عصام كل ما معهم من مال، فهذا الولد يتمتع بحظ ممتاز.

- إن لديَّ حظًّا أفضل منه.

- نعم، إن حظك أنت الآخر ليس بالسيئ. لكن بالطبع ليس هناك مجال لعودتك إلى المقامرة!

- لا.

- وأين يلعبون؟

- في سراي نكلا باشا.

- مستحيل! هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟ آل نكلا يلعبون مع أولاد من سنكم؟

- لا، مع الأسف الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد. فهذا بمثابة لعب أطفال بالنسبة إليهم: أن ينفقوا بضع مئات من الجنيهات لتسلية الصغار، لكن الشيء الحقيقي يبدأ في المساء.

- ولكن يا عزيزي، ما الذي يغضبك؟

- أنت طيبة يا مامي، ولكنك لا تفهمين. إن آل نكلا لا يحق لهم امتلاك كل هذا المال.

- ولكن أليس هذا هو الحال في كل الدنيا؟

- لا يا مامي، ليس هذا هو الحال في كل الدنيا. ليس هذا هو الحال في. . . .

كنت على وشك أن أقول في روسيا أو في الصين، ولكني عدلت عن ذلك لأنها كانت ستظن -مرعوبة- أنني شيوعي. ليس لأنها تعرف ما الشيوعية ولا توافق على مبادئها؛ فهي لا تعرف؛ ولكن لأنها سمعت أنهم يسجنون الشيوعيين ويعذبونهم، وقد قالت لها خالتي، موحية بأنني واحد منهم، إنهم يقتلونهم كذلك.

سألت متشككة:

- ليس الحال كذلك أين يا رام؟

- في لكسمبرج. تعالي يا مامي. دعينا نتناول البيرة المثلجة ونأكل، فأنا أتضور جوعًا.

سألتني إذا كنت قد قابلت فونت مؤخَّرًا:

- ماذا حدث لهذا الولد؟ أليس هذا مأساويًا؟ أن يجن جنونه هكذا فجأة. يجب أن تخبرني عما حدث في لندن خلال الأربع سنوات التي قضيتموها هناك. هل تشعر بالمسؤولية تجاه ما حدث له؟ فأنت من

أقنعه بالسفر معك. وكيف استطعتما تدبير أموركما هناك دون أية نقود؟ أصحيح ما يقوله الناس؟ أنكما عملتما كالعمال العاديين هناك؟

بالطبع هي لم تصدق أن يحدث هذا لابنها.

أعاد إليَّ حديث أمي ذكرى لندن وتلك السنوات الأربع التي قضيناها فيها أنا وفونت؛ ما أشعرني بالبؤس. شربت المزيد من البيرة المثلجة. وفجأة شعرت أنه قد فاض بي، فقذفت الكأس الزجاجية من يدي محطمًا إياها. الأمر الذي أدى بنا إلى تكرار المشهد المعتاد:

- ارجعْ إلى لندن طالما أنت غير سعيد هنا. سوف آتي لك بالمال من أي مكان، ربما تقبل خالتك إقراضي المال. ولكن ماذا بك؟ ما الذي ينتابك؟ هل تحب فتاة هناك؟

إلى آخر هذه المحادثة المتكررة.

- اذهب للعب في سراي نكلا باشا إذن.

لولا أنني لا أريد أن أقابل ديدي نكلا لذهبت. لقد رأيتها آخر مرة في لندن، ومنذ عودتي وأنا أتجنّب لقاءها، لست أدري لماذا. ربما تظن أنني مازلت مسافرًا.

- لا، لن أذهب.

أجبتها، ثم اعتذرت عن تحطيمي الكأس.

نمت حتى الخامسة مساءً، وحين استيقظت بدأت أمي من جديد:

- حاول أن تجد عملًا ما، يا حبيبي. العلاقات العامة، أو شيئًا من

هذا القبيل، ستناسبك كثيراً.

- نعم، يا مامي.

- نحن حتى لا نمتلك سيارة. ألا تخجل حين ترى أمك تستقل الترام؟

- بلى، يا مامي.

قبّلتها ثم ذهبت إلى جروبي. مشيت إلى هناك لأنني لم أكن أمتلك أجرة الأتوبيس. حال دخولي، صب لي رجب، النادل، كأسًا من الويسكي. أخبرني أن الجميع كانوا هنا، وأنهم سيعاودون الحضور في السابعة. الساعة الآن السادسة، وكان عليَّ أن أنتظر أحدهم حتى يدفع ثمن كأس الويسكي، أو الكؤوس العديدة التي سأشربها غالبًا إذا ما كان عليَّ الانتظار لمدة ساعة. كان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص يجلسون على البار، من بينهم شاب في مثل عمري يقرأ مجلة ذات غلاف برَّاق؛ ما يعني كونها أمريكية. أنبأتني طريقته المتعمقة في القراءة عن ماهية المجلة. الشيء الوحيد الذي لا زال فونت يشاركني فيه هو نفورنا الشديد من المصريين الذين يقرأون مجلة «التايمز» الأمريكية. نحن نسميهم «الدلسيين»، وهي الإهانة الأسوأ في قاموسنا. أنيقو الملبس دائمًا، قد تصفهم الصحافة والجالية الأمريكية بالمثقفين، ولكنهم يصيبونني بالغثيان.

تناولت المزيد من الويسكي، وبدأت أشعر بالتحسن. كنت قلقًا إزاء رؤيتي لإدنا مرة أخرى، وربما خائف. في الواقع لم أكن خائفًا، ولكني كنت أشعر بالخزي. كانت نوبة عمل رجب خلف البار قد أوشكت على الانتهاء،

فأخذ يجمع المال من الزبائن قبل انصرافه، ولكنه لم ينظر تجاهي. لمحته يهمس بشيء لزميله الذي استلم منه العمل ويضع فاتورتي في كأس خلف البار. ربما كان أحد أصدقائي قد طلب منه أن يحتفظ له بفواتيري كي يدفعها حتى لا يُرَاق ماء وجهي. لا أعلم. وفي الحقيقة، لم أهتم.

تقابلت عيني بعين النادل الجديد، وفي التوِّ صبَّ لي كأسًا أخرى من الويسكي. أخذت كأسي وتحركت لأجلس على مقعد من البامبو المنجد. لفتت حركتي انتباه قارئ التايمز، فأخرجت له لساني بحماقة. أخذ المكان يكتظ بأناس تشي أناقة ملبسهم وغلو طلباتهم بالثراء الفاحش. لماذا لا يزالون يتحدثون بالفرنسية؟ تضايقت بشدة لأن الثورة لم تجتث ثرواتهم. هم جميعًا يشتكون من قلة المال، ولكنهم لا زالوا يعيشون في نفس المستوى الذي اعتادوه.

وصل يحيى وجميل. الشيء الوحيد الذي يميز جميل هو شعره. حسنًا، ليس الشعر نفسه هو المميز، لكن طريقة تصفيفه. فهو يفلقه من المنتصف؛ ما يكسبه مظهرًا وديعًا، ولكن بلا شخصية.

بادرني جميل:

- لقد كنا في النادي. هناك فتاتان جديدتان، ألمانية ونيرويجية.

النادي المقصود هو نادي الجزيرة الرياضي، والفتاتان قد تكونان ممرِّضتين أو مربِّيتين أو شيئًا من هذا القبيل، فالمصريون «الأرستقراطيون» ما زالوا يوظفون مربيات أوربيات لرعاية أطفالهم، على الرغم من أن المربياتِ

الآن شابات صغيرات في العشرينات من أعمارهن يحضرْن إلى هذا الجزء من العالم لقضاء سنة أو نحو ذلك في ترف.

سألت يحيى:

- هل تعرف الفتى الذي يجلس خلفي على البار يطالع المجلة؟

- إنه كوكو، ألا تعرفه؟! إنه يعمل لصالح جنرال موتورز، وأبوه هو....

- لا عليك.

سألني جميل:

- ماذا تشرب؟

أجبته:

- لقد تناولت ثلاثة كؤوس من الويسكي في انتظاركما.

- حسنًا.

أشار بيده بعدم اكتراث وذهب ناحية البار.

سألني يحيى:

- ماذا ستفعل الليلة؟

فأجبته:

- سأذهب إلى منزل فونت؟

- إذن فلن تحتاج ال. . . .

- لا.

يشترك ستة منا في استئجار -على الرغم من أني لم أدفع مليمًا من هذا

الإيجار- شقة في وسط البلد لا يوجد بها سوى أسرّة.

سألته بدوري:

- هل تحتاج سيارتك الليلة، يا يحيى؟

- لا. فسوف نستقل سيارة جميل. يمكنك أخذ سيارتي.

ناولني يحيى مفاتيح السيارة، في حين عاد جميل بثلاثة كؤوس من الويسكي. فكرت أنه ربما سيأتي يوم يرفض أحدهم أن يدفع ثمن مشروباتي أو أن يقرضني سيارته، وسوف لن أراهم بعد ذلك أبدًا. لاحظت أن جميل متوتر، وأنه شرع مرتين في محادثتي في أمر ما ثم عدل، فسألته عما هنالك. أجابني:

- لا شيء. إنه شيء غير مهم حقيقة.

- هات ما عندك.

- كان فونت ثملًا اليوم.

ساد الصمت لفترة.

سألته:

- لماذا لم ترم به خارجًا؟

- ليس في مقدوري أن أفعل ذلك يا رام، فنحن جميعًا مولعون به.

- فما صلتي أنا بهذا؟

بدأ يحيى يبتسم وسألني:

- أتعرف ماذا فعل اليوم؟ لقد ضرب أريفيان بعصا البلياردو. لم

أضحك في حياتي كما ضحكت اليوم. أخذ فونت يطارده بين الطاولات وبين كل حين وآخر، «وزز»، وإذا بالعصا تهبط على مؤخرة أريفيان الذي أخذ يصرخ بأعلى صوته مرددًا كلمات أرمينية لم نسمع بها من قبل. أما دوروماين فكان يشجع فونت على الاستمرار، وكاد أن يموت ضحكًا.

بدأ جميل يضحك هو الآخر، وأخذا يقهقهان معًا. بعد فترة هدأ ضحكهما فأخبراني عما حدث. كان دوروماين قد أمضى عشر دقائق يحاول إسقاط الكرة في زاوية الطاولة من موقع مستحيل. أخذ الجميع، بمن فيهم فونت، يراقبون ما يحدث، بينما أريفيان يسخر من دوروماين قائلًا إنه لن يتمكن من إسقاط الكرة في بئر حتى لو دفعها بيديه السمينتين. أخيرًا أعلن أريفيان أنه سيحرق ورقة مالية بعشرة جنيهاتٍ إذا ما تمكن من إسقاط الكرة. وللعجب فقد دخلت الكرة في الزاوية؛ وأخرج أريفيان العشرة جنيهات من حافظته وأشعل فيها النار ما أثار جنون فونت فأخذ يوسعه ضربًا.

أخذت أضحك أنا الآخر، وقلت له:

- بصراحة يا جميل إذا أردت أن تشتكي فونت، فلا تأت إليَّ.

فشرع جميل يقول:

- لا، حقًا أنا لا أشتكيه، لكن لو يستطيع فقط أن يكون أكثر....

ثم بتر كلامه.

يسكن فونت غرفتين خلف القلعة في مصر القديمة. جيرانه جميعهم

من الباعة الجائلين والخدم، وبعضهم من الشحاذين. هذا المكان هو الأجمل والأكثر تنوعًا في القاهرة، والأقل تصنُّعًا كذلك. فالمتصنعون يقودون سياراتهم «الجاجوار» في شوارع الزمالك إذا لم يكونوا يتسكعون في أوروبا. أود أن أعيش في هذا الجزء من القاهرة، لكني أشعر أن ذلك سيكون نزوة. وهذا ما أحسه تجاه الكثير من أفعالي.

كنت أشعر بالاسترخاء والانشراح أثناء قيادتي السيارة إلى منزل فونت، والفضل في ذلك يرجع إلى الأربع كؤوس من الويسكي التي تناولتها في الساعة والنصف المنصرمة. لِمَ القلق؟ أبسبب إدنا وكل هذا؟ يا لها من سخافة! أنا حر أفعل ما أريد. في الواقع، لست أدري ما الذي يجعلني أقبل سخرية فونت وانتقاداته. سوف لن أظهر الغضب بالطبع، لكنني سوف... حسنًا، سوف أخبره أن يقلع عن ذلك. ويجب عليَّ أن أنضج. فما كان لي أن أتصرف بطفولية وأخرج لساني لذلك الشاب قارئ «التايمز». يجب عليَّ أن أستجمع نفسي. حتى أنني سأكلم منير ابن خالتي حتى يتوسط لإلحاقي بشركة شل أو شركة التأمين الكندية، أو شيء من هذا القبيل. نعم، سوف أقلع عن هذا العمل الآخر قبل أن يقبضوا على وينزعوا أظافري. نعم سأفعل، فقد أخذت إجازة طويلة ارتكبت خلالها من الحماقات واتبعت من الموضات الفكرية ما يكفي. ليس هناك من حاجة حتى للذهاب إلى منزل فونت حيث تجدد مقابلتي لهم إحساسي بالذنب. لكن، لم إحساسي بالذنب؟ ألرفضي ترك إدنا تتحكم في حياتي؟

قدت السيارة مباشرة مخلِّفًا منزل فونت ورائي، ثم عدت أدراجي إليه، ثم تركته مرة أخرى. من اللطيف القيادة بينما لا يزال تأثير الويسكي ساريًا فيَّ. ولكن، مهما كانت حالتي النفسية جيدة بعد شرب الخمر، لست أدري، لِمَ ينتابُني هذا الشعور الغامر بالكآبة حال تدخيني بعد فترة، ولو قصيرة، أتوقف فيها عن التدخين لشرب الخمر. تمامًا كالإحساس بالسقم والكآبة الذي ينتابني حين أدخن بعد استيقاظي من النوم في الصباح إذا ما أفرطت في تناول الخمر ليلًا. أوقفت السيارة بجوار منزل فونت ثم أشعلت سيجارة.

بحق السماء، ماذا أعني «برفضي ترك إدنا تتحكم في حياتي؟» أية حياة؟ أأسمي هذه حياة؟ أأسمي نفسي رجلًا؟

أخذت وقتًا أكثر مما يجب لأركن السيارة جاعلًا نصفها معلقًا فوق الرصيف حتى أفسح مكانًا لمرور السيارات الأخرى. أدرت الراديو كي أستمع إلى الأنباء حالما أنهي سيجارتي. إلى جانب السيارة، وقف ولد صغير يراقبني وأنا أوصد بابها قبل أن أصعد لمنزل فونت.

بادرني الصبي:

- هاخللي لك بالي منها.

- ما تزعجش نفسك.

- وهاملّع الإزاز.

- طيب.

تركته وتوجهت إلى المنزل حيث يسكن فونت. لكن بدلًا من الصعود، عدت مرة أخرى إلى السيارة. فتحت الباب وأخبرته أنه يستطيع الجلوس بداخلها، ثم أريته كيف يدير الراديو. شعر الولد بالإثارة، وأحسست بقدميه الحافيتين تتخبطان من الرهبة.

- هالمّع كل حتة فيها.

- شكرًا.

وصعدت السلالم.

كانت إدنا، الجالسة بجوار النافذة وساقاها الجميلتان متقاطعتان، ترتدي حلة سوداء أنيقة. كانت تنظر إلى الشارع بينما يقبع فنجان من القهوة بين يديها. لم تلتفت حين دخلت. صافحت ليفي الذي كان يساعد فونت في جلي الصحون المتسخة في ركن من الحجرة. ليفي شاب طويل، دائمًا ما يشمخ بجبهته إلى أعلى جاعلًا ذقنه تستوي في وضع أفقي كأنما يخشى أن تسقط نظارته إذا ما غيَّر وضعيته، بخلاف فونت، فإن حاجبي ليفي مسدلان لأسفل حتى ليكادا يغطِّيان عينيه.

راقبته يجفف الصحون التي يسلمها له فونت بعد غسيلها بعقل غائب وحركات ملتبسة. هناك شيء يدعو للسخرية في المشهد: يسلم فونت الصحون إلى ليفي ووجه كل منهما يحمل تعبير الحيرة الخاص به، كأن فيروسًا ما قد أطبق عليهما، وأعراض المرض واضحة عليهما جليَّة. هناك لماذا صامتة على وجهيهما، ربما لا يدري أحدهما على وجه الدقة ماذا يقصد بها.

تناولت كرسيًّا وجلست نصف مواجه لإدنا. سمعت ليفي يخاطب فونت:

- إن كليهما غبي ومجرم، في الواقع.

ليفي نتاج إحدى مدارس الليسيه الفرنسية في مصر. هذا الأمر يبدو جليًّا إذا ما كان برفقتنا أنا وفونت. ففي مقابل وضوح الأفكار وسهولة التعبير اللذين يمتاز بهما ليفي نتيجة تعليمه الفرنسي، تبدو واضحة للعيان السطحية والغموض اللذين أكسَبَنا إياهما تعليمُنا الإنجليزي.

سأل فونت ليفي:

- لكن هل تعتقد أن انجلترا وفرنسا كانتا ستهاجماننا لو أن إسرائيل رفضت الاشتراك في الحرب؟

- نعم، وأعتقد أن إسرائيل كانت لتهاجم بمفردها بدون المشاركة الفعالة لانجلترا وفرنسا. لو أن إسرائيل فقط قد أضافت صوتها إلى أصوات العرب المعارضة لحشد القوات في قبرص. لو أن إسرائيل قد قالت للعرب: رغم جميع خلافتنا، لن نكون أداة في يد القِوى الاستعمارية التي تستهدفكم. لو أن إسرائيل قد قالت ذلك لكان خيرًا وفيرًا قد حل بنا جميعًا.

- نعم، نعم. لكن كل افتراضاتك هذه مجرد هراء. أنت تعلم جيدًا أن كل الإسرائيليين يتمنّون أن يرونا خاضعين لسيطرة القوى الاستعمارية، سواء أوروبا أو أمريكا. إن افتراضاتك ليس لها سيقان تقوم عليها.

عند ذلك شعر ليفي أن مشاعره قد جرحت، وهو كثيراً ما يشعر بذلك.

- إنها الحقيقة يا فونت، الكثيرون في إسرائيل عارضوا الهجوم على السويس. فهناك الكثير من الاشتراكيين المخلصين في إسرائيل.

- الكثير من الاشتراكيين المخلصين في إسرائيل! بالتأكيد. الكثير من الاشتراكيين المخلصين من أمثال موريس إدلمان.

ابتسمتُ لدى ذكر فونت لموريس إدلمان، فهو الاسم الذي يقذف به في وجه أي يهودي عند مناقشة الاشتراكية.

- لا تعتبره المثال الوحيد. فهناك أيضًا فيكتور جولانسز.

- فيكتور جولانسز ليس إسرائيليًّا.

غمغم فونت الذي يعتبر فيكتور جولانسز نقطة ضعف في دفاعه.

- وموريس إدلمان ليس إسرائيليًّا كذلك.

قد يستمر هذان الاثنان يتناقشان حول شخصيات عامة إنجليزية، وقد يدوران ويدوران هكذا لساعات غير مدركين أنهما يناقشان شؤون الشرق الأوسط لا المملكة المتحدة.

توقفتُ عن الإصغاء إليهما واستدرت لمواجهة إدنا. تساءلتُ إذا ما كان ليفي وفونت مخنثيْن. وتساءلت أيضًا إذا ما كان على المرء أن يكون مخنثًا كي يكون مخلصًا تمامًا لمعتقداتِه. أعرفُ أن أحدًا منهما لم يفكر قط في إدنا كامرأة يشتهيها. دوروماين الأرميني قال ذات مرة إن عقل معظم الرجال يتركز في أعضائهم الذكورية، وأتساءل لمَ احتاج فرويد كل هذه المجلدات

ليكتب هذه الحقيقة البسيطة؟ قد أتظاهرُ طوال الوقت بعكس ذلك، لكن مهما كانت أهمية القضية التي أناقشها، إذا ما ظهرتْ امرأةٌ جميلةٌ في الجوار، فإني أعرف تمامًا أين يكون عقلي. حسنًا، هذا إذا ما استثنيت الأوقات التي أكون فيها منهمكًا جديًّا في المقامرة. ربما تعني المقامرة بالنسبة لي ما تعنيه الاشتراكية بالنسبة إلى فونت وليفي. ولكني في الواقع لا أتصور ذلك.

- إدنا.

ناديتُ هامسًا.

أدارتْ رأسهَا قليلًا، لكنها استمرت في التحديق خارج النافذة. مررْتُ إصبعي صعودًا ونزولًا على مرفقِها.

- إدنا... إدنا... إدنا....

أدارت رأسها ونظرت إليَّ. لوهلةٍ ظننتُ أنه انعكاس الضوء الخافت على صفحة خدها. لا شعوريًّا تحركتْ يدي وغطت عيني. ساد الصمت لفترة حتى سمعت فونت وليفي يغادران الحجرة. على خدها الأيمن، ابتداءً من زاوية فمها وحتى أسفل أذنها كانت هناك ندبة حديثة، وآثار القطب ظاهرة في الجلد المشدود على طرفيها.

- أعطني سيجارة.

قالتها بكل نعومة.

كانت يداي مبللتين بالعرق. أعطيتها سيجارة وأخذت واحدة لنفسي ثم أشعلت الاثنتين.

- كيف تجدني الآن؟

- أنا أحبك.

- أعني من الناحية الجمالية.

ضابط شرطة حقير، لم تكن بحاجة إلى إخباري، ضابط شرطة دموي حقير فعل بها هذا. ضابط نشط كريه ذو شارب، حضر ليفتش بيتها مدَّعيًا اللطف في البداية. ربما قال لها «مجرد روتين». مؤكد أخبره أحدٌ أنها يهودية. لكن، بم؟ سكينة أم زجاجة مكسورة؟

- سَوْط.

ردّت دون أن أسألها.

- وماذا يعني ذلك؟

صرخت بها:

- أليس هناك ضباط دمويون في إسرائيل؟ ألم يذبحوا نساءً وأطفالًا عربًا؟ أليست كينيا ممتلئة بضباط إنجليز دمويين؟ أليست الجزائر ممتلئة بضباط ساديين؟ أليس هناك ضباط يهود في حلف الناتو اللعين، يعملون جنبًا إلى جنب مع نازيين سابقين؟ آه يا إدنا. من كان؟

لم تجب.

- من كان؟

لم تُردْ إخباري.

بدت أكبر مني بكثير ومجهدة جدًّا. شعرتُ بموجة حارة من الحب لها

تغمرني. لكنَّ الإحساسَ بعدمِ جدوى أي شيء وفقدان العدل في هذه الحياة جعلني أرغب في سحب الغطاء على وجهي وعدم فتح عينيّ أو الظهور لمدة طويلة. حاولت أن أجذبها نحوي، لكنها دفعتني بعيدًا. أذعنتُ وتركتُها تعود إلى مِقعدِها فأدارتْ لي جانب وجهها الخالي من الندوب.

كل هذا بسبب لندن. كل هذا حدث بسبب لندن، قلت لنفسي. كل هذا بسبب استماعي إلى أحاديث الأب هدلستون ومعرفة من تكون روزا لكسمبرج. كل هذا بسبب رؤية ثلاثية جوركي تُؤدَّى في هامبستيد والاستماع إلى دونالد سوبر في ركن المتحدثين وقراءة أعمال مثل السؤال. كل هذا بسبب قراءة أعمال كتاب مثل كوستلر وألن باتون ودوريس ليسنج وأورويل وويلز وحتى كنيث تانيان. كل ذلك بسبب تشرشل والمائة مليون للإطاحة بلينين، ثم البرقية. كل ذلك من جراء معرفة كيف أتى فرانكو إلى الحكم ومن ولاه منذ ذلك الحين، ومعرفة كيف مُنح اليهود فلسطين، ولماذا. كل ذلك من جراء معرفة ما وراء قصف دمشق و«وداع» روبرت جرايف. آه، أيها الجهل المبارك. ألم يكن رائعًا الذهاب إلى الكنيسة الكاثوليكية برفقة أمي قبل أن أسمع عن سلازار أو حتى عن المسيرة المقدسة إلى إثيوبيا؟

- متى حدث ذلك؟

- لا يهم.

- أين تسكنين الآن؟

- على بعد أمتار قليلة من هنا.

- وأبواك؟

- في جنوب إفريقيا؟

وقفت وأخذت أذرع الحجرة. نظرت تحت سرير فونت فوجدت زجاجة كونياك، ولكني لم أشعر برغبة في الشرب. نظرت من النافذة الأخرى إلى الشارع، فوجدت فونت وليفي جالسين على كُرسيين فوق الرصيف يلعبان الدومينو مع صاحب المقهى الذي يجلسان أمامه. هل يحب فونت لعب الدومينو حقًا، أم أن جلوسه للعب مع ليفي ورجل يرتدي ملابس القرويين يُكمل الصورة التي يريد أن يرسمها لنفسه؟

- هل تريدين بعض الكونياك يا إدنا؟

- نعم.

أحضرت الزجاجة من مكانها تحت السرير وصببت لها كأسًا.

- لم لا ترحلين يا إدنا؟ لم لا تذهبين إلى إسرائيل أو جنوب إفريقيا أو فرنسا، أو أي مكان آخر تعيشين فيه وتسعدين؟

- لأني مصرية.

احتجت بعض الوقت كي أدرك أن الندبة على وجنة إدنا تشوه وجهها بالفعل. ذلك لأن وجود تلك الندبة لم ينفرني منها على الإطلاق. بل على العكس، فقد حببها إليّ أكثر. لسبب ما جعلتْ هذه الندبة إدنا تبدو حقيقية وأكثر إنسانية. لو أنها فقط تبكي. فكرت، لو أنها فقط تبكي وتدع

مشاعرها تتغلبُ على عقلها أحيانًا. لكن في السنوات الست التي عرفتها خلالها، لم أرَ إدنا قط تبكي.

- ألا تبكين أبدًا إدنا؟

ما كانت لتجيب عن هذا السؤال الغبي.

إنه لشيء غريب أن يعرف رجلٌ امرأةً حتى يصبحا شخصًا واحدًا، فيتوحد جسداهما وحياتهما وأفكارهما وآمالهما، ثم بعد فترة يصبحان غريبين. لا يعودان شخصًا واحدًا. تمامًا كمن ينظر إلى نفسه في المرآة، فتطالعه صورة شخص غريب عنه.

أحضرتُ كأسًا لي. أتساءلُ ماذا يفعل الناس الذين لا يشربون الخمر في مواقف مثل هذه. ربما يكون عليهم مواجهة الحقائق. لكن مواجهة الحقائق أمرٌ، وتقبلها ثم التغلب عليها أمرٌ آخر. الكونياك سوف يجعلني أتغلب على الحقائق، سوف يجعلني أتغلب على تصلب إدنا وافتقاري إلى الكلمات والأفعال المناسبة. أعدت ملء الكأسين، ثم جلست تحت قدميها. لفنا الصمت، كل منا سارح في أفكاره، بينما أخذ الكونياك يسري فينا ويقوم بتسوية الأمور. كأس أخرى وقبلت ركبتها بنعومة وشغف. وببطء امتدت يدُها لتعبثَ بشعري وتدغدغ برأسي جسدها. بعفوية، ربما، وبدون قصد، أثار البراندي هذا المشهد الذي ربما تشابه مع مشهد من فيلم أو مسرحية أو أوبرا شاهدناها أو كتاب قرأناه. فالفنانون يحاكون حياة الناس، ثم يحاكي الناسُ محاكاة الفنانين لحياتهم.

ثم اتضحَ لي ما يجبُ أن أقولَ:

- هل تذكرين؟

هل كنت لأفكر في ذلك لولا تأثير البراندي؟ لربما فعلت. لكن، ما كان ذلك ليأتي بهذه النعومة وفي اللحظة المناسبة.

- هل تذكرين؟

- ماذا؟

ثم تذكرنا، وبدا الغريبُ في المرآة مألوفًا مرة أخرى، بدا قريبًا، بدا نفس الشخص.

عاد فونت وليفي إلى الحجرة وتجاهلا حقيقة كون رأسي مسندة إلى ركبة إدنا ويدها على رأسي؛ فهذه الأمور التافهة لا تلفت انتباه الاشتراكيين. كنت على وشك أن أسأل فونت ماذا في اعتقاده كان لينين ليفعل، إذا ما اكتشف زوجته مع رجل آخر، لكنني عدلت عن ذلك.

- كل شيء مرهون بمشيئة الله.

قال فونت كالمعتاد.

سله كم يبلغ راتبه السنوي، سيقول لك:

- الحمد لله، ما يكفيني.

سله إذا كان سعيدًا لأن عبد الناصر خلصنا من فاروق، فيقول لك:

- إن كل ما يأتي به الله إلينا خيرٌ.

سله كم يدفع بقشيشًا للنادل سيقول لك:

- ربنا يعلم. أكثر مما يجب.

قال ليفي إن هناك «حاجز نفسي» يفصل بين فونت وخرف الله[1] صاحب المقهى. علق فونت قائلًا إن ذلك لا معنى له لأنه هو نفسه مجرد عامل في ناد للبلياردو. فقالت إدنا شيئًا ما عن ضرورة توخي فونت الحذر كي لا يبدو متعاليًا. انتظرت أن يتحولوا للحديث إلى الساسة الإنجليز. لأنه إذا لم يتخذ الحديث هذا المجرى قريبًا، سيكون عليَّ دفعه بنفسي. فهم لا يجدون سعادتهم إلا في ذكر لندن. قالت إدنا لفونت إنه يتصرف بطريقة فبيانية. أخذ ليفي يفسر الفبيانية من منظور برنارد شو، بينما دافع فونت عن ويلز. وهكذا اتخذ الحديثُ المسارَ الصحيحَ. أخذتُ أداعبُ رُكبةَ إدنا برأسي وقلتُ لها:

- سأقلك لمنزلك.

- أنا أسكنُ منزلًا مجاورًا.

- لِمَ لا نذهبُ جميعًا في نزهة بالسيارة؟

قالت إدنا:

- لا بأس.

حين بلغنا الباب التفت ليفي إلى إدنا وقال لها بالفرنسية:

- هل تشعرين أنكِ على ما يرام الآن؟

لمحتُ إدنا تقطِّب قليلًا، فهي لا ترحب بهذه الحميمية مع ليفي فقط

(١) هكذا ورد الاسم في النص الأصلي أكثر من مرة.

لكونهما هما الاثنان يهوديان. احمرَّ وجه ليفي حين أدرك غلطته.

عندما اقتربنا من السيارة سمعنا صوت الموسيقى المنبعثة منها، فتذكرت الولد الصغير الذي عرض عليَّ تنظيف السيارة. كان نائمًا متكورًا في المقعد الأمامي ومازال ممسكًا بالخرقة التي نظف بها السيارة. حملق به الآخرون فشرحت لهم ما حدث. أطفأت إدنا الراديو وأيقظت الولد برفق. سألت إدنا الولد:

- أنت ساكن فين؟

أخذ يفرك عينيه ويتطلع إلينا ورأسه محني. حين لمحني ابتسم وقال:

- لمّعتها تلات مرات.

- بقت جميلة.

- انت ساكن فين؟

سألت إدنا الولد مجددًا.

- لازم أمك قلقت عليك.

- ما فيش مشكلة يا ست. أنا لا عندي أم ولا أب.

- وساكن فين؟

- هنا.

- في أي بيت؟

- في مدخل أي بيت، ما تفرقش.

- يعني ماعندكش بيت؟

- لأ، بس في الشتا بأنام في القسم ورا مكتب الظابط.

- ظابط بوليس؟

- آه. ده صاحبي.

قال الولد بزهو. وأخذت أراقب وجه فونت يعصف به الإحباط والغضب الذي لا طائل من ورائه لهذا الظلم الموجود في العالم.

سألت إدنا الولد:

- عندك كم سنة؟

- ما اعرفش.

في هذه الحظة ظهر خرف الله ونظر إلينا وإلى الولد وتنهد ثم قال:

- لا أم ولا أب. هنعمل ايه؟ إرادة ربنا.

سأل فونت:

- وبياكل فين؟

- هنا ولا هناك. رغيف من هنا على حتة جبنة من هناك. إحنا بنعمل اللي في وسعنا، لكن في غيره كتير. هنعمل إيه؟ إرادة الله.

سأل فونت الحالم:

- يعني ما بيروحش المدرسة؟

- مدرسة؟ مدرسة إيه؟ بأقول لك لا عنده أم ولا أب.

هز خرف الله رأسه وضحك:

- قال مدرسة قال! الولد ده محظوظ لأن الظابط، ربنا يخليه، راجل

كويس بيساعده في الشتا. هنعمل إيه؟

أعطت إدنا بعض المال لخرف الله؛ كي يعتني بالولد، ريثما نرى ما يمكننا عمله لأجله.

قاد فونت السيارة إلى منطقة الأهرام. احتل ليفي المقعد المجاور لفونت بينما جلسنا أنا وإدنا في المقعد الخلفي. ليفي شخص وحيد بمعنى الكلمة. قابلناه لأول مرة في لندن حيث كان يعمل. دفعت إدنا تكاليف رحلة عودته إلى مصر، وصادقه فونت. لكنه لا يبدو متوائمًا تمامًا معنا. فإلى جانب الاختلاف في نوعية التعليم الذي حصل عليه كل منا، تعليمه فرنسي بينما تعليمنا نحن الثلاثة إنجليزي، هناك إحساس بالهوان يسيطر عليه؛ ما يحرج من حوله. يشتغل ليفي الآن بتعليم اللغة العربية للمصريين البالغين الذين وجدوا أن عليهم أن يتعلموا اللغة بعد الثورة. كان ليفي قد تتلمذ على يد شيوخ المسلمين في جامعة الأزهر، وكان من الممكن أن يصبح من مشاهير العلماء والمثقفين في الوطن العربي لولا حرب السويس. أتساءل لماذا لم يذهب إلى إسرائيل.

سألت ليفي:

- ليفي، ألم تفكر قط في الهجرة إلى إسرائيل؟

- بلى، تأكد أن كل يهودي فكَّر في وقت ما في الهجرة إلى إسرائيل.

لا أدري لماذا ذكَّرني رده هذا بعبارة «إن كل رجل متزوج يفكر في وقت ما في الطلاق».

أكمل ليفي:

- في وسط اليهود، سأفقد استقلاليتي. سيكون عليَّ أن أوافق على كل شيء يقولونه وأن أفعل ما يتوقعون مني أن أفعله. لن تكون لي أفكاري الخاصة، وسيكون ذلك بمثابة انتحار من جانبي.

ترجمت بالفرنسية:

سيكون ذلك بمثابة انتحار

أن أتوحد فيمن هم بالجوار

- أنا شاعر.

تجاوزنا منزل خالتي حيث قابلت إدنا لأول مرة. رأيتها تبتسم قليلًا، وتساءلت إذا ما كان القرب الذي توصلنا إليه في منزل فونت قد انتهى. بحثت عن يدها وأمسكت بها، لكنها لم تتجاوب معي. خشيت أن تعتقد أن ما أبديه من مشاعر ليس سوى شفقة نحوها نتيجة تعرضها لهذا الحادث. لقد كنت فعلًا أشعر بالأسى لما حدث لها، لكن هذا ليس ما يدفعني للإمساك بيدها. أنا أحبها.

أوقف فونت السيارة عند سفح الأهرام المنتصبة هناك كآثار مادية للامادية. في الظلام، لا تبدو الأهرام من صنع البشر، بل تنزيلًا إلهيًّا لهذه المعجزة على الأرض، علامة استقرار لقوة غير أرضية. لو أنها أقدم من ذلك وغير معلوم تاريخ بنائها، لكان نبي كموسى استخدمها علامة لآخر مثل إبراهام.

انظر! اشتعلت النار في جوف أيٍّ كان اسمه، وهزت الأرضَ والبحارَ ثلاثةُ زلازل، وأمطرت السماء ثلاثة أعمدة مربعة الشكل ملأت الفجوات التي أحدثتها الزلازل و... انتظر! بُنيتْ ثلاثة آثار بعضها إلى جانب بعض: طولها ثلاثمائة وعشرون ضعف شيء ما، وعرضها بقدر الخطوات التي يخطوها حمل صغير في يوم وليلة. استعرت النيران في قلبه وأمر بإحضار أبنائه الخمسة فطرحهم، ثم أعطى أوامره بذبح كل من تزوج حديثًا تحت سفح الأثر الأكبر قربانًا. فهذه إرادة الرب.

أمسكتُ بيد إدنا وذهبنا معًا لرؤية أبي الهول. وقفنا ننظر إلى التمثال العملاق في صمت حوالي ربع الساعة، ثم استدرت وواجهتها. وضعت يدي على ندبتها وأخبرتها أنني أحبها. استمرت في التحديق إلى أبي الهول، فهويت بثغري على شفتها. قبلتها طويلًا محتضنًا إياها بشدة. عدنا بعد فترة إلى السيارة يلف كلانا ذراعه حول خصر الآخر.

قطعنا رحلة العودة في صمت. في كل مرة أزور فيها منطقة الأهرام بالليل، أحس بالشجن وأقطع رحلة العودة صامتًا. أوصلنا ليفي في طريقنا، ثم قاد فونت السيارة باتجاه منزله. حين وصلنا، ترك محرك السيارة دائرًا وتمنى لنا ليلة سعيدة ثم صعد إلى حجرته. جلسنا أنا وإدنا في المقعد الخلفي لوهلة دون كلام. كان يومي طويلًا ومرهقًا وقد شربت كثيرًا، لكنني شعرت برغبة جامحة في أن أكون مع إدنا، أدللها وأحبها.

- أين تسكنين؟

- تعال؛ سأريك.

كانت تسكن حجرة واحدة مغربية الطراز تحتوي على أريكة منخفضة تنام عليها. لم أستطع التعرف على باقي محتويات الحجرة لأنها لم تشعل النور. أدركت أنها لن ترحب بالنور بعد الآن. تربعتُ على الأريكة كما يفعل أولاد البلد، وأتتْ هي وتربعتْ أمامي. أخذتُ أحل شعرها كما اعتدت أن أفعل. أعطتني مشطًا، فأخذت أمشط شعرها الأسود الضارب إلى الحمرة بضربات طويلة بطيئة تمتد من جبهتها حتى خصرها. ضفرت شعرها وربطت أسفله بالشرائط التي أعطتني إياها. خلعت عنها سترتها، بلوزتها، ثم كل ملابسها. جلست أمامي عارية تمامًا ورائعة الجمال. أخبرتها مرات ومرات أنني أحبها. قبلتها وهمست في أذنها بكلمات الغزل والذكريات الجميلة. أخيرًا رفعت رأسها المائل نحوي واقتربت مني أنفاسها، أصبحنا كيانا واحدًا: جسدين وعقلين وحياتين ورائحتين متعانقتين. لا شيء يهم بعد ذلك؛ فأن نحب ونمتلك من نحب هو ما خُلقنا من أجله.

57

الجزء الثاني

منذ حوالي ست سنوات أقامت خالتي، التي تتظاهر الآن بالتنازل عن أرضها للفلاحين الفقراء، حفل استقبال بفيلتها الكائنة على الطريق إلى الهرم للاحتفال بعودة ابنها منير من أمريكا.

كان حفلًا كبيرًا قدم خلاله الشمبانيا خدمٌ في زي رسمي. إلى مائدة الطعام المترفة، جلس حوالي ثلاثين شخصًا يتناولون طعام العشاء. كان مقعد فارغ بجوار أمي ينتظرني، فقد وصلت متأخرًا.

- ها قد وصل فتانا الثوري، حواريّ عبد الناصر.

قالت خالتي، والدة منير، وهي امرأة ثرية سمينة وقبيحة.

- ألن تقول لهم أن يأخذوا منازلنا وفضياتنا.

ثم أغرقت في الضحك. كذلك ضحك الموجودون بلا شفقة. كان يقوم على خدمتهم طاقم من الخدم مكون من ثمانية أفراد دائمين.

همست أمي في أذني:

- فلتقل مرحبًا لمنير، على الأقل، أنت لم تره منذ ثلاث سنوات.

أجلت النظر بحثًا عنه حول المائدة. لمحته، لكن عينيّ تسمرتا على الفتاة الجالسة إلى جواره. استطعت من مكاني أن أتبين جفونها الندية وبشرتها الخمرية الفاتحة التي تبرز لونها كومة الشعر الأسود الضارب إلى الحمرة أعلى رأسها.

سألت أمي عمن تكون، فأخبرتني أنها ابنة سلفا العائدة لتوها من أوروبا. كانت هناك بصحبة والديها الذين سبق وقابلتهما في مناسبة ما. وعائلة سلفا واحدة من أغنى العائلات اليهودية في مصر، المقابل المصري لآل وولورث.

قال منير بإنجليزية أمريكية اللهجة:

- لم نرك منذ مدة طويلة!

فكرت في مدى بلاهة طريقته المصطنعة في الكلام. نظرت إليه وحييته. فقال غامزًا:

- كيف تمضي بك الحياة يا صاح؟ بالتأكيد سوف نقضي أوقاتًا مرحة معًا.

لم أرفع نظري عن طبقي متخيلًا هذا الغبي يرقص طربًا في مقعده لتغزل الحاضرين بلهجته الأمريكية المحببة. أخذت أختلس النظر إلى الفتاة سلفا من آن لآخر. بدا لي أنها لا تكف عن الابتسام لمنير.

هتف منير مجددًا:

- هاي رام، ما الذي أسمعه عن كونك أحمر؟ لا تستمع لهذا الهراء، يا صاح. أنا سوف أخبرك بما سيجعلك تعيد النظر.

أنا لم أكن أحمر ولا ورديًا ولا أزرق ولا أسود ولا أي لون آخر. لم أكن أهتم بالسياسة في ذلك الوقت. كذلك لم أكن أعتبر قيام الثورة والتخلص من فاروق سياسة.

قلت له:

- سأنتظر أن تفعل ذلك.

كانت لهجته الأمريكية، سواء كان يصطنعها أم لا، تجعله أحمق في نظري.

استطرد موجهًا كلامه إليَّ وإلى جميع الضيوف:

- صدقوني، إن الديمقراطية الأمريكية هي السياسة المثالية. انتظروا حتى تروا ما سيفعله هذا البلد.

كان الجميع ينظرون إليه ويهزون رؤوسهم موافقين على آرائه الحكيمة.

- لقد شاهدت بنفسي روعة هذا البلد. هذا بلا شك هو البلد المثالي بالنسبة لي.

كنت قبل قليل في السويس بصحبة طلاب من الفدائيين الذين يقاتلون الإنجليز في منطقة القناة. ثلاثة من أصدقائي قُتِلوا، بينما فونت ما زال يرقد في المستشفى بعد أن اسْتُخْرِجَتْ رصاصةٌ من فخذه.

استطرد منير، مستمتعًا بالموافقة الرخيصة من الجمهور المؤيد، موضحًا خطر «المد الأحمر» وأهمية مواجهته:

- يجب أن نكون متيقظين. انظروا إلى ما حدث للصين.

سألته عمّا حدث للصين؛ فلم يعرف بما يجيب. لم يعرف أن ثمة تفرقةً عنصرية في أمريكا، لم يسمع مطلقًا بساكو أو فانزيتي، لم يعرف ما المقصود بالأنشطة المعادية لأمريكا، لم يكن يعرف بوجود المسكين بيترو ريكانز، أو

أي مسكين آخر في أمريكا. من يكون بول روبنسون هذا؟ هنود حمر دون جنسية كاملة؟ عن أي شيء أتكلم؟ لا بُدَّ أنني مجنون. كل ما كان يعرفه أنه أمضى ثلاث سنوات في أمريكا التقط خلالها عبارات الأمريكان الداجنة ومُنح درجة علمية، ثم عاد ليحصل على منصب مرموق في إدارة أملاكه. ما يقرفني أنه كان يعرف أنه سيحصل حتمًا على هذا المنصب. ما يقرفني أن كل الطلاب الذين يموتون في السويس -بغض النظر عني وعن فونت- ينحدرون من أسر فقيرة، وأن «منير وشركاه» سوف تستعبد الناجين منهم.

قال منير:

- يجب أن تبقى انجلترا في مصر لتحمينا من الطاعون الأحمر.

سياسة أم لا، كان هذا أكثر من كاف بالنسبة لي كي أخبره أن يمسح مؤخرته «بديمقراطيته الأمريكية». لا أتذكر ما حدث بالضبط لكننا وصلنا إلى نقطة الاشتباك بالأيدي. بالطبع أخذت أمي في البكاء. فرقنا الخدم، بينما اقترح شخص ما استدعاء البوليس.

وجدت نفسي في الشارع. ولكني، للغرابة، كنت في مزاج حسن. حتى أنني مت من الضحك حين تذكرت كيف أخذت خالتي تصيح: «مجرم، قاتل». كان الوقت قد تأخر على اللحاق بترام الهرم؛ لذا فقد شرعت في قطع مسافة السبعة أميال التي تفصلني عن المنزل مشيًا على قدميّ. فكرت أن أمي قد تلحق بي على الطريق، فقد كانت السيارة لا تزال في حوزتها في ذلك الوقت. سمعت صوتًا ينادي اسمي، لكنني واصلت السير

ولم ألتفت. ثم سمعت خطوات تعدو خلفي:

- قف، عليك اللعنة!

صاحت الفتاة سلفا.

- ماذا تريدين مني؟

- أمك تخبرك أن باستطاعتك أن تأخذ السيارة.

- وكيف سترجع هي؟

- والداي سوف يقلّانها للمنزل.

شرعت في العودة معها.

- أنا بنت... .

- نعم، نعم، أعرف. أنت ابنة عائلة سلفا الثرية.

أدرت محرك السيارة متأهبًا للرحيل، فاستوقفتني قائلة:

- هل لك أن تقلني إلى منزلي؟

- لماذا؟

- انتظر قليلًا ريثما أحضر حقيبتي.

عادت بعد دقائق. قدت السيارة في صمت لوهلة، ثم قررت فجأة أن أذهب لزيارة فونت في المستشفى. كان ينزل في غرفة مستقلة، وكنت أعلم أنّ بإمكاني الدخول حين أريد.

- أنت تسكنين في مصر الجديدة، أليس كذلك؟

- نعم.

ذهبت أولًا إلى شقتي بالزمالك وسألتها أن تنتظرني لدقائق. صعدت إلى الشقة وأحضرت زجاجة نبيذ وكأسين، ثم أخذت كأسًا ثالثة.

سألتها حين عدت إلى السيارة:

- لماذا غادرت الحفل؟

- هل ستحاول غوايتي بزجاجة النبيذ هذه؟

سألت متجنبة الإجابة عن سؤالي. أخبرتها عن فونت الذي يرقد في المستشفى، وعن رغبتي في أن أحكي له ما جرى في منزل خالتي.

- هل تذهب إلى السويس عادة؟

- أنا لا أذهب، لكن فونت يذهب بانتظام.

- كم يبلغ فونت من العمر؟

- الحادية والعشرين.

- وهل أنت في الحادية والعشرين أيضًا؟

أومأت إيجابًا.

- أنا في الرابعة والعشرين.

أخبرتني دون أن أسألها.

صاحبتني إلى المستشفى، فتسللنا خلسة إلى غرفة فونت. عرّفته إلى إدنا وجلسنا على الجانب الآخر من فراشه. فتحت زجاجة النبيذ، ثم أخبرته عما حدث مع منير.

قالت إدنا:

- لقد فرحت كثيراً حين ضربته.

فُوجِئْتُ بما قالت، فقلت لها:

- لقد ظننتُ أنك كنت تبتسمين له طول الوقت.

- أنا لا أطيقه. لا هو ولا أيًّا من الحاضرين.

- حتى والديك؟

- هما بالذات.

ضحكتُ

- علام تضحك؟

كان فونت من سأل.

- نزوة فتاة ثرية.

- لا. ليست نزوة.

ردت بهدوء، فصدقتها. كانت هذه المرة الأولى التي جعلتني فيها إدنا أخجل من نفسي، فقد أدركت أن تصرفي في منزل خالتي كان، جزئيًا، بدافع من نزوة.

سألت إدنا فونت كيف أصيب، وأمضينا الليل بطوله نتحدث. كنا حذرين ألا نذكر إسرائيل في حديثنا؛ لأن إدنا يهودية. لمست يدها بصورة عرضية، وبطريقة ما بدا طبيعيًّا أن تتعانق يدانا لبقية الأمسية. كانت ليلة سعيدة، وقد جعلني النبيذ وجمال الفجر وجمال إدنا أشعر أنني غارق لأذنيّ في الحب.

غادر فونت المستشفى بعد ذلك بفترة قصيرة. أصبحنا نرى إدنا يوميًا تقريبًا. كانت تأتي أحيانًا إلى الجامعة لتقلنا بسيارتها، وكنا نقود السيارة لساعات على الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية. كنا أنا وفونت شابين خجولين. وكنا مختلفين كليًا عن باقي رفاق الدراسة، بالرغم من مشاركتنا لهم في حب الخمر والمقامرة، فقد كنا قارئين شغوفين. كان فونت يقيم معي ووالدتي في ذلك الحين. فقد توفي والداه، ونحن أصدقاء منذ الطفولة. كنا نستخدم معاشه لتغطية نفقاتنا الشخصية ودفع ثمن الكتب، بينما كانت أمي تتحمل مصاريف البيت. لم نرتب الوضع على هذا النحو، بل جاء ذلك تلقائيًا. كنا نقرأ بشغف هائل، أحيانًا كنا نقبع في غرفتي لأسابيع نقرأ الكتاب تلو الآخر. فقط نقرأ، بدون أن نناقش ما نقرأ.

بالنسبة لنا الشيء الوحيد الهام الذي حدث كان قيام الثورة. ولقد أيَّدْنَاها بكل كياننا، تلقائيًا وبدون أي تفكير أو فلسفة. وبدون أي تعصب كذلك. المرة الوحيدة التي أبديت تعصبًا وانفعلت دفاعًا عنها كانت حين سمعت منير يصرح بأن البريطانيين ينبغي لهم أن يبقوا في مصر. وكانت هذه أيضًا المرة الأولى التي أتحدث فيها عما قرأت: حوادث التفرقة العنصرية كحادثة ساكو أو فانزيتي كانت من ضمن ما قرأت في آلاف الكتب التي التهمتها التهامًا. لو أني كنت أتحدث إلى شخص من نوعية مخالفة لنوعية منير؛ لربما كنت تحدثت كذلك عن اغتيال كارل راديك والثوار البولنديين. لكنني كنت أقرأ بتباعد، وأهتم فقط بالحدوتة.

عندما بدأت إدنا تخبرنا عن الاشتراكية والحرية والديمقراطية، قلنا نعم، هذا ما قامت الثورة لتحققه؛ الثورة ستحقق كل ما هو خير. بداية، محاولة إدنا لتثقيفنا سياسيًّا لم تكن زاعقة أو ملحوظة. بسلاسة شديدة، كانت تحدثنا عن المقهورين في إفريقيا وآسيا، وحتى في بعض البلدان الأوروبية. أصبحنا أنا وفونت نقرأ الكتب بعين جديدة مهتمة. كلما قرأنا؛ ازداد إحساسنا بالجهل، وبأننا نريد أن نعرف أكثر. أدركنا، للمرة الأولى، لِمَ لَمْ نكن نريد بقاء القوات البريطانية في منطقة السويس، حين استوعبنا التاريخ الاستعماري للمملكة المتحدة. كنا نصيح كالآخرين «الجلاء التام أو الموت الزؤام»، دون أن نفهم لماذا كان الجلاء هامًّا جدًّا وحيويًّا، بالنسبة لمصر. بالتدريج أصبحنا ننظر لأنفسنا كجزء من الإنسانية عمومًا، وليس فقط كمصريين.

أصبحنا نشعر بعدم الرضا عن دراستنا الجامعية، ولكن ذلك لم يجعلنا نبذل مزيدًا من الجهد. إن لم نكن نلعب البلياردو ونشرب البيرة، فقد كنا إما بصحبة إدنا أو في غرفتنا نلتهم المزيد من الكتب السياسية.

لم نصبح أنا وإدنا حبيبين مباشرة. كنت أعرف في الجامعة كثيرًا من الفتيات المشتغلات بالسياسة، لكنهن كن يزدرين الاتصال الجسدي مع الرجل؛ لذا كنت أحب إدنا حبًّا صامتًا خشية أن تكون مثلهن، وبدأت أصب عواطفي تجاهها في السياسة. أدركت أن الرجل الذي تكون السياسة لديه مشحونة بالعاطفة يملك جاذبية خاصة.

عرَّفتْني إدنا بالشعب المصري، فمن الصعب معرفته في الوسط الذي ننتمي إليه. أخبرتني أن الناس الذين نعيش وسطهم، مُلّاك الفيلات ورواد نادي الجزيرة الرياضي وسباق الخيول، الذين يلبسون على الطراز الأوروبي ويقومون برحلات إلى أوربا كل صيف، ليسوا هم المصريون الحقيقيون. أخبرتني أن القاهرة والإسكندرية تعتبران مدينتين عالميتين، لا لتواجد العديد من الأجانب فيهما؛ لكن لأن المصريين الذين يعيشون فيهما غرباء لا ينتمون إلى الأرض.

أخذتني إدنا ذات مرة إلى شقة يملكها والدها قرب مصر القديمة، وكانت هذه الرحلة هي الأولى في سلسلة من الرحلات قمنا بها، حفاة مرتدين الملابس القروية، إلى الأحياء الفقيرة في القاهرة والقرى الصغيرة المجاورة لها. في الزيارة الأولى جعلتني أجلس متربعًا على الأرض وطلبت مني أن أمشط لها شعرها. جلست أمامي ونزعت الدبابيس من شعرها، فسقط على ظهرها حتى المنتصف. مشطته، ثم ضفرته وربطت أسفله بالشرائط. على السرير كانت تقبع الملابس القروية التي كان علينا ارتداؤها.

- هل أنت حزين؟

سألت دون أن تدير رأسها.

- قليلًا.

كان ذلك الحزن الهادئ الذي... حسنًا، الذي يعتري الرجل حين يمشط شعر المرأة التي يحبها ويشعر أنه غير جدير بها.

- الآن يجب أن نبدل ملابسنا بهذه الملابس.

قالت دون أن تبدي حركة.

- نعم.

- هل تمانع إذا بدلت ملابسي أمامك؟

- لا تفعلي، يا إدنا.

- لماذا؟

لم أجبها.

- ألأنك تحبني؟

أخذت أحملق في مؤخرة عنقها دون أن أجيب.

- أنا أكبرك بأربع سنوات.

- وهل هذا مهم؟

- لا، ليس مهمًّا.

بعد وهلة سألتني إذا ما كنت ساذجًا كما يبدو عليَّ. ملت على رقبتها وقبلتها.

- أنا لست ساذجًا، ولكنني متوتر لأنني أحبك.

- قلها مجددًا.

- ماذا؟

- إنك تحبني.

- أنا أحبك.

بدون وعي منا، أصبحنا أنا وفونت نهتم أكثر لما نقرأ سواء في السياسة أو في غيرها. وأصبحنا، تحت تأثير إدنا، نتناقش فيما نقرأ.

وأخذ العالم الآخر، حيث الثلوج في الشتاء والأسقف الحمراء المائلة، يلوح لنا: عالمًا كبيرًا خياليًّا حيث يعيش المثقفون، وحيث يشارك الطلاب صديقاتهم عاملات الطباعة الغرف، يغنون ويشربون البيرة في أكواب كبيرة. عالم مزيج من كل المدن الأوربية حيث بيكاديللي يقود إلى الشانزلزيه، حيث توجد قطارات الأنفاق، والشوارع المرصوفة بالحجارة، والريف شديد الخضرة الذي لم نره قط، والجراند أوتيل، ومصانع فيات، ومصارعة الثيران، حيث يعتنق عمال المناجم الشيوعية، بينما يمتلك رجال الشرطة نزعة فاشية، هناك حيث يوجد ما يسمَّى اليسار والبرجوازية وصاحبة النزل، حيث يطلق الأمريكان الفوضويون شديدو التباهي بأنفسهم -لِحَاهم-، حيث تعيش عائلة كريستوفر إيشروود، حيث للسويسريين أعلى دخل في العالم، حيث يسكن الشعراء السقيفة، وحيث توجد حمامات سباحة ملحقة بالمنازل.

أردت أن أحيا. قرأت وقرأت، وتحدثت إدنا، وأردت أن أحيا. أردت أن أقيم علاقات غرامية مع كونتيسات، أن أقع في غرام عاملة بار، وأن أبيع الهوى، أن أصبح زعيمًا سياسيًّا، وأن أربح في مونت كارلو، أن أكون متشرِّدًا في لندن، وأن أصبح فنانًا، أن أكون أنيقًا، وأن أرتدي رث الثياب.

في اليوم السابق لبداية العطلة الصيفية كنا ننتظر إدنا، أنا وفونت،

عند بوابة الجامعة. في ذلك الوقت يتوجه الأثرياء إلى الإسكندرية لقضاء العطلة. قال فونت:

- ها نحن على أعتاب عطلة الثلاثة أشهر: الشواطئ المزدحمة، التباهي بالثراء، المقامرة، الملاهي الليلية، وكل فتيات العائلة يردن حبًّا أفلاطونيًّا، بينما يشذب الفتيان شواربهم، ويستعرضون على الشاطئ متباهين بالسيارات والعلاقات العاطفية الوهمية. نفس الشيء التافه... لا حياة.

- نعم. الحياة في أوروبا.

لا أعلم إذا كانت إدنا قد قررت مسبقًا، لكنها، وعلى غير توقع، خرجت علينا بخطة لأخذنا إلى بريطانيا لقضاء الثلاثة أشهر. لم أستطع قط سبر أغوار نفسها لأعرف حقيقة ما تفكر به. لِمَ صادقتنا أنا وفونت، وأخذت على عاتقها مهمة تثقيفنا سياسيًّا، وأقامت علاقة معي؟ لم أستطع قط أن أجزم، وفي الواقع لم أفكر في ذلك آنذاك. ربما لأن ثلاثتنا تلقّى تعليمًا إنجليزيًّا، ربما لأنها كانت تشعر بالوحدة، أو أنها اعتبرت ذلك واجبًا اجتماعيًّا عليها. لم تخبرني قط أنها تحبني. ولو فعلت؛ ما كنت لأصدقها. كنت أتصور أن تحب إدنا شخصًا جادًّا قوي الإرادة يخلص لقضية كبري تحترمها هي، وكنت أنا بعيدًا جدًّا عن ذلك. ربما أعجبت بي بسبب تلك الواقعة في منزل خالتي، لكنها أذكى من أن تنخدع بهذا المشهد المبالغ فيه. على أية حال، فقد عرضت أخذنا إلى بريطانيا على نفقتها.

إذا ما أراد أحد أن يسافر؛ فإن عليه أن يستخرج جواز سفر، يملأ استمارة، ويقدم وثيقة ميلاده وبعض المستندات الأخرى، فيحصل على جواز السفر مباشرة، وهذا حقه الموروث. كانت قصة جوازات السفر هي ما ولّدت حيرة فونت قبل أن نصل حتى إلى تيلبيرى. لقد أمضينا ثلاثة أشهر ويومًا في محاولة لاستخراج جوازات السفر. خلال الثلاثة أشهر كنا وحدنا. ولم يفلح تقديم أي كم من المستندات أو المبررات لسفرنا، أو حتى الوساطة، في استخراج الجوازات لنا. ثم قابلنا صديقًا قديمًا لنا يحتل أبوه مكانة مرموقة في الجيش، فاستخرج لنا الجوازات، في يوم واحد، بمجرد إعطائه صورتين. كما أنه استخرج لنا تأشيرات المغادرة في غضون نصف ساعة.

قال فونت:

- كما لو كنا مجرمين أو شيئًا من هذا القبيل. تصوَّرْ أن نحتاج تأشيرة لمغادرة البلد! ثم وبعد ثلاثة أشهر من الشقاء، يأتي أحدهم فيحصل عليها خلال نصف ساعة. إن هذا لشيء مقزز. حين أفكر في أنني كنت أخاطر بحياتي من آن لآخر في السويس لأجل بلد لا تزال الوساطة العنصر الفاعل فيه...!

- فقط امنحهم بعض الوقت يا فونت، فلم يمضِ وقت كبير على توليهم السلطة.

- كلّا.

أجابني.

بعد ذلك، أصبح فونت من يجد لهم الأعذار:

- إن أقل من واحدٍ في المائة من عدد السكان يريدون، يستطيعون، أو مضطرون إلى مغادرة البلاد. إن هذه السفسطة الديمقراطية التي تقضي بأن من حق المرء أن يحصل على جواز للسفر مقبولة في بلاد لا يتضور ثمانون في المائة من تعداد سكانها جوعًا. فماذا يعني التضييق على نسبة الواحد في المائة الضئيلة تلك؟

لكن هذه الحادثة لم تكن كل شيء، فقد كان أمام فونت الكثير ليتعلمه.

لقد كتبت بعد ذلك بسنوات إلى شخص في مصر أنصحه بألا يلحق أبناءه بمدارس إنجليزية. فإذا كان ابنه من هؤلاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم، فسوف يتملكه القرف يومًا ما. في المدرسة كنا أنا وفونت من هذه النوعية من التلاميذ. كنا نقيّم كل شيء بمعايير الشرف، لا ندخن ونحن نرتدي سترات المدرسة لأننا قطعنا وعدًا بألا نفعل ذلك. كنا دائمًا نتوقع لعبًا نظيفًا من جانب البريطانيين، وعلى الرغم من كونهم بعيدين كل البعد عن ذلك صوّرتْ لنا حماقتنا أنهم سيلتزمون بما اعتادوا إقناعنا به عن «اللعب النظيف». ربما كان وراء هتافنا ضد الإنجليز قناعتنا بأنهم إذا ما انتبهوا إلى أن ما يفعلونه في مصر لا يُعدّ «لعبًا نظيفًا»، فإن ذلك سيجعلهم يرحلون. بالرغم من كل الكتب التي قرأناها عن قسوة ودناءة السياسة الخارجية لبريطانيا، لم نصدق ذلك تمامًا إلا بعد حرب السويس. بالطبع كانت هناك حروب مشابهة تتكرر باطّرادٍ في بلدان إفريقيا وآسيا

قبل حرب السويس. أقول ذلك الآن بسبب ما حدث عندما حاولنا أن نحصل على تأشيرات الدخول إلى بريطانيا.

عندما حصلنا أخيرًا على جوازات السفر وتأشيرات الخروج، أسرعنا إلى السفارة البريطانية للحصول على تأشيرات الدخول إلى بريطانيا. كان الموقف في السويس قد هدأ قليلًا، وبات يُسمح للمصريين بالسفر إلى بريطانيا، والعكس صحيح. ملأنا استمارتين. سألنا الموظف إذا ما كنا مسافرين للسياحة، فرددنا بالإيجاب. ثم سألنا عن اسم المدرسة التي كنا ندرس فيها. أخبرناه، فتركنا لمدة عشر دقائق ثم عاد ليخبرنا أنه جِدُّ آسف، لكنه لا يستطيع منحنا تأشيرات دخول إلى بريطانيا.

ذهبنا لمقابلة ناظر المدرسة التي كنا ندرس فيها، وقد كنا نحبه كإنسان. اتصل بصديق له في القنصلية ليرى لماذا يمنعون عنا التأشيرات. صاح في محدثه عبر الهاتف:

- بحق السماء يا رجل، ليس هذا سببًا منطقيًا لمنع التأشيرات عن هذين الشابين.

وضع السماعة ثم أخبرنا أنه آسف، لكن ليس في استطاعته أن يفعل شيئًا لأجلنا. قدم لنا سيجارتين قائلًا إنه يقدر خيبة أملنا. قال فونت إنه مشمئز أكثر منه خائب الأمل.

تحدث إلينا الناظر في هدوء، لكن دون مواربة. أخبرنا أن القضية برمتها قضية سياسية.

- إن هذه المدرسة تستقبل فقط أبناء الأثرياء من المصريين والعرب الذين، كما كان يؤمل، سيحكمون البلد بعد آبائهم لمصلحة بريطانيا العظمى. ولكونكما أنتما الاثنين من الأقباط، بينما الحكومة الجديدة مسلمة خالصة؛ لا يعبأ أحد بإعطائكما التأشيرات.

كان يبدو عليه الألم.

سألنا:

- لِمَ ترغبان في الذهاب إلى بريطانيا على أية حال؟

فقلت له:

- لا أدري تحديدًا يا سيدي. ربما لنرى ماذا يكون شكل الحانات، أو ربما لنسير في بيكاديللي، أو لنستمع في ركن المتحدثين.

ابتسم، ثم استرد هيئة الناظر وقال بسلطة:

- اذهبا إلى السفارة السويدية، وتقدَّما بطلب للحصول على تأشيرات دخول إلى السويد. ثم تقدَّما بطلب إلى السفارة البريطانية للحصول على تأشيرات مرور عبر الأراضي البريطانية. لن يستطيعوا أن يرفضوا طلبًا كهذا. وسأكتب أنا إلى شخص ما في انجلترا عليكما أن تتصلا به حالما تصلان إلى لندن.

كتب لنا عنوان هذا الشخص، وصافحنا مودعًا ومتمنيًا لنا قضاء وقت ممتع.

في السفارة السويدية، منحونا تأشيرات الدخول بأدب جم، بينما أعطانا الموظف في السفارة البريطانية تأشيرات المرور عبر الأراضي البريطانية،

مظهرًا بوضوح أننا لا ينبغي أن نبقى في بريطانيا أكثر من العشرة أيام الممنوحة لنا. قال فونت وراء ظهر الموظف:

- سأبقى لعشر سنوات لو أردتُ أيها الحقير الماكر.

كانت إدنا قد سبقتنا إلى أوروبا، بعد أن دفعت كلفة سفرنا، على أن تقابلنا في لندن. كانت في سويسرا في ذلك الوقت بصحبة والديها.

أمضينا أنا وفونت الجزء الأكبر من ليلة سفرنا جلوسًا في غرفتي نتحدث. لقد كونت العديد من الصداقات مع رجال ونساء أخرين، لكن أيًّا من هذه الصداقات لم يبلغ الدرجة من الحميمية التي كنا نتمتع بها أنا وفونت في ذلك الوقت. لقد قتل التعقيد العقلي الأوربي فينا شيئًا جميلًا وطبيعيًّا؛ قتله إلى الأبد وبغير رجعة. يبدو لي الآن أننا فقدنا في أوروبا أفضل ما كنا نمتلك. فقدنا المنحة التي وُهِبت لنا مع الولادة، شيء لا يمكن وصفه، لكنه موجود تحت السطح، والأكثر من ذلك أنه فطري. وقد فقدناه إلى الأبد. ولأن من يعون كُنْهَ هذا الشيء لا يقدرون على الاحتفاظ به؛ فقدت نفسي الفطرية بالتدريج. أصبحت شخصية في كتاب، وصنعًا مبتكرًا من صنائع المخيلة. أصبحت ممثلًا ومتفرجًا في مسرحية مرتجلة من تأليفي، مشاركًا ومتفرجًا في آن، أصبحت شخصية روائية.

رحلنا أنا وفونت إلى لندن. إلى أوربا التي كنا نحلم برؤيتها، إلى «الحضارة» و«الثقافة» و«حرية الرأي» و«الحياة». رحلنا ولن نعود أبدًا، على الرغم من أنه قُدِّر لنا الرجوع إلى مصر.

أبحرنا من بورسعيد إلى تلبيري. كان أول ما فعلناه على ظهر السفينة أن طلبنا خليطًا من بيرة إنجليزية الصنع. كان طعمها مائعًا، لكننا لم نبالِ. فقد كان يكفي أنها ما اعتاد الإنجليز شربه. ثم، جربنا قائمة من مشروبات كنا نسمع بها ولم نتذوقها قط.

حالما وصلنا إلى تلبيري، ذهبنا لمقابلة إدنا في محطة أوستن، حسبما أتذكر. كانت تقف هناك في انتظارنا، جميلة جدًّا ومتأنقة. لا أذكر الكثير مما حدث في ذلك الوقت، لكننا كنا نشعر بالسعادة نحن الثلاثة. وكنا أنا وفونت نشعر بالامتنان الشديد نحو إدنا، فمجرد وقوفنا في شوارع لندن كان متعة لنا.

نزلنا في فندق قرب هايد بارك. في اليوم التالي كتبنا إلى دكتور دنجايت، الرجل الذي نصحنا ناظر مدرستنا القديمة بالتوجه إليه، فرد علينا من فوره داعيًا إيانا لقضاء عطلة الأحد معه وأسرته في منزله في هامبستيد.

كان جيدًا من إدنا ألا تتحدث إلينا عن السياسة في الأيام الأولى لنا في لندن. الشيء الوحيد الذي فعلته آنذاك كان تقديم جريدتي «نيوستاتس مان» و«جارديان» لنا. ذهبنا إلى العديد من المسارح، وذهبنا مرتين إلى البرلمان. كما قلت سابقًا، أنا لم أظن قط أن إدنا تحبني. وخلال هذه الأيام الأولى في لندن تأكد لي ذلك، فقد كنت معتمدا كليًّا عليها. كنت أتبعها بوداعة متمنيًا أن تشعر نحوي بأكثر من المحبة والصداقة، لكن المرأة لا تحب إلا رجلًا يسيطر عليها، ولو قليلًا. كانت تتخذني حبيبًا أحيانًا، وكنت

أنا من الحكمة بحيث لا أظهر لها حبي الشديد. ربما كان ذلك ما يجتذبها نحوي، فقد كان يضفي شيئًا من الغموض على علاقتنا. فالنساء يخلطن أحيانًا بين الفضول والحب.

يوم السبت، كنا نتناقش فيما ينبغي علينا فعله، وقررنا أنا وفونت أنه ينبغي علينا ألا نذهب إلى منزل الدكتور دنجايت بيدين خاليتين.

قالت لنا إدنا:

- لا تكونا أحمقين. ليس عليكما أخذ أي شيء معكما. أنتما في انجلترا الآن، وليس في مصر.

وافقناها، لكننا اشترينا بعض الزهور في طريقنا على أية حال. كنا لا نزال نتمتع بفطرتنا السليمة في ذلك الوقت. كانت فطرتنا تملي علينا ألّا نذهب بيدين خاليتين، فلم نفعل. إذا قال لنا أحد: «لا تكونا شرقيين في تصرفاتكما»، كنا لنتساءل: «وكيف لنا أن نكون غير ذلك؟».

وقفنا راضين في طابور ننتظر الأتوبيس في بارك لاين.

- هاك يا حبيب.

قالت المحصلة التي تبلغ الأربعين من عمرها، فشكرها فونت بلهجة سكان لندن، كنا نحب أن نتحدث كما يتحدث اللندنيون، كان ذلك يشعرنا أننا في لندن حقًّا. كنا نحن الاثنان فقط نشغل الطابق العلوي من الحافلة، فأخذت المحصلة تتحدث إلينا.

قالت مشيرة إلى الزهور:

- يا للفتاة المحظوظة.

أجبتها:

- في الحقيقة، لقد ابتعناها لرجل.

- لا بُدَّ أنك تمزح.

- حسنًا، إنها لعائلة في الواقع.

- الزهور جميلة في كل الأحوال ومبهجة. واثقة أنها ستبهجهم كثيرًا.

- أشكرك.

- لستما إنجليزيين. أليس كذلك يا حبيب؟

- كلا. نحن مصريان.

- مصريان. تصور ذلك الآن. وهل يعجبكما الحال هنا؟

- نعم، كثيرًا.

- تصور أن أقابل مصريين الآن بينما ابني ستيف عائد لتوه من... حقًا لا أذكر اسم ذلك المكان...

- السويس.

- نعم، السويس. يقول إنه كان سعيدًا لأنه ذهب إلى هناك. لقد عاد من هناك في سمرة الهنود بفعل الشمس والسباحة. يقول إنه مكان جميل.

علق فونت:

- سعيد أنه أعجبه.

- يجب أن تأتيا لشرب الشاي معنا الأسبوع المقبل. أنا متأكدة أن ستيف سيسره كثيرًا التعرف عليكما.

رددنا نحن الاثنان:

- شكرًا لك.

- يقول ستيف إنه لم تتح له الفرصة للتعرف بالسكان المحليين هناك بسبب تعليمات الجيش وما إلى ذلك؛ لذلك أثق في أنه سيسر بمقابلتكما.

كررنا معًا:

- شكرًا لك.

- هل أمضيتما فترة كبيرة هنا، يا أحبائي.

- حوالي الأسبوع فقط.

- أتوقع أن تشعرا بالبرد هنا. يجب عليكما أن تتوخيا الحذر يا أعزائي. البسا شيئًا دافئًا قرب الجلد حتى لا تمرضا. هذا منزلنا هناك، رقم ١٢، فلا تنسيا أن تحضرا يوم السبت، وربما نتوجه بعد ذلك إلى الحانة المجاورة لتناول الجِنّ.

قالت ذلك غامزة. كان اسمها السيدة وارد. كتبت لنا العنوان على ظهر تذكرة، ثم أسرعت بالنزول إلى الطابق السفلي من الأتوبيس. نزلنا من الأتوبيس في هامبستيد الغربية، ولوحنا لها.

قطعنا الطريق في صمت إلى هامبستيد عبر سويز كوتيدج. الأتوبيسات ذات الطابقين، والأسطح المائلة، وقطارات الأنفاق كانت كلها هناك.

مشينا وتفرجنا وأحسسنا بأن تدافع الناس في محطة هامبستيد يخترقنا. هامبستيد كانت تمثل انجلترا أكثر من نايتسبريدج.

كان منزل الدكتور دنجايت شبه المنعزل يقع في شارع ضيق منحدر. قرعنا الجرس، ثم انتظرنا قليلًا. توقعت أن يفتح لنا الباب شخص شبيه بناظر مدرستنا.

سألني فونت:

- هل تتوقع أن يفتح لنا الباب كبير السقاة؟

- بالطبع. جيفز بنفسه سيصحبنا للداخل مناديًا اسمينا بعربية ممتازة، ويسألنا إذا ما كنا نريد بوظة، أو أي شيء يشربه المصريون أمثالنا.

لكن، بدلًا من ذلك، سمعنا صريرًا، انفتح الباب على إثره بمفرده.

- ادخلا، ادخلا أيها الشابين.

جاءنا صوت رجل من أعلى السلم.

- علِّقا معطفيكما، واصعدا إلى هنا. هل وجدتما صعوبة في الوصول؟

صحنا معًا كتلاميذ المدارس:

- كلّا يا سيدي.

علقنا معطفينا، ثم صعدنا إلى الطابق العلوي. كان رجلًا طويلًا في انتظارنا أعلى السلم متكئًا على الحاجز، يرتدي سترة قديمة من التويد، ضيقة وقصيرة جدًّا من الخلف، مخيط بها قطعة من الجلد تحت المرفق.

سألنا الدكتور دنجايت:

- حسنًا، أيكما رام وأيكما فونت؟

رد فونت:

- أنا فونت. لكنني مندهش لمعرفتك بهذا الاسم، فهذا الاسم يناديني به أصدقائي.

ضحك الدكتور دنجايت قائلًا:

- ها. إن معي هنا سيرتيكما الذاتية.

صافحنا بحرارة شديدة:

- أنتما على الرحب والسعة هنا. لا أريدكما أن تشعرا للحظة أنكما غريبان. تعالا وقابلا عائلتي.

ثم لمح الزهور، فقال:

- ها، هذه الزهور للماما؟ إن هذا للطف شديد منكما! إنها في المطبخ الآن، سنذهب إليها بعد أن أعرِّفكما على أبنائي.

كان هناك ثلاث بنات في عشرينياتهم، وابن في حوالي الثلاثين يشبه أباه كثيرًا.

- هؤلاء بناتي جاين وباربرا وبرينداء وهذا ابني جون.

تصافحنا جميعًا، ورحبوا بنا قائلين

- أهلًا رام. أهلًا فونت.

- الآن، تعالا لتقابلا الماما. لقد حرصت على إعداد غداء تقليدي لأجلكما، وهي تتأكد من كونه على أفضل ما يكون.

تبعناه إلى المطبخ. وضع يدًا على كتف كلٍّ منا، ودفع بنا تقريبًا إلى زوجته.

- ها هما، يا ماما.

كانت طويلة هي الأخرى، نحيفة بعض الشيء، وكانت عيناها الزرقاوان تشعّان بحيوية.

قالت السيدة دنجايت وهي تمسح يديها لتصافحنا:

- ما أجمل هذه الزهور. إنه للطف بالغ منكما أن تفكّرا في ذلك.

صافحتنا وقالت إننا مُرَحَّب بنا في بيتها. بعد ذلك، رجعنا إلى حجرة الجلوس.

جلسنا أنا وفونت مكتّفي الأذرع، خجولين بعض الشيء، نرد على الأسئلة التي توجه إلينا. علمنا أن ناظر مدرستنا أخو السيدة دنجايت، وأنه طالما أخبرهم عن حبه للمصريين، «لكنه لسوء الحظ، يواجه صعوبة في تقريب وجهات نظره مع من لهم الكلمة في المدرسة». كان الدكتور دنجايت يقرأ هذا الجزء من خطاب ناظرنا إليه الذي يخبره فيه عنّا.

- آه.

أكمل الدكتور دنجايت مُغْفِلًا صفحة من الخطاب.

- بالنسبة لمشكلة التأشيرات، لا أستطيع أن أعدكما بشيء. فأنا لا أريد أن أعطيكما أملًا، لربما خاب. لكن، يجب عليكما أن تضعا في الاعتبار أنه إذا ما رفض المسؤولون تمديد إقامتكما، فعليكما أن ترحلا في الوقت المحدد.

أخفض الدكتور دنجايت الخطاب، وأحنى رأسه موجهًا إلينا من فوق نظاراته نظرة تجمع بين التسلية والقسوة. بينما وقفت السيدة دنجايت في فتحة الباب تستمع إلى ما يُقال.

- لو كنت مكانكما، ما كنت لأرحل طالما لا أريد الرحيل.

كان جون من قال ذلك.

فردت أمه:

- لا تزرع هذه الأفكار الحمقاء في عقليهما، يا جون. نحن جميعًا سنفعل ما في وسعنا لإبقائهما، لكن عليهما ألا يفعلا ما يخالف القانون.

- أَوَ ليس بقاء ثمانية آلاف جندي بريطاني ضد إرادة مصر، مخالفًا للقانون؟

قام جون وأخذ يمشي في أرجاء الحجرة ويداه في عمق جيبيه.

- جون، من فضلك.

- واثق أن كل جندي لديه تأشيرة دخول مدفوع ثمنها وموثقة من السفارة المصرية، وإلا ما كان لهم أن يكونوا في مصر. فنحن الإنجليز لا نخالف القانون أبدًا. إن هذا مبدأ نجيد استخدامه جيدًا.

قالت إحدى الفتيات:

- سنعمل جميعًا على بقائكما.

- حسنًا، حسنًا. علينا أن نناقش الموضوع بهدوء لنرى ماذا علينا أن نفعل. سوف أسأل نائبًا عن العمال في البرلمان... .

سخِر جون:

- نائبًا عن العمال! أبي، إنك ترفض أن ترى هؤلاء النواب على حقيقتهم. هل نسيت سير... .

قاطعه والده:

- أنا لا أستطيع كذلك أن أطلب من الشيوعيين مساعدتهم. هل أستطيع؟

دفع جون بيديه أكثر في جيبيه وجلس.

هل يثور الإنجليز حقًّا على قرارات ساستهم الظالمة؟ أخذ فونت يحملق في جون بإكبار، وقد بلغ حاجباه ارتفاعًا كبيرًا.

قالت بريندا:

- لا أظنك ستكلم الشيوعيين لأجلهما حتى لو كانوا يستطيعون المساعدة يا أبي.

بريندا هي الابنة الصغرى، وتبدو مختلفة بعض الشيء عن شقيقتيها. كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا لكنه أنيق. وكانت تصفف شعرها بطريقة بسيطة كذلك، بخلاف شقيقتيها اللتين كانتا ترتديان البنطلون وتربطان شعريهما على هيئة ذيل الحصان، على الرغم من أن هذه التسريحة لم تكن تناسب الشقيقة الكبرى، باربرا، إطلاقًا.

نظر إلينا الدكتور دنجايت وعلى وجهه ابتسامة اعتذار، قال:

- في هذا المنزل أربعة اتجاهات سياسية مختلفة، ويتوقع الجميع

أن أساند هذه الاتجاهات كافة بحماسة وإخلاص. فجون مثلًا كان عضوًا في الحزب الشيوعي حتى فترة قريبة، أما الآن فقد تحرر من الأوهام. أما بريندا، فهي مازالت شيوعية متحمسة، حتى أنها خرجت اليوم الأحد في الثامنة صباحًا تبيع جريدة العمال اليومية. زوجتي ليبرالية، وابنتاي الأخريان تصوتان لصالح حزب العمال. تجد في هذا المنزل أربع جرائد مختلفة: «الجارديان»، «الدايلي هيرالد»، و«الدايلي وركر»، بالإضافة إلى أربع جرائد أسبوعية أخرى: ... .

أردف جون:

- لقد نسيت «التايمز»، يا أبي.

- آه، نعم. و«التايمز» أيضًا.

قالت جاين بابتسامتها الكسولة:

- أبي، إننا نضجر رام وفونت بهذه المجادلات.

يبدو أنها لا تعبأ كثيرًا بالسياسة، لكنها أبدت اهتمامًا بفونت.

قلنا معًا:

- لا. إطلاقًا.

قالت:

- أنا ذاهبة لاحتساء شراب قبل الغداء، من يريد مصاحبتي؟

لم يردْ أحدٌ. فقامت وجذبت ذراع فونت قائلة:

- تعال يا فونت. لنتناول الشراب معًا، بينما تحدثني عن النيل والأهرام.

كنت أرغب بشدة في تناول الشراب. ربما ليزيح عني هذه الحالة من الخمول التي يحدثها الامتنان والخجل. لحسن الحظ، قال جون:

- لم لا نذهب جميعًا؟ تعال يا أمي.

- لا يا عزيزي. لا أستطيع الذهاب. كما أني لا أريد لأبيك أن يشرب اليوم، فعليه أن يعمل بعد الظهر، والشراب سوف يجعله نعسًا.

صرخت جاين:

- لكنني سوف آخذ فونت إلى حانة أخرى، فأنا لا أريد الاستماع إلى المزيد من مناقشاتكم السياسية.

قال أحدهم:

- حسنًا يا فونت، لقد نلت المراد، فقد أعجبت جاين.

ضحك فونت مُحْرَجًا.

قالت جاين:

- سأحاول إغواءك يا فونت، ألا تحبني ولو قليلًا؟

رد فونت:

- لقد أحببتكم جميعًا.

قالت السيدة دنجايت:

- أوه، أليس هذا لطيفًا؟ والآن هيا اذهبوا جميعًا، ولا تفرطوا في الشراب. الغداء في الثانية.

نزلنا جميعًا إلى الطابق السفلي، فأخذ الجميع يستعد للخروج. هناك

نوع من الوحدة المحببة حين تستعد مجموعة من الناس للخروج، دائمًا ما أرحب بها بعد التوتر وانعقاد اللسان الذي يصاحب التعرف إلى أحد للمرة الأولى، كأن تترك حفلة في أوجها إلى هدوء الحمام، فيزيد الضجيج في الخارج من إحساسك بالخلوة. لبست معطفي ببطء متسائلًا إذا ما كان التعرف إلى هذه العائلة وقبول ضيافتهم أمرًا ممتعًا. هذه اللحظة، حين كنت ألبس معطفي، كانت البداية. أحسست لأول مرة في حياتي أن نفسي تنقسم إلى جزأين: جزء يشارك في الأحداث، بينما الآخر يتفرج ويحكم. لكن هذا الانقسام لم يكن تامًّا بعد، كان الجزآن يبدآن الجذب في اتجاهين مختلفين.

ذهبت جاين وفونت إلى حانة أخرى قائلين إنهما ربما ينضمان إلينا بعد ذلك. أشارت باربرا في طريقنا للحانة إلى نافذة وقالت إنها تسكن هناك.

- ألا تقيمين مع والديك؟

- لا. بريندا فقط تقيم معهما. جون يسكن في شارع بايكر، بينما تسكن جاين في سويز كوتيدج.

أربكني ذلك فقد كان المنزل كبيرًا بحيث يسعهم جميعًا.

شربنا جميعًا البيرة. كانت إدنا قد أخبرتنا أن العرف في انجلترا يقضي أنه إذا دعاك أحد لشرب البيرة، فينبغي عليك أن تبتاع له كأسًا أنت الآخر. أحببت أن أحمل الكؤوس إلى البار وأقول بلهجة لندنية:

- أربع كؤوس من البيرة من فضلك.

سألتُ بريندا:

- هل أنت حقًّا عضوة في الحزب الشيوعي؟

- هل أنا حقًّا عضوة؟ نعم، أنا عضوة في الحزب الشيوعي منذ أن كنت في الخامسة عشرة.

- ما رأيك في عبد الناصر؟

- عبد الناصر.

رفعت كأسها لتشرب نخب عبد الناصر.

- بالرغم من أنه يسجن الشيوعيين؟

قال جون:

- صحيح. كيف تشربين نخب من يسجن الشيوعيين؟

قالت بريندا بدون أي تردد:

- أنا أشرب نخب أي شخص يحارب الإمبريالية.

قال جون.

- أرأيت! لهذا السبب تركت الحزب. يطلب منك هاري بوليت أن تؤيدي عبد الناصر، فتؤيدين عبد الناصر.

- عزيزي جون، أنا أعلم جيدًا لم تركت الحزب.

ذكرني هدوؤها بإدنا.

- لقد أقررت بالأسباب الصحيحة لمغادرتي الحزب.

- الصحيحة لا الحقيقية.

- ها! تجعلين هناك فرقًا بين «صحيح» و«حقيقي»؟ أقول لك، لهذا السبب تركت الحزب. فالتكتيكات «الصحيحة» والدعاية لا علاقة لها بالحقيقة.

كنت أستمتع بما يدور حولي. ليس لأن ما كنا نتحدث بشأنه ممتع في حد ذاته؛ لكن لأنني كنت أجلس في حانة في لندن مع «المثقفين» الذين كنت أقرأ عنهم في الكتب، ولأن الفتيات جذابات، ولأن جون شخص محبب. كان طبيعيًّا أن أحاول مقارنة ما أراه مع الكتب التي قرأتها، وأن أقول لنفسي ها أنت وسط «الحياة» التي كنت تحلم بها.

قالت باربرا لجون إنها تتمنى لو يرجع إلى الحزب فقط ليضع حدًّا لهذه المشاحنات مع بريندا. لكنهما استمرا في الحديث عن الانتخابات القادمة، وإذا ما كان على الشيوعيين أن يصوّتوا لصالح حزب العمال، فازدادت المناقشة سخونة، حتى أن باربرا شاركت في الحديث.

كنت فوق السابعة عشرة بقليل حين صوّتُّ في الانتخابات لأول مرة. صوَّتُّ بإبهامي. أقصد أنني غمست إبهامي، باختياري، في الحبر، ثم وضعت بصمتي حيث قيل لي أن أبصم في خانة مقابلة لاسم المرشح. سألني فتى اسمه كمال بالفرنسية:

- ألا تريد أن تقضي ليلة رائعة؟

أومأت، فقال لي:

- انضم إلينا إذن، حيث يقدم أفضل أنواع الويسكي. وذلك في مقابل بصمة.

لم أفهم تمامًا ما قال، لكنني تظاهرت بالمعرفة.

كنت قد التحقت بالجامعة في ذلك الوقت مخلِّفًا ورائي ركود الحياة المدرسية. وبدأت الحياة بالنسبة لي في الجامعة: المظاهرات وما يتخللها من هتافات حماسية ومواجهات مع الشرطة، وسرقة المواد المتفجرة من المعمل. إنها الحياة أخيرًا. كما أنني كنت ملتحقًا بصفوة الكليات؛ كلية الطب. لم يكن يهم في الواقع إذا ما كانت عربيتي مزرية، أو أنني كنت، طبقًا لما يمكن أن يكون عليه تقرير جامعة مثل أكسفورد أو كمبريدج، ضليعًا في الآداب والرياضيات لا في علم الأحياء. لم يكن يهم أنني انتزعت مكانًا كان يجدر بأحد غيري، يمتلك مؤهلات أفضل، أن يشغله. لم يكن يهم كل ذلك، فقد كنت من الصنف المحظوظ، فقط لأن لديَّ وساطة لم أسعَ حتى إلى استغلالها. لا بُدَّ أن والدتي أو إحدى خالاتي دبرت الأمر. المهم أنني «قد قُبلت في كلية الطب، يا عزيزي».

ولقد اغتلنا شخصًا يدعي زكي بك. لا أتذكر من كان يرأس الحكومة في ذلك الوقت، لعله كان النقراشي باشا، لكن زكي بك هذا كان رئيس البوليس. كان قد حضر إلى كلية الطب مصطحبًا معه خمسين رجلًا من رجال الشرطة المتعطشين للدماء ودبابة مستهلكة. بعد العديد من التحضيرات الميكانيكية والمشاورات، وجهوا مدفع الدبابة باتجاهنا فوق سطح مبنى الكلية، ثم سمعنا صوت انفجار. حاول بعضنا الإمساك بما قذفت به الدبابة، لكنه لم يصل إلى أيدينا، بل سقط فوق سيارة خالتي

التي أخذتُها دون علمِها وأوقفتها في الصباح إلى جانب مبنى الكلية. جعلني ذلك في قمة الغضب؛ لأن خالتي ستعرف أنني أخذت السيارة نظرًا لوجود ثقب كبير في سقفها؛ لذا فقد شاركت في قذف قنبلة صُنِعت للتو فوق سطح المبني على القوة بالأسفل، وقضت على زكي بك.

لا أذكر جيدًا لمن صوّتُّ آنذاك، لكنهم قدموا لنا الويسكي والفول السوداني بعد أن أخذونا في سيارات الكاديلاك إلى اللجان لكي نصوِّت. باستثناء كمال، لم يكن أحد منا قد بلغ السن القانونية بعد.

لم أعرف أن زكي بك مات إلا حين عدت إلى البيت. كان قد أمر رجاله بفتح كوبري قصر النيل أثناء عبور مظاهرة طلابية، فمات ستة طلاب غرقًا. نُظِّمَتْ له في اليوم التالي جنازة محترمة تضم حوالي نصف رجال الشرطة، بالإضافة إلى آلاف المدنيين. وحفلت صحف المساء بصور للموكب المهيب يضم بعضها وجوه العديد من علماء المستقبل الواعدين من بينهم كمال. كان هؤلاء العلماء أنفسهم من صنعوا القنبلة في اليوم السابق.

أُقفِلت الجامعة، كالعادة، لمدة شهرين قضاها معظمنا على شواطئ الإسكندرية. عندما فتحت الجامعة أبوابها مرة أخرى، كان عليَّ أن أنضم إلى أحد الأحزاب السياسية. كان هناك الوفد، الإخوان (المسلمون)، التنظيمات الشيوعية، والأحزاب المنشقة عن الوفد.

كان الوفد يدفع جيدًا، بشرط أن تكون خطيبًا أو منظم مظاهرات جيدًا. كنا نسمع أنهم يوفرون لأتباعهم السيارات والشراب المجاني في

كازينو الأريزونا أو الأوبرج، لا أذكر أيهما. وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال لانتسابي إلى الإخوان كوني قبطيًا، كما أنه كان من الممكن أن يأمروك بإطلاق الرصاص بدم بارد على أي شخص وفي أي وقت. وكان عليك أن تظل على نشاطك حتى والجامعة مغلقة. كانوا يدفعون وعودًا بالجنة في الآخرة والدنيا.

التنظيمات الشيوعية، على الرغم من سرية نشاطها، كانت الأكثر احترامًا، ذكاءً، نشاطًا، وهدوءًا كذلك. لم تكن هذه التنظيمات تدفع شيئًا نظير عضويتها، بل كان العضو مُعرَّضًا في أي وقت للسجن؛ ما يجلب البؤس والشقاء لأسرته. أما الأحزاب المنشقة عن الوفد؛ فقد كانت الأكثر شعبية. وكان ينضم إليها الاشتراكيون، والفوضويون، وأشباه المثاليين، والتقدميون، ومشجعو غلق الجامعات، بالإضافة إلى معظم أبناء الطبقة الوسطى.

لم أنضم إلى أي حزب، وعددت نفسي بين من ينذرون أنفسهم لقضية الجلاء. كنت أول من يرجع إلى البيت حين تبدأ الاعتصامات أو المظاهرات ضد الإمبريالية البريطانية.

حضر كمال إلى المعمل ذات مرة وعلى وجهه لحية نابتة؛ ما يعني أنه قد انضم للإخوان. بادرني:

- أيها الكافر، هل تستطيع أن تسرق مفتاح مخزن المواد الكيميائية اليوم؟

أجبته أن لديَّ امتحانًا في اليوم التالي، وأنه لا علاقة لي بالإخوان على

أية حال. أخبرني أنه على الرغم من انضمامه حديثًا إلى الإخوان؛ فإن هذه المهمة مسندة إليه من قبل التنظيم الذي كان منتسبًا إليه قبل ذلك. ثم أخرج ورقة كُتِبَ عليها سبعةُ أسئلة، قال إنها بين أسئلة امتحان الغد. بدأت أقول إني أشكره، لكنني لا أحتاج إلى أسئلته. كانت الأسئلة التي كتبها مختلفة تمامًا عن تلك التي اشتريتها في اليوم السابق نظير خمسة وعشرين جنيهًا. كما أنني سأحتاج ثلاثة أيام لأعد الإجابة عن هذه الأسئلة التي يعرضها عليَّ. هناك خطأ على ما يبدو، فالجوائز تُعطى للطلاب الذين لا يستحقون.

سرْتُ إلى قاعة الامتحانات في اليوم التالي مغتمًّا، فقد كنت بالكاد مؤهلًا للإجابة عن ثلاثة أسئلة من السبعة. لكني قوبلت ببشرى احتراق قاعة الامتحانات وتأجيل الامتحانات لعشرة أيام على الأقل.

ظهر وجه كمال كذلك في الصور التي نشرتها الصحف لجنازات النقراشي باشا والشيخ البنّا مرشد الإخوان من بعده. قبل الثورة بقليل، أصبح كمال يمتلك سيارتين وفيلا على طريق الهرم، بالإضافة إلى شقة في وسط البلد. ثم رأيته ذات مرة بعد الثورة، كان يستقل ترام نمرة ٦ مرتديًا بذلة بنية قديمة وحذاءً قماشيًّا خفيفًا، وكان يضع منديلًا حول رقبته ليحمي ياقته. حيّاني بحرارة قائلًا:

- بارت بضاعتي.

ثم أضاف بابتسامة:

- أيها الكافر.

عاد فونت وجاين من الحانة التي اختاراها. سألت فونت إذا ما كان يذكر كمال:

- كمال من؟

- كمال حسن.

- كمال حسن؟ ... آه، نعم. كمال حسن زميلنا في أول سنة بالجامعة. ماذا، هل هو هنا؟

- لا، لا. كنت فقط أفكّر فيه.

لكن فونت كان يبدو عليه الانشغال، ولم يكن يبدي كثيرًا من الاهتمام.

- ماذا بك يا فونت؟

كنا نمشي معًا خلف الأخوة دنجايت في طريق العودة إلى منزل والديهم.

- لا شيء.

- بحق المسيح يا فونت. ها نحن هنا في لندن. فماذا هنالك؟

- لا شيء.

- تبدو مشوشًا.

سرنا في صمت لوهلة.

- أتعرف يا رام؟ هذا الجرح الذي أصابني به إنجليزي لعين في السويس.

- نعم؟

- كانت جاين تخبرني لتوها أن الإنجليز ليسوا بالسيئين حقًا. وأنه ينبغي عليَّ ألا أصدق كلام الناس، أو الأجانب، عنهم. فأريتها ندبتي، وأخبرتها كيف حصلت عليها.

- حسنًا؟

- قالت إنها آسفة لأنني جُرحت. ثم أخبرتني عن قريبة لها اختُطِفَتْ واغْتُصِبَتْ عدة مرات على يد مصريين في السويس، وعثر على جثتها عارية قرب نبع.

- حسنًا؟

- حسنًا؟ أليس هذا كافيًا في نظرك؟

- عم تتحدث يا فونت؟

- أليس مرعبًا أننا نستطيع القيام بأفعال كهذه؟

- نحن؟ أجننت يا فونت؟ ماذا كانت تفعلُ هناك طالما تعلمُ جيدًا أنها غير مُرحَّب بها؟

- هناك فارق كبير بين إزعاج القوات البريطانية في السويس، وبين قتل امرأة.

لا أعرف لِمَ أراد فونت إفساد يوم لطيف بهذا الهراء.

قال فونت:

- إنني أستغرب أن يستضيفونا بعد ما حدث.

- بعد ما حدث؟

- اغتيال قريبتهم.

- تستغرب أن يستضيفونا؟ يجب أن تستغرب كوننا نتحدث معهم على الإطلاق.

كنت أزداد غضبًا من فونت.

- أنسيت كل من ماتوا في السويس؟ أم أنك ستصبح كابن خالتي منير؟

- لا، لا. لا تكن غبيًّا، لكن ... .

وقف الآخرون ينتظروننا لنلحق بهم، فتوقفنا عن الكلام. لكن، للمرة الأولى، حدث صدع في علاقتي بفونت.

غادرنا بعد الغداء، بعد أن اتفق فونت وجاين على أن يتقابلا لتناول الشراب معًا في المساء. وكان جون قد تحدث إليَّ لما يقرب من الساعة عن الطرائق التي يمكن أن ننتهجها لتمديد إقامتنا.

- حسنًا، ما رأيك يا فونت؟

كان فونت يرى أنه إذا ما أتت نتيجة الانتخابات القادمة لصالح حزب العمال، فلن يكون هناك المزيد من المتاعب في السويس .

- لم أقصد ذلك، يا فونت. أقصد ما حدث اليوم: مقابلة آل دنجايت، وكل شيء.

- أعتقد أننا يجب أن نقرأ «النيو ستاتس مان» بانتباه أكثر، فهي تعكس آراء العديد من ... .

- بالله عليك يا فونت. أنا لا أتحدث عن السياسة. مجرد الذهاب هناك لتناول الغداء ثم الذهاب إلى الحانة، وكل ذلك.

- أخبرتني جاين أن السيد بيفن عادة ما يزورهم.

لم أتحدث بعد ذلك حتى وصلنا الفندق.

سألته:

- ماذا عن جاين؟

- إنها لطيفة. لكن بريندا من أعجبتني.

ذهبت إلى غرفة إدنا، واستلقيت على فراشها. وضعت يديّ تحت رأسي وأغمضت عينيّ. تخيلت نفسي في حانة ممسكًا بكأس البيرة أخاطب العديد من أمثال جون وجاين وبريندا. كان خطابًا رائعًا محتشدًا بالتعليقات الذكية والعبارات المقتبسة. أخذت أخبرهم عن وحشية الإنجليز، وعن البؤس الذي جلبوه لملايين البشر. تغلبت على مشاعري ودفعت بكأس البيرة بعيدًا دون أن أمسها. كانت أنظارهم مشدودة إليّ، يستمعون إلى إدانتي الثائرة لأفعالهم الجائرة بانتباه يشوبه الإحساس بالخزي:

- إن الجنس الإنجليزي جنس متفرد حقًّا. جنس يعد نفسه أكبر من أن يشعر بإثم ما يفعله تجاه الشعوب الضعيفة، لكنه أصغر من أن يحرر نفسه من قيود الاستعمار التي يفرضها على البشر ومن ثمّ على نفسه. إن كل إنجليزي يولد متمتعًا بقوة معينة، حين يريد شيئًا ما لا يعترف

لنفسه قط بأنه يريد هذا الشيء؛ بل ينتظر ريثما تأتي إلى ذهنه، لا أحد يدري كيف، قناعة ما بأن من حقه الأخلاقي والديني غزو الشعوب التي تملك هذا الشيء الذي يريده، ومن ثمّ يحصل عليه. لكنه أيضًا جنس لا يعجز عن إيجاد الادعاء الأخلاقي الذي يغطي ما يقوم به، حين يعجز عن إيجاد أسواق لبضائعه البائرة، يرسل المبشرين لتعليم السكان المحليين كتاب السلام، فيقتل السكان المحليون المبشرين، فيطير إلى هذه الشعوب بأسلحته وعتاده لنصرة المسيحية: يحارب من أجل المسيحية، ويغزو من أجل المسيحية، ثم يحصل على السوق الذي يريده مكافأة من السماء.

لم يكن هذا الخطاب من تأليف برنارد شو، بل كان تعبيرًا مرتَجَلًا عن أفكاري. أنتَهي من خطابي، فأصمت ويصمت الجميع للحظة ينفجر بعدها الهتاف والتهليل. تدمع أعين البعض، وتتوسلني النساء أن أكون حبيبهن، لكني أرحل وحيدًا ومشمئزًّا في ضباب الليل المعتم، يُثقل قلبي كمّ الظلم الموجود في العالم. أعود مكتئبًا إلى حجرتي القذرة الموحشة، فأجد إدنا في انتظاري ممتلئة بالحب، تندفع إلى ذراعيّ وتخبرني أنها استمعت إلى خطابي.

انفتح باب الغرفة. دخلت إدنا، وجلست على الفراش.

- ماذا فعلتم بشأن الإقامة، يا رام؟

- جيد جدًّا، شكرًا لك. ماذا عن إقامتك؟

- أنا لا أواجه مشاكل بشأن الإقامة مطلقًا.

- لماذا؟

- لأن أبي ثري كبير.

- لا، بل لأنك يهودية.

- ربما.

- هل سمعت قط أن فرنسا أو بريطانيا رفضت إعطاء تأشيرة دخول أو إقامة ليهودي مصري؟

- لا، لعلك على حق.

- أتعلمين لماذا؟

- لماذا؟

أخرجت كتابًا من تحت السرير قام بتأليفه أحد الضباط المرموقين في الجيش البريطاني، وأخذت أقرأ: «بالإضافة إلى ذلك، فإن المواطنين اليهود سوف يساندون أية محاولة لإعادة احتلال البلاد من جانب بريطانيا.»، كان هذا سببًا إضافيًا، من وجهة نظره، لاحتلال مصر.

قالت:

- أنا لم أحضرك إلى هنا لتلتقط هذا الهراء العنصري.

لم تلفت «لم أحضرك إلى هنا» هذه انتباهي في هذه اللحظة.

- في الصفحة رقم ستين، ستجدينه يقول: «أما المواطنون الأقباط، فسوف يكونون أكثر من مرحِّبين».

- هناك الآلاف من هذه الكتب الغبيّة.

ثم تذكَّرتُ «لم أحضرك إلى هنا». في الظروف العادية، لم تكن هذه الجملة لتلفت انتباهي. لكن عقلي اليوم كان منشغلًا بتحليل الأمور.

- لماذا أحضرتنا إلى هنا؟

- لأنكما كنتما تهذيان برغبتكما في زيارة انجلترا لعام كامل.

- زيارة أوروبا.

- أوروبا، إذن. لا تقلق فسوف ترى الكثير منها قبل أن تعود إلى مصر.

- بكل تأكيد.

- حسنًا.

أكملت بعد تردد:

- ربما كان عليكما استغلال الأيام القادمة جيدًا، فقد تضطران للرحيل سريعًا.

- لا، أستطيع أن أمكث إذا أردت، أستطيع أيضًا أن أستغل معارفي إذا أردت.

- حقًّا؟ ولكننا لسنا في مصر، كما تعلم.

- قد تدهشين.

رأيت أنني أصبح بغيضًا، وكان هذا شيئًا جديدًا عليَّ. كنت دائمًا غاضبًا وساخطًا على الأوضاع من حولي. لكن أن أتعمد أن أكون بغيضًا، كان شيئًا جديدًا.

- ماذا هنالك، يا رام؟

حسنًا، لقد قابلت من يدعون مثقفين، فلم لا أستخدم أساليبهم؟

- لقد سئمت معاملتي كطفل تضمِّينه تحت جناحك.

كانت تعلق معطفها في هذه اللحظة. لمحتها تتصلب قليلًا، ثم واصلت تعليق المعطف قبل أن تأتي لتقف إلى جانب السرير وتقول لي:

- آسفة، يا رام. أعتقد أنني حقًّا أعاملكما بهذه الطريقة، لكنني لم أتصور أن تُعيرا اهتمامًا لهذه الأشياء.

للمرة الثانية تشعرني إدنا أنني صغير النفس. كانت المرة الأولى حين عزوت كرهها للأغنياء أمثال منير إلى كونها «نزوة فتاة ثرية».

- ولِمَ لا؟

ترددت قليلًا، ثم قالت إنها لا تعرف كيف تفسر السبب.

- لماذا أنت غاضب؟

لم أجب. أخرجت مشطها من حقيبة يدها، وأعطتني إياه. لقد أصبح تصفيف شعرها لازمة جنسية بيننا. كان غريبًا أن أتلقى مكافأة على كوني بغيضًا، فقد أحبتني ظهيرة ذلك اليوم. هل هناك أروع من أن تمتلك المرأة التي تحب في ظهيرة أحد الأيام، ثم تنام وتصحو لتغتسل وتخرج معها يدًا بيد؟

استقللنا معًا قطار الأنفاق إلى ألدجايت، ثم سرنا في الشارع التجاري نبحث بين الناس عن شخوص و. و. جاكوبس.

- كيف يرفضون السماح لمصري يحب جاكوبس بالإقامة في انجلترا؟

قبّلتْني، وقالت إننا قرأنا أكثر مما ينبغي.

لم يعد فونت إلى الفندق تلك الليلة. عاد في الثامنة من صباح اليوم التالي.

- مرحى، مرحى، مرحى. ماذا فعلت يا فتى؟ لم أظنك قادرًا على فعل ذلك.

قلت له بلهجة هي خليط من لهجات بريطانية. كنت سعيدًا في ذلك الصباح، فقد كانت إدنا متدفقة المشاعر في الليلة السابقة، وشعرت أنها على وشك الوقوع في حبي.

- أنا و... أنت تعلم.

- مع جاين؟

- أنا أشعر بالخزي، يا رام.

- أنت لم تغتصبها، أليس كذلك؟

- أتمنى ألا تستخدم هذه الكلمة. أقصد أن أنام معها بعد أن استضافنا والدها.

- ها ها ها. لست سوى فلاح متخلف. إدنا.

صرخت مناديًا عبر غرفة الحمام:

- تعالي، اسمعي هذا.

أتت حافية القدمين مرتدية منامتها، وقفزت إلى سرير فونت الخالي.

- ماذا؟

أخبرتها.

- فونت الرقيق، أنت من يجدر بي أن أحبه، أنت لم تسِئ إليهم في شيء. هي أرادتك.

احمرَّ وجه فونت، الرقيق.

دخلت خادمة الغرف فجأة، فقالت حين وجدتنا:

- أوه، المعذرة.

بادرتها:

- لا عليك يا حبي. ادخلي، تنقصنا رفيقة أخرى.

خرجت متمتمة:

- ادخلي، ها!

ثم..

- عرب قذرون.

أغضب ما قالت إدنا وفونت بشدة، بينما انفجرت أنا ضاحكًا.

قال فونت:

- لقد تغيرت، يا رام.

أعطانا جون دنجايت قائمة بما نستطيع فعله للحصول على تصريح الإقامة. كان قد اتصل بصديق له على صلة ما بوزارة الداخلية.

عندما غادرت مصر، كان محدِّدًا أن أبقى خارجها ثلاثة أشهر فقط. لِمَ فعلت ذلك؟ لا أدري تحديدًا. فقد أحضرت أوراق المدرسة والجامعة

ودفعت بهم إلى أسفل حقيبة السفر.

قلت لفونت:

- لست أدري ما دفعني إلى إحضار أوراقي الرسمية معي؛ قد تنفع في ظروفنا هذه. لكنك لم تحضر أوراقك معك، أليس كذلك؟

نظر إليَّ لوهلة في صمت.

- نعم، يا رام، لقد أحضرتها معي. لست أدري أنا أيضًا ما الذي دفعني إلى ذلك.

- فونت، سوف نرحل في نهاية الثلاثة أشهر.

- لا تكن منافقًا.

كانت إدنا تنتظرنا بالأسفل. ذهبنا إلى مكتب الشؤون الداخلية، قسم الأجانب، في أولى المقابلات الكريهة والمهينة. إذا كان شخص ما على وشك الوقوع في هوى الإنجليز، فكل ما عليه الذهاب إلى قسم الأجانب لتتبدد أوهامه.

انتظرنا لمدة ساعتين حتى حان دورنا فقط لمقابلة موظف مهذب سألنا عم نريد، وأعطانا رقمًا لننتظر ساعة أخرى أو نحو ذلك. لم يكن لنا أن نتذمّر، فنحن قادمان من مصر. ما أثّر فينا حقًّا، كان التعبير الدامي على وجوه الخمسين شخصًا المنتظرين معنا، وكان معظمهم من الإيرانيين والعراقيين واليونانيين والإيطاليين. لم نشعر بأننا في مبنى حكومي، أو في قسم شرطة حتى؛ بل في مؤسسة، لغير سبب على الإطلاق، خلقها الله

ليُدخل إلى عقلك وقلبك إحساسًا بالدونيّة يمزقك إلى أشلاء.

تحدّثنا إلى يوناني وعراقي. هذه هي المرة الثالثة التي يحضر فيها اليوناني إلى قسم الأجانب خلال أسبوعين. كان مهاجرًا إلى أستراليا، لكن أوراقه لم تصل إلى القنصلية الأسترالية بعد، وفي كل مرة من المرات الثلاث، كانوا يمدِّدون الإقامة لعدة أيام ويخبرونه ألا يتوقع تكرار ذلك. قال لنا:

- إن لديَّ مالًا. فلماذا لا أبقى لمدة شهر؟

أما العراقي فكان ملتحقًا بكلية لندن للإلكترونيات. اعتاد والداه أن يرسلا له ثلاثين جنيهًا كل شهر، ثم أصبحا يرسلان خمسة عشر جنيهًا فقط، منذ ستة أشهر. اعتبر المكتب هذا المبلغ غير كاف لسد احتياجاته؛ لذلك رفض تمديد فترة إقامته، أو منحه تصريحًا للعمل نصف دوام.

لقد اجتزت ثلاثة أعوام من الدراسة. كما أحضرت خطابات من كل أساتذتي تؤكد أنني طالب ممتاز، لكن دون جدوى.

جعلني الاستماع إليهما أشعر بالإحباط.

نُودي على رقمنا، وقادنا أحدهم إلى رواق به عدة أبواب. انتظرنا خارج أحد الأبواب، حتى نادى شخص من الداخل بلهجة ممطوطة:

- ادخل.

دخلنا، وقلنا «صباح الخير» لشاب في حوالي الثلاثين يمدد جسده خلف المكتب.

- حسنًا.

- لدينا تأشيرة مرور عبر الأراضي البريطانية، و...

- يكفي هذا. إذا كان لديكما تأشيرة مرور، نحن نسمح لكما بالبقاء لمدة عشرة أيام. إذا تأخرتما في المغادرة لمدة يوم أو اثنين، فلا مشكلة.

- لكن...

- لن أستمع إلى المزيد من المناقشات. من فضلكما غادرا الحجرة.

جذبت فونت للخارج بسرعة قبل أن يقول أي شيء. في الخارج، أخبرت إدنا بما حدث، ثم ذهبنا مباشرة إلى حانة. أراد فونت أن يغادر البلاد في اليوم نفسه. قلت له:

- إن لديَّ اعترافًا، لقد نصحني صديق جون المحامي بعدم التوجه إلى مكتب الشؤون الداخلية. قال إن موظفي المكتب أكثر مَن على وجه الأرض وقاحة، لكني أخذتك إلى هناك بمبادرة مني.

تدخلت إدنا:

- لا يا فونت. لقد كنت أنا من نصح رام بالتوجه إلى هناك.

كان هذا صحيحًا. فقد أخبرت إدنا الليلة السابقة أننا لن نذهب، سوف نرسل جوازات السفر بالبريد، وبذلك نضمن البقاء في إنجلترا لثلاثة أسابيع أخرى ريثما يردُّون علينا سواء بالموافقة أو الرفض، لكنها رجتني أن أذهب قائلة:

- إن ذلك جزء من تجربة السفر إلى إنجلترتكم العزيزة، يجب عليك معرفة ذلك.

- أنا مسرور لأننا أتينا.

ذهبنا بعد الظهيرة إلى إحدى كليات لندن المهنية، سجلنا اسمينا، ودفعنا مصروفات الفصل الدراسي الأول. ثم كتبنا خطابًا مهذَّبًا للسلطات أرفقنا به جوازَيْ سفرنا وشهادة من الكلية تثبت انتسابنا إليها، وأرسلنا كل هذا. بعد أربعة أيام، استلمنا مذكرة تعلمنا أن بإمكاننا البقاء في المملكة المتحدة إلى أن يُتخذ قرار بشأننا.

بعد ظهر يوم السبت، تذكرنا أننا وعدنا بزيارة محصلة الأتوبيس وابنها ستيف. أرادت إدنا أن تأتي معنا، فقررنا، دون سبب واضح، أن نقدِّمها على أنها أختي.

كان اليوم مشمسًا، فسرنا حتى بارك لاين مرورًا بماربل أرتش ثم كيلبرن عبر طريق إيدجوير. أصبحت مؤخَّرًا أكثر ضجيجًا، وصرت أرى في نفسي شيئًا جديدًا كنت أبغضه في أناس آخرين: نوعًا من الثقة بالنفس، أقرب في الواقع إلى الوقاحة. أظنه من الطبيعي أن يشعر الرجل بالزهو حين يوقن أن امرأة ثرية وجميلة تحبه، لكن غروري كان غير طبيعي، فقد شعرت بصدق أنني إذا ما أظهرت لإدنا التواضع والامتنان فإنها لن تبادلني الحب. الناس يدَّعُون أن من يزرع حبًّا، يجني حبًّا، لكن ذلك غير صحيح. حصاد الحب اللامبالاة.

أخبرتنا إدنا أن الكثير من الأيرلنديين يعيشون في كيلبرن. عند ذكر الأيرلنديين، قفزت إلى ذهني عبارة «أسود وبني»، ما ذكرني بملمع الأحذية.

كان من الممكن أن نسير ثلاثتنا لساعات في هدوء وسكينة من دون أن ننطق بكلمة، ثم تنبثق محادثة بدون جهد، ثم تموت تلقائيًا وبشكل طبيعي لا يعكر صفو علاقتنا. ربما لأن علاقتنا كانت تخلو آنذاك من أي دراما. كنت أتساءل لماذا، على الرغم من حبي الشديد لإدنا، لم أكن أفضِّل أن أنفرد بها بدون فونت؟

لا أذكر أننا انزعجنا يومًا من وجود فونت معنا. كان طبيعيًّا وكاملًا أن نكون ثلاثتنا معًا. لاحقًا، حين بدأت أتعمق في قراءة الأدب شديد التعقيد، عرفت أنني أشعر بعقدة أو خيال، أو أي مسمى من هذا القبيل، أبوة تجاه فونت، وأن إدنا تشعر بالمثل تجاهنا معًا. وبالتالي، فهي تشعر بالذنب لأنها لم تحبنا نحن الاثنين بنفس الطريقة. إلى آخر مثل هذا الهراء الذي يعتنقه الأوروبيون أحيانًا. (بالطبع لم أعتقد في ذلك الوقت أن هذا هراء. بل كنت شديد الانبهار بما أقرأ).

وصلنا إلى منزل السيدة وارد، وقرعنا الجرس. كانت تسكن وولدها ستيف طابقًا أرضيًا. وكانت غرفة الجلوس مريحة ولطيفة حيث أُشْعِلَت نارًا صغيرة في المدفأة، وحيث يوجد راديو قديم إلى جانب العديد من البسط القديمة والمقاعد المريحة المهترئة مركزة حول دائرة الدفء، بالإضافة إلى العديد من الكتب الدسمة والصور، الموزعة بطريقة عشوائية لكن حميمية، على أرفف الكتب فوق المدفأة وعلى جانبيها.

- مسرورة جدًّا لأنكما تمكنتما من المجيء. ومسرورة لأنك أحضرت

أختك يا عزيزي. كنت أخبر ستيف أنكما لا بُدَّ نسيتما وعدكما بزيارتي. لكن، ها أنتم. وأنا مسرورة جدًّا أن أتيتم.

لقد رأينا العديد من أمثال ستيف، مئات ومئات من أمثاله ذوي الوجه المنمش والشعر الزنجبيلي والأنف البارز المستقيم، والعيون شديدة الزرقة. استغربت رؤيته في الملابس المدنية.

- مسرور برؤيتكم.

حيَّانا، وأخذ معاطفنا ليعلقها. قدم لإدنا أفضل الكراسي، وحاول أن يشعرنا جميعًا بالراحة.

قالت إدنا:

- منزلكما لطيف ومريح للغاية.

- شكرًا لك يا عزيزتي. أحب دائمًا أن أوفر جوًّا مريحا بالبيت، ولا شيء أكثر راحة من وجود نار بالمدفأة.

تساءلت لماذا لم نفكر في شراء الورود للسيدة وارد. ربما كان هناك سبب لا شعوري. أخذت أفكر فيم قد يكون وراء ذلك.

سأل فونت ستيف:

- كم مكثت في السويس؟

- كنت في عدن أولًا. بعض المشاكل هناك، سيطرنا عليها، ثم توجهنا إلى السويس لمدة شهرين، ثم إلى قبرص، اتخذنا بعض الإجراءات هناك، لا شيء مهم، ثم رجعت إلى السويس لأربعة أشهر أخرى.

- هل انتهت خدمتك في الجيش؟

- أحب حياة الجيش، فهي تصنع منك رجلًا. لكن خمس سنوات تكفي، فلديَّ ماما لأفكر فيها. ثم، آمل أن أستقر وأتزوج.

قالت السيدة وارد:

- كنت أود أن أقدم لكم الشاي يا أعزائي، فهو الأنسب في هذا الجو البارد، لكن ستيف قال لي إنهم يفضلون القهوة في هذه المناطق؛ لذا اشترى بعضًا منها.

شكرناها وأخبرناها أننا نفضل الشاي. طلبت من ستيف أن يرى إذا كان الماء يغلي.

- نعم، يا ماما.

قالت غامزة:

- سوف نخرج لتناول البيرة فيما بعد.

أثناء تناول الشاي، استمعنا إلى ستيف يحكي عن الحياة في السويس مستخدمًا عبارات مثل «المحليون سوف يسلخونكم، إذا لم تتوخُّوا الحذر»، و«المشي ليس آمنًا بعد حلول الظلام... تعرفون العرب القذرين». كان يخبرنا أشياء يراها مفيدة للمحافظة على سلامتنا. في الواقع، كان يخبرنا أن نتوخى الحذر أثناء تواجدنا هناك. فالعرب القذرون والملوَّنون بلاء علينا، كما هو الحال مع فرقته الغالية. لم يخطر بباله أبدًا، أننا من السكان المحليين الذين يتحدث عنهم. وبينما كان يتحدث، كان شديد الحرص على راحتنا:

يصب لنا المزيد من الشاي، يقدم لنا الكيك، أو يشعل سجائرنا.

حضرت صديقته شيرلي أثناء تناول الشاي. لم تكن رائعة الجمال، لكنها كانت جذابة وأنيقة. كانت ترتدي سترة صوفية ضيقة تبرز أنوثتها، جوارب أنيقة، وحذاء عالي الكعبين. قالت هي أيضًا: «تسرني مقابلتكم» واحتست الشاي معنا.

اشتركت إدنا وشيرلي في تنظيف الطاولة وغسل الصحون، في حين جلست السيدة وارد في مقعدها براحة وسعادة. لم يكن لنا، أنا وفونت، صلة بعد بتنظيف المائدة وغسل الصحون. شكرنا السيدة وارد على الشاي.

- لا شيء يستحق الشكر، يا أعزائي.

ذهبنا جميعًا إلى حانة. سار فونت والسيدة وارد في المقدمة، يتبعهما ستيف وإدنا، ثم أنا وشيرلي. في الحانة، وجدنا رجلين يلعبان الشطرنج. تحدث أحدهما إلى شيرلي، ثم سألني إذا كنت أحب أن ألعب. أجبته موافقًا. كنت متلهفًا لترك الآخرين، مهما بلغ «لطفهم» و«طيبتهم» و«كرمهم». كنت أشعر بالملل، وقد بدأت أنقسم إلى شطرين يخبر أحدهما الآخر الحقيقة.

كان لاعب الشطرنج شقيق شيرلي ويُدعى فنسنت. أومأ فنسنت فقط إلى الآخرين. ترك شريكه اللعب، فحللت محله. بدأنا اللعب من البداية. في منتصف اللعبة، بعد أن تناولنا ثلاثة أكواب من البيرة، كان علينا أن نتكلم. قد أكون مهووسًا بالشراب. نعم، بالتأكيد لديَّ هذا الهوس، فأنا

أرى أن الناس معاقون بدون الشراب. لم يكن لديَّ أدنى شك أنه بدون تأثير البيرة؛ ما كان لنا -أنا وفنسنت- أن نرغب في الحديث. لو لم نشرب البيرة؛ ربما كنا اكتفينا بلعب الشطرنج، ثم افترقنا ومعرفتنا ببعضنا البعض سطحية، وما كان كل ما حدث بعد ذلك ليحدث.

أشعلنا سيجارتين، وتجاهلنا الشطرنج لوهلة. أولًا الخطوات التمهيدية، كما يسخن العدَّاؤون في السباق، يجرِّبون هذا الحذاء أو ذاك، ويخلعون السترات الخارجية: متى حضرت إلى لندن، متى أنوي المغادرة، وماذا يعمل، هل يحب عمله؟ انتهينا من هذا، تقدمنا أكثر. لم يعجبه مَنْ رأى من المصريين، فما كانوا يبغون سوى قضاء وقت مرح. لا بُدَّ أنني «ثري جدًّا» كي أقطع كل هذه المسافة لقضاء عطلة. هل كان يسخر مني؟ لا يهم.

كان شطري الذي يراقب الأحداث يوافق على هذه المحادثة كمشهد افتتاحي. لكن بعيدًا عن ذلك، شعرت غريزيًّا بأن فنسنت كان أصدق من جون دنجايت. كنت أعرف أنني أستطيع أن أتفوه أمام عائلة دنجايت بالكثير من الحماقات المستهلكة، وأنهم سوف يدّعون الاهتمام الصادق، وسوف لن يسخروا، ثم اتضح لي فجأة أنني كنت أحكم على الإنجليز كإنجليز أولًا، ثم كبشر. كان فنسنت متحررًا من أية نزعة عنصرية. لم يكن يساريًّا، وكذلك لم يكن معاديًا لليسار. لم يكن واحدًا من خرِّيجي المدارس العامة، كذلك لم يكن واحدًا من خرِّيجي المدارس الغالية. لم

يكن إنجليزيًّا من أصل هندي، كذلك لم يكن واحدًا من الإنجليز الذين يعيشون في أسبانيا. كان فنسنت ميرفي، ولا شيء غير ذلك. (ثم أثبت الوقت أنه الوحيد من بين كل من قابلتهم في إنجلترا الذي أبقى على صداقتي حين كنت مفلسًا وأعاني المتاعب).

أشارت إليَّ إدنا أن أنضم للآخرين، فتجاهلتها. كان قد اتضح لي ماذا عليَّ أن أفعل، وقد صممت على فعله، حتى لو أظهرت وقاحة. ظننت أنه كلما تماديت فيما أفعل، ازداد انجذاب إدنا إليَّ.

أجبت فنسنت:

- لا، أنا لست ثريًّا. في الواقع، أنا معدم تمامًا. لكن لديَّ خالات وأخوال وأبناء خالات أثرياء. على كل حال، هذه الرحلة يتحمل تكلفتها ثري يهودي دون أن يعلم، على ما أعتقد.

- أنت ثري إذن: أقارب أثرياء، ملابس باهظة الثمن. أنت ثري إذن.

- أنا ثري إذن. ماذا في ذلك؟

- آه، لا شيء. دورك لتلعب.

- لا، أنا ثري، أكمل.

نظر إلى للحظة بما ظننته ابتسامة تعالٍ.

- أغلبية شعبكم هناك تتضوَّر جوعًا. هل سمعت قط بالفلاحين؟

- نعم هذا صحيح. إن شعبنا يتضوَّر جوعًا، أليس من العار أن يتمرغ أقاربي في الثراء؟

وافق ساخرًا:

- أليس كذلك؟

قلت ساخرًا أنا الآخر:

- نعم، إنه لعار. ماذا عنك؟ لا أقارب أثرياء لديك على ما أعتقد؟

- أنا؟ على الإطلاق.

- أليس لديك أي أقارب أثرياء؟ حسنًا، أؤكد لك أن لديك الكثير من الأقارب الأثرياء. بعض أقاربك من أثرى أثرياء العالم. إن كل قاطني المنازل الريفية الفخمة والشقق المترفة في ماي فير من أقاربك. إن كل من يجوبون الشوارع في سيارات الرولز رويس، وكل من يمتلكون عدة أرصدة في البنوك من أقاربك الأثرياء. أليس من العار أن لديك كل هؤلاء الأقارب الأثرياء بينما نصف سكان إفريقيا، التي تمتلكونها، يتضوَّرون جوعًا؟ أليس من العار أن سرق أقاربك كل ما تمتلك جامايكا وتركوا نصف سكانها يتضوَّرون جوعًا؟

بدأت أسخن وأخذت أمتِّع نفسي.

- أنت مثقف جدًّا وتعلم الكثير عن الفلاح المصري. ألا تعلم شيئًا عن السكان المحليين في كينيا أو روديسيا أو عدن، أو الأسوأ من ذلك ربما، في جنوب أفريقيا. أم أنك ستخبرني أن جنوب أفريقيا لا يمتلكها أقاربك الأثرياء؟ لأنها كذلك. لو أن أقاربك الأثرياء لا يعقدون الصفقات مع أصحاب الثراء الفاحش هناك؛ لما جرؤ هؤلاء على جلد النساء السود

العزلاوات. ألا تعلم أن أقاربك الأثرياء سوف يبعثون بك إلى جنوب أفريقيا خلال لحظات، إذا قطع السكان المحليون بعضًا من رقاب البيض هناك. لكن، الفلاح المصري مَن يقلقك، أليس كذلك؟ إن الفلاح المصري يعاني ما يعاني الآن بسبب حكم أقاربك الأثرياء، آل كيتشنر وشركائهم، له لمدة ستين عامًا. فمهما يحدث له الآن، لن يكون أسوأ مما عاناه على يد أقاربك الأثرياء.

عبس فنسنت في بادئ الأمر. لكن حين انتهيت من خطابي، كان يبتسم ابتسامة واسعة. كان ثمة تواصل قد حدث بيننا.

- سأشتري لك كأسًا من البراندي.

اتجه نحو البار، وعاد حاملًا كوبين من البيرة بالإضافة إلى البراندي.

- أسأت الحكم عليك، سامحني.

- مهما فعلت.

قلت ناظرًا إلى رقعة الشطرنج.

- بإمكاني أن أسحقك بوزيرى الأسود.

- ماذا؟

قال مدعيًا الاهتمام:

- هل تقول لي إن بيادقي لا تحمي ملكي؟

- إنهم مشغولون للغاية بمحاولة إيجاد الأعذار للطابيات. كما أنهم مفلسون أخلاقيًا في حالتهم الراهنة. لا جدوى منهم.

- ماذا عن العساكر؟

- أنا أهاجم الميسرة. عساكرك لا طائل من ورائهم، فالأيسر قد تحرك كثيراً جهة اليمين بحيث لا يستطيع العودة إلى المعركة. أما الأيمن فهو مسرور بالبقاء في مربعه ولا يعي حتى أنك مهدد.

- وماذا عن أحصنتي؟

- إنها...

رددت ببطء محاولًا إيجاد رد مناسب، فلاحظت أنها خارج الرقعة:

- خارج المعركة. هذه قضية أخلاقية، وليست قضية قوة.

- هنا أنت مخطئ. راقب هذا.

حرك طابية إلى الأمام، فتغير ميزان القوة إلى صالحه.

صحت:

- اللعنة. نعم، ستيف وارد.

انفجر فنسنت ضاحكًا.

- هل تحدثت إلى هذا الغبي؟

- دعتنا أمه بلطف لتناول الشاي.

- إن للسيدة وارد شخصية محببة.

- قابلناها في الأتوبيس في أحد الأيام، فدعتنا لتناول الشاي معها. ابنها ستيف لم يقابل «السكان المحليين» في السويس، على ما يبدو. بالمناسبة، هل مشى يومًا في شوارع السويس؟

- لم تسأل؟

أخبرته عن نصيحته لنا، فأخبرني أن ستيف لم يضع قدمًا خارج المعسكر. كان فنسنت قد علم ذلك عن طريق أخته شيرلي.

قال فنسنت:

- لقد كان يردد ما ألقي إليه من تحذيرات.

فسألته:

- ما الذي يجعل شابًّا مثل ستيف يرتدي الكاكي ويوجه مدفعه إلى العرب القذرين أو غير ذلك؟

- لقد أخبرتك أنه غبي. لكن، أظنك ستخبرني أن الجندي المصري ليس غبيًّا هو الآخر؟

- بحق المسيح. الجندي المصري لا يملك منزلًا جميلًا به مدفأة تحيط بها الكتب، أو صديقة ترتدي حذاء عالي الكعبين، أو مالًا ليشتري البيرة، أو «حضارة» يتخلى عنها لينضم إلى حياة الجيش البائسة.

- هذا بالضبط ما أخبروه أنه يحارب لأجله، فهو يعتقد أن بيته مهدد.

- بالله عليك يا فنسنت! أنت تعلم جيدًا أنه لا يعرف لماذا يحارب. هو فقط يشعر بالفخر كونه يرتدي زيًّا عسكريًّا، ويحارب باسم صاحبة الجلالة، ويُرِي «المتوحشين» عظمته.

- أعتقد أن ستيف وارد هو الوحيد الذي يعلم لماذا يحارب.

- لم لا نسأله؟

نظرت إليهم حول الطاولة المجاورة. كان على وجهَيْ إدنا وفونت تعبير مَن يقوم بواجب معين. كانوا ينظرون إلى السيدة وارد من آن لآخر ويبتسمون. ستيف يبدي الاهتمام بمن حوله دائمًا، ويوزع سجائره على الجميع. بينما تتبادل إدنا وشيرلي القليل من الكلمات من حين لآخر. كانت السيدة وارد مَنْ يبدو أنها تمتع نفسها كون ابنها وزوجته المستقبلية حولها يهتمون براحتها ويقدمون لها الجِنّ.

أردف فنسنت:

- ذهبنا أنا وستيف إلى المدرسة معًا. هو يعرف أنني أنعته بالغبي. كما أعرف أنا أنه يعتبرني جبانًا وخائنًا. لقد فعلت كل ما بوسعي للتهرب من الجيش، حتى أنني ادَّعيتُ الصمم.

- لماذا؟

- آسف لو خيبت أملك. كنت أدرس بالمراسلة للحصول على شهادة في هندسة التليفزيون، وبانتظاري وظيفة جيدة. لو أن الجيش كان سيدفع لي خمسة عشر جنيهًا أسبوعيًا، كنت سأرتدي أي زيٍّ يختارون، وأصوب مدفعي في أي اتجاه يحددون.

فكرت: لو ذهبنا الآن لنسأل ستيف لماذا يقاتل؛ لانفتح أمامنا، هنا في هذه الحانة، عالم جديد من الشخوص والأصوات والأمزجة والكلمات. شعرت برغبة في المشاركة والفرجة معًا. لكن منظر السيدة وارد وهي

تحتسي شرابها بسعادة جعلني أعدل عن إفساد أمسيتها. اتفق فنسنت معي، لكنه قال إنها عادة تغادر قبل الآخرين. قلت إنه علينا أن ننضم إليهم، فتردد فنسنت لوهلة. قال إن شيرلي استحلفته ألا يضايق ستيف، لكننا بعد وهلة تركنا الشطرنج وانضممنا إليهم.

اعتذرت لهم لانفصالي عنهم حالما وصلنا، موضحًا أنني دائمًا أضعف أمام رقعة الشطرنج. كنت أسخر. لم أكن أعرف ماذا يحدث لي. أحسست أنني أريد أن أفقد أعصابي وأفضح شيئًا ما. لكن ما هو؟ لم أعرف على وجه التحديد. ربما اعترفت لا شعوريًّا واجتاحني القرف من هذا الرياء: ما الذي جعلنا أنا وإدنا وفونت نذهب إلى منزل السيدة وارد، ونقبل ضيافتها، ونشعر بالملل، إذا لم يعكس سلوكنا ماهيتنا؟ والأسوأ من ذلك، ربما، كانت معرفتي أننا عندما نتركهم ونعود إلى فندقنا، سوف نقول "كم كانت ممتعة زيارتنا للسيدة وارد." الحقيقة أن السيدة وارد شخص لطيف. لكن الحقيقة أيضًا، أننا شعرنا بالملل. فلِمَ نتظاهر بالاستمتاع؟ أو حتى بالاهتمام؟ نحن لم نتظاهر بذلك أمام بعضنا البعض وحسب؛ لكننا كنا نحاول خداع أنفسنا كذلك. قد أقول ذلك الآن، لكنني آنذاك لم أفهم تمامًا ما الذي يزعجني ويدفعني لسلوك غير طبيعي.

غادرت السيدة وارد الحانة بعد قليل. شكرناها مجددًا على دعوتنا للشاي، وصمم فونت على توصيلها للمنزل. شعرت ببرودة إدنا نحوي، لكنني كنت قد بلغت حدًّا من الثقة والاعتداد بالنفس لم يجعلني أهتم.

استدرت لشيرلي، وبدون أي قصد مني، همست في أذنها أنني لم أقابل من تفوقها جاذبية منذ زمن بعيد، ثم تجاهلتها تمامًا بعد ذلك. هذه، كما ظننت، البداية الصحيحة: أن تثير اهتمام المرأة، ثم تتجاهلها، وتتركها تسعى إليك ولو لإرضاء فضولها. لست أدري كيف تبلورت لديَّ هذه النظريات حول كيفية التودد إلى المرأة، رغم قلة خبرتي في مجال العلاقات المعقّدة بين الرجل والمرأة. لا بُدَّ أن الرجل يمتلك الغريزة التي توجهه للإتيان بالفعل المناسب، والتي تكون متطورة لدى بعض الرجال أكثر من غيرهم.

عاد فونت، فأخذنا نتحدث معًا. واستغرقت إدنا وفنسنت في محادثة جانبية، بينما بدا أن لستيف مثانة ضيقة لأنه استمر في النزول إلى الطابق الأسفل.

قلت لفونت:

- هاللو فونتي ونتي. ها نحن ذا نشرب البيرة في أرض بيللي بنتر، وفنسنت هو ويليام براون في شبابه، وصاحب النزل هو ويني بوه، وعلى هذه المائدة بالذات كتب السير روجر دي كوفيرلي حماقاته الأنيقة. ألست سعيدًا؟

- ما الذي يجري لك يا رام؟ أنت تتغير بسرعة بحيث يصعب عليَّ التعرف فيك على صديقي.

- أنا فقط أقضي وقتًا ممتعًا، يا فونت. اسمح لي أن أتابع.

استدرت إلى شيرلي. التقطت قفازيها اللذين وقعا على الأرض، وقلت لها إن رائحة شعرها تذكِّرني بزهرة نادرة في مصر.

قالت شيرلي:

- أنت شرير جدًا.

- شرير؟

تظاهرتُ بالغضب.

- أنت امرأة جميلة جدًا. تعرفين ذلك. أنا أدرك أنك مخطوبة لشخص آخر، لكن يجب أن تتذكري أنني لست أوربيًا معقدًا، لذلك لا أستطيع إخفاء مشاعري. بما أنك جميلة، فمن الطبيعي أن أعجب بك. لا أملك أن أتظاهر أنك أية امرأة.

- أنا آسفة. لم أقصد أن أجرح مشاعرك.

استدرت إلى فونت متظاهرًا بالغضب:

- بحق المسيح، يا فونت. أنا حقًا أمتع نفسي.

أخذت الكؤوس الفارغة، وعدت بمجموعة أخرى مليئة بالبيرة، واشتريت لشيرلي كأسًا من الشيرى.

- كيف عرفت أنني أحب الشيرى؟

لم أجب واستدرت إلى فونت.

- ماذا هنالك يا فونت؟ أنت من يتصرف بغرابة. لم لا تمتِّع نفسك؟ لم لا تمتلئ بالنشوة حتى الحافة؟ لم لا تقع في الحب؟ لم لا تفيض نفسك سعادة؟

- لا تتمادَ كثيرًا، يا رام.

- بحق المسيح، يا فونت. هل تذكر ذلك اليوم قبل العطلة الصيفية؟ لقد كنت تخبرني كم هو كريه الذهاب إلى الإسكندرية كما نفعل كل عام، وممارسة كل ما كنا نقوم به لسنوات. والآن، ها نحن في لندن، لكنك صامت وتعيس.

- أنا لست تعسًا. أنا أمتِّع نفسي على طريقتي الخاصة، على الرغم من أنني لم أعرف حتى الآن أن لكل منا طريقة مختلفة عن الآخر.

جرعت البيرة من كأسي. هل كنت حقًّا أتمتع بوقتي؟ الأسئلة التي بدأت أطرحها على نفسي كانت لتقتلني، فكرت. لِمَ لا أفعل ما أفعل دون هذه الأحكام؟ لِمَ لا أعود كما كنت قبل خمسة أسابيع في مصر؟

سألتني شيرلي:

- هل أنت غاضب؟

نظرت إليها، ثم أمسكت بيدها تحت الطاولة. كنت بالطبع أمتِّع نفسي. كان ستيف قد نزل إلى الطابق الأسفل للمرة العشرين تقريبًا. لم يبدُ عليه السرور، برغم أنه لم يدرِ بالطبع ما كان يجري بيني وبين شيرلي.

سألني فنسنت:

- حسنًا. هل نسأله؟

- إذا أردت.

تساءلت شيرلي:

- ماذا يجري؟

عصرت يدها وأخبرتها أننا ننوي سؤال ستيف كم قتل من «العرب القذرين».

صاحت:

- فنسنت، دع ستيف وشأنه.

فضحك.

استدارت شيرلي إلى إدنا:

- إدنا. أرجوك أقنعي فنسنت ألا يضايق ستيف.

- بالطبع هو لن يضايقه. وعلى كل حال، بالتأكيد يستطيع ستيف العناية بنفسه.

- لكنه لا يستطيع. فهو يستشيط غضبًا، ثم يظل لأيام يكرر على مسامعي أن أخي لا يصلح أن يكون إنجليزيًّا.

أغرقنا جميعًا في الضحك.

عاد ستيف وجلس قريبًا من شيرلي، التي سارعت إلى سحب يدها من يدي. راقبته يضع ذراعًا متململة حولها، فلم تعترض على الإطلاق. كنت موقنًا أنها لا تحبه.

- كيف كان طعم البيرة في السويس؟

سألت ستيف. برغم كل شيء فقد استضافنا في بيته، وسيكون من غير الإنصاف الاتفاق ضده. إلا أنه كان مسؤولًا عما حدث.

- كنا نشرب البيرة التي يتناولها العرب القذرون.

- ما رأيك بالعرب القذرين، يا ستيفي؟

سأل فنسنت.

- اخرس يا فنس.

قالت شيرلي، ثم استدارت إلى ستيف.

- ألا ترى أنك تسيء إلى ضيوفك؟

- أسيء إليهم؟

تساءل ستيف حائرًا فعلًا.

أوضحت شيرلي:

- لا أعتقد أن إدنا وفونت ورام يحبون نعتهم بالعرب القذرين.

- بربك! أنا لم أنعتهم بمثل هذا.

قالت إدنا بسرعة:

- طبعًا لا. شيرلي فقط تجر رجلك. دعونا ننتهي من شرابنا، وسأدفع أنا ثمن الشراب التالي.

قال فنسنت:

- لا أحد يجر رجلك. لكنك مُصرّ على وضع قدمك في الفخ.

صاح ستيف:

- عم تتكلمون؟ ما دخل هؤلاء الناس هنا بالعرب القذرين؟

صاح فنسنت:

- ها قد وضعت قدمك الأخرى.

قالت شيرلي:

- ستيف. أنا أعرف أن عقلك غليظ، لكني لم أتصوره بهذه الغلظة. أنت تشير إلى المصريين بصورة عامة بقولك العرب القذرين. حسنًا، إن إدنا وفونت ورام مصريون.

- بربك! أنا لم أقصد أن أسيء إليهم على الإطلاق. أنا...

حاول ثلاثتنا التخفيف عنه.

أردف ستيف:

- ما أقوله إننا كلنا بشر.

أجبناه:

- هذا صحيح.

تابع ستيف:

- ليس هناك فرق بين إنسان وآخر.

- باستثناء أنا وأنت.

سخر فنسنت، لكننا تجاهلناه.

قال ستيف:

- أتدرون؟ سأخبركم من سبب المتاعب.

رد فنسنت:

- أخبرنا.

- إنهم اليهود الملاعين.

ترددت ضحكة فنسنت في أرجاء الحانة، لكنه نجح وسط قهقهاته أن يقول لستيف:

- لقد أدخلت رأسك ذاتها الآن.

همس لي فونت أنه ينبغي علينا توضيح أن إدنا ليست شقيقتي طالما أن فنسنت يعلم بالفعل.

قلت لشيرلي إن إدنا يهودية، فقالت بدورها لستيف.

- كيف يسبِّب اليهود المتاعب هناك؟

سألت إدنا ستيف.

- اسمعي، أنا لم أكن أعلم إنك يهودية. لا تنسي أننا خضنا الحرب الأخيرة لأجلكم.

كان دوري كي أضحك.

- لا.لا. لقد تعرض اليهود للاضطهاد فترة طويلة قبل أن تعلنوا الحرب.

قال فونت بلهجته القوية، وأخذ يتحدث عن ميونخ وما مضى من أحداث.

صحت به:

- أوه، اخرس يا فونت.

سألت إدنا بهدوء:

- لماذا يخرس؟

سألتها بدوري:

- هل تعتقدين أن في الإمكان إقناع ستيف بما هو صائب وما غير ذلك؟ ألم تقرئي تاريخ الحرب العالمية الأولى؟ كيف أن لينين نشر الأسباب الخفية وراءها، ومع ذلك أقدم الملايين من أمثال ستيف على ذبح بعضهم البعض جريًا وراء النياشين ووراء شرف وهمي؟ لم يتوقفوا ليسألوا إذا ما كانوا يفعلون ذلك لأجل الشرف أم لأجل الوقود، ألم تقرئي لساسون وروبرت جرايفز؟

اقترحت شيرلي:

- دعونا نتحدث عن شيء آخر.

- اصمتي يا شيرلي.

قال لها فنسنت، ثم توجّه إلى إدنا مخاطبًا:

- لقد ألقمت المعرفة لهذه الفتاة كما تلقم الأم طفلها الطعام. جعلتها تقرأ من الكتب ما ينير عقلها وروحها، لكنها تريد الزواج من هذا الغبي «لأنه حسن السلوك ويعمل بجهد».

قلد فنسنت طريقتها ساخرًا:

- تجعلني أشعر بالغثيان.

- أنا أفضل منك ألف مرة.

صاح ستيف ووقف مهددًا. وقفت أحاول تهدئته. قلت له أن يجلس ويكمل شرابه، ولا داعيَ للشجار.

فصرخ بي:

- فلتذهب إلى الجحيم أيها العربي القذر.

جلست أنا، فهبَّتْ شيرلي واقفة صارخة به:

- إذا لم تعتذر حالًا، فلن تراني بعد ذلك أبدًا.

صرخ هو الآخر:

- حسنًا. فلتنحازي إلى صف أخيك الجبان هذا وهؤلاء العرب القذرين واليهود.

ذهبتُ إلى الحمام، وتباطأتُ قليلًا بعد أن قضيت حاجتي أنظر إلى المرآة وأفكر في لا شيء.

كان ستيف قد غادر الحانة حين عدت، فأخذت شيرلي يدي في يدها حالما جلست.

- دعونا نذهب وراء ستيف.

كنت أنا من اقترح.

- لا.

ردت شيرلي مداعبة يدي.

كانت يدانا متعانقتين تحت الطاولة، وكنت آمل ألا يلاحظ أحد ما يجري. فكرت فيم سيكون رد فعل إدنا لو عرفت بما يجري. وفكرت أيضًا فيم سيكون رد فعلى أنا لو رأيت إدنا وفنسنت متشابكي الأيدي. لا شيء، فكرت. كنت ضائعًا في التفكير في كل هذه الاحتمالات، عندما لاحظت أننا

جميعًا ثملون. كنا نجلس زائغي الأعين صامتين، فاقترحت:

- دعونا نذهب للرقص. دعونا نتناول المزيد من الشراب ونتشاجر ونصل إلى ذروة الأحداث على طريقة أبطال همنجواي في أسبانيا. هيا يا إدنا. دعونا نعيش.

- حسنًا.

قالت وشدَّتنا جميعًا لنقف. أفقنا من حالة الذهول التي كنا نعانيها. ذهب فنسنت ليحضر سيارته الأوستن القديمة.

قلت لفونت:

- لم لا تتصل ببريندا دنجايت لعلها تأتي معنا؟

أشرق وجهه للفكرة، وأخذنا نبحث عن رقم هاتفها معًا. سمعت فونت يتحدث إلى الدكتور دنجايت أولًا ويسأله إذا ما كان باستطاعته أن يأخذ بريندا للرقص. ثم تحدث إلى بريندا واتفقا على أن نذهب لنأخذها بعد عشرين دقيقة.

قلت لفونت:

- فونت، دعنا نذهب سريعًا إلى البار ونتناول كأسًا معًا.

نظرتُ إلى فونت ونحن نتناول البيرة، وأدركت للمرة الأولى كم أحبه. فكرت في أننا معًا منذ الطفولة، وأننا أقرب لبعضنا البعض من أي أحد آخر في هذا العالم. ما الذي يجعلني أفكر في ذلك الآن؟ ربما لأنني أشعر أنني أنجرف بعيدًا عنه، لست أدري لماذا.

- ماذا بي، يا فونت؟

- لقد أصبحت منافقًا، يا رام.

- عندما تركتكم لألعب الشطرنج مع فنسنت، كنت أشعر أنك وإدنا منافقان لأنكما تدَّعيان أنكما تقضيان وقتًا ممتعًا بينما الحقيقة غير ذلك. وأنني لست منافقًا لأنني شعرت برغبة في لعب الشطرنج وفعلت ما أردت. ثم شربت قليلًا وألقيت على مسامع فنسنت خطبة عن فظائع الإنجليز، لكن غضبي كان ادِّعاءً لأنني كنت أتمتع بالقيام بذلك. ثم بدأت أتودد إلى شيرلي لغير سبب على الإطلاق، ربما لرغبة أنانية. بحق المسيح، أنا حتى أستخدم كلمة «أنانية». ثم استمتعت بالسخرية من ستيف، على الرغم من إحساسي بالأسف عليه، وعلى الرغم من كوني لا أحمل له أية ضغينة.

- لقد أصبحت أنانيًا، يا رام.

- حين كنا في مصر، لم نتحدث قط عن النفاق والأنانية. هاتان الكلمتان أصبحتا تلعبان في حياتنا دورًا لم تلعباه قبل الآن.

ثم انشطرت مرة أخرى إلى نصفين: نصف يشاهدني أتحدث إلى فونت ويسمعني أقول «قبل الآن». لست أدري لِمَ أحدثت «قبل الآن» هذا الانشطار فيّ. نسيت خوفي من الانجراف بعيدًا عن فونت، أنا حتى لم أنصت إلى ما كان يقول.

عرجنا على بريندا، أخذناها ثم توجهنا إلى الرقص في قاعة هامبستيد

تاون، على ما أعتقد. كانت هناك مقاعد متناثرة في كل أركان القاعة، وبطريقة ما انفصلنا عن بعضنا: فنسنت مع إدنا، فونت مع بريندا، وشيرلي معي. في البداية استمتعت كثيرًا بالرقص. لكن بعد وهلة، انحصر الأمر في مجرد احتضان جسد مختلف وتقبيل أذنها وسماع لهاثها. شربنا المزيد من الخمر وتصرفنا كالأحبة. وبعد، لن يكون هناك ذروة هيمنجوية على ما يبدو. شعرت بالنعاس. وجدت إدنا وأخبرتها أنني سأوصل شيرلي إلى منزلها ثم أذهب إلى الفراش.

تناولنا القهوة أولًا في بار اسبريسو. جلست شيرلي تحت إضاءة حمراء جعلتها تبدو صغيرة للغاية وموفورة الصحة. تحدثنا معًا بمودة وحميمية. كان الجو المشحون بالمشاعر في المرقص قد غادرنا تاركًا فينا ألفة وراحة في صحبة بعضنا البعض. سألتني عن إدنا، فقلت لها إنها صديقة مخلصة لي ولفونت. أخبرتني عن حياتها في البيت، وعن ستيف وفنسنت. كان والدها سكِّيرًا؛ ما اضطر أمها إلى أخذ طفليها وتركه، فقط لتقع في حب شاب أيرلندي يدعي بادي. كان عاطلًا مزمنًا، فعانوا من بعض الأوقات العصيبة. شجع بادي، الذي كان مفكّرًا على طريقته الخاصة، فنسنت على التقدم في الدراسة، آملًا أن يوصله ذكاؤه إلى الجامعة. ثم اندلعت الحرب وضاعت آمال فنسنت في إتمام تعليمه لأن بادي الذي رفض الانضمام إلى الجيش البريطاني زج به في السجن عدة مرات، لكن فنسنت تغلب على تلك الصعاب، درس هندسة التليفزيون، وحصل على وظيفة جيدة

بالرغم من كل شيء. حاول فنسنت جاهدًا أن يساعد أخته على رفع مستواها التعليمي، لكنها كانت قانعة بالبقاء كطابعة. كانوا يعرفون ستيف منذ الطفولة. كان ستيف صادقًا ومستقيمًا، ولأن بيتها كان يعج أحيانًا بالمشاجرات بين فنسنت وبادي؛ ما يجعله لا يطاق؛ فقد تركت نفسها تنجرف إلى الارتباط بستيف.

شعرت بالرضا وأنا جالس هناك أستمع إلى شيرلي. لست أدري على وجه الدقة ما الذي أعجبني في فنسنت وشيرلي. كنت أنسى معهما أنني غريب عنهما وأنني مصري وهما إنجليزيان. على عكس ما كان يحدث مع آل دنجايت، فمهما حاولوا؛ لم أشعر قط أننا ننتمي إلى العالم نفسه.

استعدت نفسي القديمة وأنا أجلس مع شيرلي تلك الليلة. لم أكن سوى رام الذي ولد في القاهرة، والذي يحب القراءة والشراب. كنت أشعر بالراحة مع شيرلي وفنسنت، الراحة التي لا أحس بها إلا مع فونت. سألتني شيرلي إذا ما كنت أحب إدنا، فأجبتها بالإيجاب.

مشينا، يدًا بيد، إلى حيث تسكن في سانت جون وود. تكلمنا بيسر، أخبرتها أنني آسف لما حدث مع ستيف، واعترفت لها بمسؤوليتي عمّا حدث. في جانب من الطريق وجدنا بعض أعمدة المصابيح ممددة جانبًا في انتظار من ينصبها، أخذت شيرلي تتقافز فوقها محاولة حفظ توازنها ومستندة عليّ من حين لآخر كي لا تقع. قالت:

- أنا أحب أخي كثيرًا. وأعرف أن ما يقوله عن ستيف حقيقي. هو

سيكون زوجًا طيبًا، لكن سيضجرني العيش معه. يقول لي فنس إنه سيظل يذكِّرني أنني أشعر بالملل.

قفزت من فوق العمود وقالت:

- أعلم أنك كنت تغازلني مغازلة عابرة في الحانة، لكنني شعرت بالإثارة على أية حال. وهو إحساس لم أختبره قط مع ستيف.

انعطفنا إلى الشارع الذي تسكن فيه شيرلي. أمام بيتها تحرك ظل، وقبل أن أتبين ما هو، تلقيت لكمة على أنفي، وأعمتني الدموع التي عادة ما تسقط إذا أصيب الأنف.

صرخ بي ستيف:

- سأقتلك أيها العربي القذر.

أخذ أنفي ينزف فملت للوراء كي أوقف النزيف. حتى في تلك اللحظة، لم أشعر بأي غضب نحوه، كنت أدرك أنه ثمل.

حذرته شيرلي:

- ستيف، إذا لم تذهب فورًا، سأنادي بادي.

صرخ بها ستيف:

- سأقتل هذا الأيرلندي أيضًا.

قلت لنفسي: لو أنني أشعر بالغضب، لكنت طرحت هذا الستيف. لكنني لا أستطيع أن أضرب أحدًا إلا إذا كنت غاضبًا منه فعلًا.

- أتدري لِمَ أنت بغيض؟ لأنك تستطيع أن تتشاجر وتقتل دون أن

تكون غاضبًا بحق. أنا لا أستطيع أن أرد لك اللكمات فقط لأنني لا أشعر بغضب تجاهك.

انفتح باب وخرج منه شخص قوي البنية حافي القدمين يرتدي سروالًا وفانلة داخليين.

جرت شيرلي نحوه:

- بادي، قل لستيف أن يعود لمنزله، فهو ثمل.

صرخ ستيف:

- أيها الأيرلندي اللعين.

سحبتني شيرلي إلى الداخل. وجدت نفسي أقف معها في المطبخ حيث يشتعل موقد مفتوح الباب، وحشيّة مبسوطة على الأرض كان بادي يفترشها على الأرجح. سمعنا جلبة، ثم دخل بادي. قال بادي بلهجة أيرلندية كنت أسمعها لأول مرة:

- يجب ألا تخرج الآن، فستيف في حالة مزرية.

كان بادي شخصًا وسيمًا ابيضَّ شعر رأسه.

أوضحت شيرلي:

- رام مصري.

- أنفك ينزف. أقول لك الآن، لا تدع إنجليزيًّا يلمسك، فقد أخذوا ما يكفي من بلادكم. لقد رأيت الكثير وأنا طفل. أذكر مرة في كورك...

قاطعته شيرلي:

- أخبره بذلك في وقت آخر.

ثم قالت لي:

- تعالَ إلى حجرة الجلوس.

قلت له طابت ليلتك، ثم تبعت شيرلي إلى حجرة الجلوس. كان أنفي قد توقف عن النزيف، وجعل فقدان الدم رأسي تصفو، فشعرت بالخفة والانشراح.

قالت شيرلي:

- هذا هو بادي. ما رأيك فيه؟

قلت مقلدًا لهجته:

- يعجبني.

- نحن نتشاجر بلا هوادة. وعلى الرغم من أنه خنزير عديم الفائدة، نحبه كثيرًا أنا وفنسنت. سأذهب لأحضر بعض الأغطية.

قالت همسًا. كنا نهمس بالرغم من عدم وجود داعٍ لذلك. غريب؛ كيف يهمس الناس غريزيًّا لمجرد وجودهم في الظلام. فلم نشعل نور الغرفة حين ولجناها.

قلت:

- سأعود إلى الفندق.

- الحافلات توقفت. لكن إذا أردت، باستطاعتك أن تنتظر فنسنت ليقلك إلى المنزل.

حالما قالت ذلك سمعنا صوت توقف سيارة فنسنت، ثم صوت حديثه مع بادي. قرع الباب، ثم دلف إلى الداخل.

- أهلًا يا رام.

قال ضاحكًا بخفة.

- سمعت أنك ذقت اللكمة الإنجليزية. كيف حالك؟

- بخير.

رددت ضاحكًا بدوري.

- أرجو ألا تكره ستيف بسبب ذلك، إنه حقًّا فتى مهذب.

- بحق المسيح، أنا لا أكرهه مطلقًا. أنا حقًّا خجل مما حدث.

- دعونا لا نتحدث عن ستيف الآن. فنسنت، هل لك أن تقل رام إلى الفندق؟

- نعم، لكن، لم لا يبيت رام هنا؟ سأحضر البيرة ونتحدث لبعض الوقت.

- حسنًا.

أضاء المصباح، ثم أطفأه مرة أخرى. كان مصباحًا قويًّا، وكان الضوء القادم من الشارع ينير الحجرة بضوء خافت يريح الأعصاب. أحضر فنسنت البيرة والكؤوس.

اقترحت:

- فلنسأل بادي أن ينضمَّ لنا.

ردَّت شيرلي:

- آه، يا عزيزي. حسنًا.

جلست على الأريكة، في مقابل بادي الذي استقر على مقعد ذي مسندين، بينما افترش فنسنت وشيرلي الأرض. أسندت شيرلي ظهرها إلى ساقي. جلسنا حتى الرابعة فجرًا نتحدث وندخن ونشرب البيرة. أخبرتهم عن الفلاح المصري، وكيف أنه مازال يعيش كما اعتاد أن يعيش منذ آلاف السنين: الطريقة التي يبني بها منزله كما هي، حتى الطريقة التي يسقي بها الزرع من ماء النيل لم تتغير. ثم شعرنا بالنعاس، فذهب كل من فنسنت وبادي إلى فراشه، بينما ذهبت شيرلي لتحضر الأغطية. قبلتها بشغف، ثم خلعت ملابسي واستلقيت حالما غادرت.

لقد قضيت وقتًا ممتعًا بالفعل. لكن، هناك شيء ناقص. العقدة الروائية. هناك نهاية تامة واحدة لكل شيء، هي الموت. لكن هناك نهايات جيدة كذلك. بالرغم من كل ما حدث في ذلك اليوم، وبالرغم من أن اليوم انتهي نهاية طيبة بذلك الحديث الممتع في الظلام فإنني لم أستطع التخلص من إحساس بخيبة الأمل داهمني وأنا أرقد هناك. ثم سمعت الباب يُفتح، وشعرت بجسد شيرلي الدافيء بالقرب من جسدي. كانت هذه النهاية الجيدة. بالرغم من أننا لم نكن نحب بعضنا، وبالرغم من أننا لا نشتهي بعضنا، إلا أن مجرد النوم جنبًا إلى جنب وتبادل القبلات والمداعبات وضع اللمسة الأخيرة الجميلة لليوم. وأدركت كيف يصل بعض الرجال

إلى الاكتفاء حتى مع الرجال أمثالهم.

أخطأت حين ظننت أن مداعبة جسد شيرلي كانت عقدة الرواية أو ذروة الأحداث، فقد كانت للأحداث ذروة أخرى تحققت حال رجوعي إلى الفندق. تسللت من منزل شيرلي مبكرًا دون أن أوقظ أحدًا. ذهبت إلى حجرة إدنا حالما وصلت إلى الفندق.

- لقد خنتك.

- أعلم.

- ألا تشعرين بالغيرة؟

- أتريدني أن أشعر بالغيرة؟

- أريدك أن تشعري بها بضراوة، وأن تهددي بالانتحار وتبكي وتصرخي، وأن... أليس هناك كلمات أخرى تعني البكاء والصراخ؟ ... وتهيلي التراب على نفسك. إدنا، ماذا كانت قصة الناس الذين أهالوا التراب على أنفسهم في الكتاب المقدس؟

- لست أدري.

- إدنا، ما هذا؟ ما الذي يحدث لي؟ أنا مصري، وقد عشت في مصر طيلة حياتي، ثم فجأة آتي إلى هنا، وبعد ثلاثة أسابيع فقط من الإقامة هنا، أنجرف إلى هذه الحياة الغريبة حيث أقابل فتاة وأذهب معها إلى الفراش في نفس البيت الذي تقطنه أمها وأخوها وبادي، وأرى أنه من الطبيعي أنهم يجدون الأمر عاديًا أن تنام هي معي طالما أنها تريد ذلك. هذه

الأشياء لا تحدث في مصر. إذن، كيف آتي هنا وأعيش هذه الحياة المختلفة تمامًا، ومع ذلك أحس أنني كنت أعيش هكذا طيلة حياتي؟ ماذا سيحل بي حين أعود إلى مصر؟ هل سبق لك أن قابلتِ أصدقائي يحيى وفوزي وجميل؟ أنا لن أعتذر عن قضائي الليلة مع شيرلي. أنت لا تحبينني، وأنا لا أشعر بالذنب لما فعلت. أنا مرهق لأنني لم أنم جيدًا، ربما لذلك أقول الحقيقة. اسمعي يا إدنا، أنا لا أريد منك أن تنسبي لي صفات ليست لي. أنا فقط أحب أن أقامر وأن أشرب الخمر وأن أمارس الحب. ومهما يكن ما أفعل، يجب أن تعلمي الحقيقة.

- لقد قلت لك قبل الآن إنك لم تعرف المصريين قط. المصريون ليسوا قاطني القاهرة والإسكندرية. أنا أكره هؤلاء كما أكره والديَّ.

- ماذا أكون إذن لو لم أكن مصريًّا؟

- أنت من تكون: شخص وُلِدَ في مصر، تعلم في مدارس إنجليزية، قرأ الكثير من الكتب، ويمتلك مخيلة خصبة. لكن هراء أن تقول إنك هذا الشخص أو ذاك، أو إنك مصري.

- وماذا عنك يا إدنا؟

- لا يمكن التعميم بشأني أنا الأخرى. باستثناء أنني ولدت يهودية، لكن الفرق بيني وبينك إنني أعرف المصريين وأحبهم.

- إدنا، تقولين إني مثقف وإني أمتلك مخيلة خصبة. لكنني أيضًا أمتلك من الذكاء ما يجعلني أدرك أنك لا تحبينني.

- للمرة الثانية تقول إنني لا أحبك.

- أتساءل لم صادقتني أنا وفونت. ولم كنتِ معنا بهذا الكرم؟ صدقًا، لا أستغرب محبتك لفونت، فهو شخص لطيف. لكن بالنسبة لي، منذ وضعت قدمي في لندن، تغيرت شخصيتي تمامًا. أو ربما، ظهرت شخصيتي الحقيقية فجأة. أنا لست لطيفًا ولا رقيقًا. بل أعترف إنني على العكس من ذلك، شخصيتي غير محببة، لأنني متحذلق ومتكبر. لذلك، أندهش كونك لا تقولين لي ذلك في وجهي. ربما تشعرين بالمسؤولية لأنك مَن أحضرنا إلى هنا، لكنني أعفيك من أية مسؤولية. تكلمي يا إدنا، أرجوك. دعينا من التعقيدات والحديث مزدوج المعنى، ولنخبر بعضنا الحقيقة. فلتحدثيني عن نفسك.

أقفلت عينيها ورقدت بلا حراك لوهلة. خلعت حذائي وتكورت في مقعد بمسندين.

بدأت تحكي:

- يعود وجود عائلتي في مصر إلى خمسة أجيال، أنا أول شخص في العائلة يتحدث العربية. عندما كنت صغيرة، كانت لديَّ مربية يونانية اسمها روزا متزوجة من شرطي مصري. اعتاد والداي السفر في رحلات طويلة، وتركي في عناية روزا، التي كانت تأخذني للعيش مع زوجها وعائلته في قرية صغيرة. في البداية، كنت أتقزز من قذارة المكان حيث يشاركنا السكن الدجاج والبقر. وكان يزعجني افتقار المكان للرفاهية، لكن مع

تكرار ذهابي إلى القرية؛ أحببت كل شخص هناك. لم يكونوا ليقبلوا هدية دون مقابلتها بأخرى تزيد عليها عشرة أضعاف، مهما كانوا فقراء. أحببت طريقة عيشهم؛ أحببت استيقاظهم مع شروق الشمس وكدِّهم المضني حتى غروبها، الذي يأذن لهم بالعودة إلى بيوتهم الطينية أو الخلود إلى النوم في الحقول. أحببت الكرامة التي يمتلكها الفلاحون، والتي يجهلها من لم يعاشرهم. أحببت طريقتهم التلقائية في مساعدة بعضهم البعض، وتحملهم لمسؤولية اليتامى الكثيرين هناك. في منزلي، اعتاد والداي وأصدقاؤهم الإشارة إلى أي شخص يتصف بالفجاجة وسوء الخلق على أنه «فلاح». كنت أنمو وحيدة، لا أجد بين معارفي، يهودًا كانوا أو أوربيين أو مصريين، من أعتبرهم أصدقاء.

كان لزوج روزا شقيق يماثلني في العمر. كان اسمه عادل، وله عينان بنيتان واسعتان تحيطهما أهداب كثيفة. لم يكن يحدثني، أو يقبل مني الهدايا. ذات مرة، اشترى له أخوه قميصًا وبنطالًا، لكنه لم يلبسهما أبدًا في وجودي. كما أنه كان يصر على البقاء حافيًا حين أكون هناك. اعتدت أن أراقبه من خلف النافذة كل صباح يغتسل تحت طلمبة القرية. حين بلغت الرابعة عشر، كنت أحبه بكل كياني.

في الثامنة عشرة، كنا نعيش في الإسكندرية. وكان زوج روزا قد انتقل للعمل في الإسكندرية هو الآخر. وأفلح في إلحاق عادل بالعمل في الشرطة. أخبرتني روزا أنه لم يقبل رشوة أبدًا، مثلما كان يفعل الآخرون الذين

اضطرتهم سوء حالهم لذلك. في هذا الصيف، منحت نفسي لعادل. كنت أتمنى أن أتزوجه، وأن أهبه كل ما حُرم منه في حياته. لكنه رفض. كانت روزا تمنحني الأمل، فقد كانت تخبرني أنه يهمس باسمي أثناء نومه.

كانت إدنا تتكلم ببطء، تنطق كل جملة على حدة، وتتوقف كثيراً في المنتصف.

- فجأة، أخذني والداي إلى أوروبا. كان من المفترض أن أعود بعد شهرين، لكنهما ألحقاني بإحدى الجامعات، وعادا من دوني. كتبت مئات الخطابات بالعربية إلى عادل، لكنه لم يجب قط. أدركت أن السبيل الوحيد أمامي هو محاولة نسيانه.

سكتت.

- عدت بعد انقضاء عامين. بعد أشهر قليلة على انتهاء الحرب بين مصر وإسرائيل في ٤٨.

سكتت ثانية، لتأخذ نفسًا عميقًا.

- تمكن أبواي، بمساعدة بعض من أصدقائهما المصريين، من رشوة الأشخاص المناسبين لتقديم عادل للمحاكمة بتهمة «إغوائي». رفض عادل أن يدافع عن نفسه، فسُجن لمدة أربعة أشهر. كل ذلك حدث بينما كنت أنا في أوروبا. لم أشك أن أبي اكتشف أمر عادل. حين عدت إلى مصر، وجدت أن روزا قد صُرفت من خدمتنا. وحين وجدتها بعد جهد، أخبرتني بكل ذلك. كما أخبرتني أن عادل مات في الحرب مع إسرائيل.

أردت أن أقول لها: «كفى. كفى. لا أرغب في سماع هذه الأشياء. قد أهتم أكاديميًّا بدراسة السياسة والظلم، إذا أردتِ، لكن أبعدي عني هذه الأشياء الحقيقية. أنا لا أمانع في القراءة عنهما، لكن أبعدي عني حكاياتك».

سألتها:

- ماذا فعلتِ يا إدنا؟

- انضممت إلى الحزب الشيوعي. عملت كالعبيد لأجل الحزب. أردت أن أفني حياتي الشخصية، وأن أحيا فقط كعضو في الحزب. تعرفت من خلال الحزب، الذي طالما كان نشاطه سرِّيًّا في مصر، على صفوة المجتمع: مصريين، يهود، ويونانيين. بالطبع كُشِفَ أمرُنا. تدخل أبي بأمواله مرة أخرى، وهرعت إلى انجلترا. ثم قامت الثورة، فهرعت عائدة إلى مصر لأعمل وأحارب من أجلها، لكن، من يرغب في مشاركتي؟ أنا يهودية.

بقيت صامتًا بدون حراك لمدة طويلة.

- هل نمت، يا إدنا؟

- لا، يا رام.

شعرت بالبؤس. تذكرت وقاحتي وادعائي «فلتبكي» و«تصرخي»، أردت أن أنزف تحت قدميها حتى الموت ندمًا وأسفًا. علمت في تلك اللحظة أنه حين يكون الموقف حقيقيًّا وصادقًا، لا يكون هناك مجال للانقسام ومشاهدة المرء لبعض نفسه يمثل ما هو غير حقيقي.

- لقد رأيتكما أنت وفونت لأول مرة منذ أحد عشر عامًا. كنت

في حوالي الحادية عشرة. كانوا يحتفلون بذكرى ميلاد منير. كنت أقف مع الكبار، ورأيتك أنت وفونت تتركون الأطفال الآخرين لتلعبوا مع ابن البستاني وتعطوه كمية هائلة من الكعك خبأتموها في جيوبكما. كنت أتساءل لم أخذتما تضعان كل شيء تجدانه على الطاولة في جيوبكما. كنت أتذكر هذا المشهد في كل مرة أذهب إلى القرية بصحبة روزا. ثم رأيتك في بيت خالتك ذلك اليوم الذي أحدثت فيه تلك الجلبة. هل تفهم الآن لِمَ كان من الطبيعي ألا أريد أن أفقدكما أنت وفونت؟ كنت سعيدة جدًّا خلال ذلك العام الذي قضيناه معًا في القاهرة. كنتَ صادقًا ومخلصًا، كنتما كذلك أنتما الاثنان.

تلت ذلك فترة أخرى من الصمت.

قلت:

- أنا أيضًا كنت سعيدًا قبل المجيء إلى هنا. كان طبيعيًّا بالنسبة لي أن أكون غارقًا في حبك حتى أذنيّ. بالنسبة لي، أنت ملاك خصَّني، لسبب أو لآخر، ببعضٍ من نفحاته. أنا أكنُّ لك الكثير من الاحترام. وصدِّقيني، أنا ممتنٌّ لك كثيرًا لأنك سمحتِ لي بحبك.

- رام.

- نعم؟

لم تجب.

- ماذا هنالك، يا إدنا؟

- لست ذلك الملاك الذي تتخيله.

ابتسمت دون أن أجيب. كانت هذه المرة الأولى التي تستخدم فيها إدنا اكليشيهات يستخدمها المحبُّون، لكني تجاهلت ذلك.

- أخبرني بم تفكر.

- تعرفين كم من الكتب قرأت؟ حسنًا، بطريقة أو بأخرى، كان ذلك مجرد قراءة. أقصد، إنني لم أربط بين ما كنت أقرأ وبين الحياة الواقعية. لا. أعني أنني لم أتخيل أبدًا أن أكون مجرد «شخصية»... أنا لا أصيغ أفكاري بوضوح. أعني أن ما قرأت كان مجرد قصص بالنسبة لي، و... .

- أفهم تمامًا ما تعني، يا رام.

- حسنًا، ثم بعد أن أتيت إلى هنا، أو ربما قبل أن آتي، أدركت لا شعوريا أنني أنا أيضًا بإمكاني أن «أحيا». لا أعبر بشكل جيد عما أشعر به. أعني أنه لا يوجد عذر ولا مبرر للطريقة التي بدأت أتصرف بها. ربما كانت هذه شخصيتي الحقيقية على أية حال. لكنني قلت ذلك قبل الآن.

- لا، هذه ليست شخصيتك الحقيقية.

- على أية حال، يا إدنا، لقد قررت أن ...

لم أكن قد قررت شيئًا قبل الآن، لكنني وجدت نفسي أخبرها بذلك.

- أغادر الفندق غدًا.

- إلى أين تذهب؟

- لا أدري بعد. لكنني سأحاول العثور على غرفة رخيصة في مكان

ما. ربما في الجانب الشرقي. وسوف أتابع دروس الكلية، مهما تكن. أعتقد أنهم يدرسون الرياضيات أو الكيمياء، أو شيئًا من هذا القبيل. هذا خير ما قد أفعله الآن، أن أحاول العثور على نفسي.

- عزيزي رام. هل أنت واثق من أن استئجار غرفة في الجانب الشرقي ليس جزءًا من كتاب قرأته؟

- ربما.

ابتسمت بدون أية سخرية.

- تعال إلى هنا.

جلست في مقابلتها على حافة السرير. جذبتني إليها، وضمتني إلى صدرها بقوة.

- أنا أحبك، يا رام.

- أنا أيضًا أحبك. كثيرًا.

أبعدت ذراعيها عني وسألتني إذا كان معي ما يكفي من المال.

- نعم.

سررت إذ لم أجد فونت في غرفته. حزمت أمتعتي، وتركتها للحمّال. كانت إدنا تتكفّل بدفع أجرة الفندق. كان معي أحد عشر جنيهًا متبقية من الخمسين التي كانت بحوزتي حين وصلت لندن.

سألتني المرأة:

- هل أنت ملون؟

نظرت إلى يديّ لأرى إذا ما كنت ملوّنًا. طالما قرأت عن ذلك حين كنت في مصر، لكنني لم أقابل ذلك في الحياة العادية. أنا لم أفكّر في هذا قط، أكنت ملوّنًا أم لا. (فيما بعد، ذهبت إلى إحدى المكتبات، ومن خلال قراءاتي اكتشفت أنني أبيض).

أجبتها:

- لست أدري.

كانت امرأة سمينة تمسك ممسحة في يدها.

- الأمر لا يتعلق بي، يا سيدي. لكنهم طلبوا مني أن أخبرك، إذا ما كنت ملوّنًا، أن الغرفة استئجرت. أنت تبدو أبيض بما فيه الكفاية، لكن لا أحد يعلم.

- أنا مصري.

طلبت مني أن أنتظر قليلًا، ودخلت ثم أغلقت الباب خلفها.

- مصري يا سيدتي. هل الأمر على ما يرام؟

سمعتها تهتف.

فتحت الباب بعد وهلة، وأشارت لي بالدخول. كان هذا في شمال كينسايتون. كنت قد حصلت على العنوان من لافتة معلقة في إحدى محطات مترو الأنفاق.

رحبت بي امرأة رقيقة الشفتين من خلال أنفها الطويل، وأشارت لي بالجلوس.

- أنت طالب، على ما أعتقد. لقد أمضيت بعض الوقت مع زوجي، الكابتن تريفورد، في مصر، حيث قابلنا عددًا مدهشًا من المصريين شديدي الذكاء في نادي الجزيرة الرياضي.

كنت أنيق الملبس، يبرز من فتحة جيبي العلوي منديل شديد البياض، وفي يدي أمسك قفازين من جلد بني لامع. سألتني:

- هل تعرف آل كمال؟ السيدة كمال، صوفي، كانت صديقة عزيزة لي.

- أعرفها. إنها ابنة عمي.

- ما أروع ذلك!

صفقت السيدة تريفورد بيديها.

- صوفي شخص رائع.

- إنها خنزيرة.

- أستميحك عذرًا؟

- قلت إن ابنة عمي صوفي ليست سوى خنزيرة.

- حقًا؟ أعتقد أننا نتكلم عن شخصين مختلفين.

- هل تعرفين الدكتور خيري وزوجته؟

- نعم. كنا نلعب البريدج معهم، وذهبنا إلى فيلتهم الرائعة في...

- حسنًا، إنهم أيضًا خنازير.

- يجب أن تفهم يا سيد... سيد....

- فونت.

- يجب أن تفهم يا سيد فونت أنني والكابتن قررنا أن نؤجر الغرفة فقط من قبيل الواجب الاجتماعي.

- ممتاز.

قاطعتها قائلًا ببساطة واعتداد.

- يجب أن تمنحاها للساكن إذن بدون إيجار.

- أووووه هاااا هاااا.

ضحكت من خلال فتحتي أنفها.

- لا نستطيع ذلك في الواقع. هاااا هاااا. وكذلك يا سيد فلنت.

أكملت من حيث قاطعتها.

- يمكنك أن تحتفظ بنكاتك لنفسك.

- نعم، يا سيدة تريكلفورد. هاااا هاااا. هل تعتقدين أن عشرة جنيهات... في الأسبوع طبعًا ... مبلغ كافٍ؟

قفزت من مكانها مؤكدة على كفاية المبلغ، بالرغم من أن الأمر لا يتعلق بالمال. كما أنه يسعدها أن تسدي صوفي صنيعًا. وبيني وبينها، إن صوفي فعلًا قد تكون...

- خنزيرة.

أكملت لها:

- لن أرى الغرفة الآن، لكنني سأرسل الحقائب مع سائقي. هل يوجد جراج للسيارة؟ فهي بنتلي.

غادرت المنزل، لكنني، بطريقة ما، لم أشعر بنشوة الانتصار. بعد السير لمدة يوم كامل في الجانب الشرقي، وجدت أنه يروق لي العيش هناك على أية حال. في اليوم الثالث، وجدت حجرة في منزل يقطنه ميكانيكي وأسرته في باتيرسي. كانت حجرة صغيرة تحوي سرير مستشفى، حوضًا، منضدة، وكرسيًّا، ولا شيء آخر. لكن الجيد أنه كان لها مدخل خاص، كما أن إيجارها كان رخيصًا. على أية حال، فقد كان «للعيش» بها رونق خاص. بالطبع فإن من «يعيش»، بالمعنى الذي أقصده، لا يعرف أنه «يعيش» إلا حين يتوقف عن «العيش».

لم أتصل بفونت أو إدنا إلا بعد أن استقر بي المقام في تلك الحجرة في باتيرسي. ثم ذهبت لأراهما، وكان بحوزتي فقط خمسة جنيهات متبقية.

وجدت فونت يحزم أمتعته، وكان مشمئزًّا مني. على الأقل، كان يمكنني أن أخبره بمغادرتي للفندق. أما عن مغازلتي لصديقة ستيف ونومي بالخارج تلك الليلة، فإن ذلك مقزِّز حقًّا. كلما فكر أننا ذهبنا إلى بيتهم وتقبلنا ضيافتهم ثم حاولت أن أسرق منه فتاته، يشعر بالغثيان. إنني بذلك لا أختلف عن المصريين الطفيليين الذين لا شاغل لهم سوى ملاحقة أية تنورة دون أي وازع من ضمير.

لم يعبّر فونت عن رأيه في المصريين الأثرياء من قبل. قلت له إن ستيف ربما قتل المئات والمئات من النساء والأطفال الفقراء الأبرياء في عدن وقبرص وأماكن متفرقة من إفريقيا. فإذا كان يعتقد أنني سأشعر بوخز

الضمير تجاه ستيف، فهو مخطئ. لم يصدقني، لكنه احتفظ بما قلت في عقله حتى يفكر فيه مليا في وقت لاحق.

- هل إدنا في غرفتها؟

- تركت إدنا انجلترا بالأمس.

يدرك المرء مدى حبه حين يعتقد أنه خسر من يحب. ومع الأسف، كثيرًا ما يقع في الحب حين يدرك أن من يحبه لا يبادله المشاعر.

- لا تقلق.

قال فونت.

- ستعود قريبًا.

- لماذا غادرَتْ، يا فونت؟

- لا أعلم.

- هل كانت غاضبة؟

- لا. لكنها قالت إننا ينبغي ألا ننسى أننا مصريون، وينبغي لنا أن نعود في وقت ما.

- بحق المسيح يا فونت، أنا أحبها.

وجّه إليَّ نظرة من نظراته المعتادة، وقال إنني أظهرت حبي هذا بطريقة غير تقليدية.

- لا تكن غبيًّا، يا فونت. إن ما حدث مع شيرلي ليس له علاقة بحبّي لإدنا.

- اعذرني، فأنا لم أصل بعد إلى مستوى التعقيد الذي وصلت أنت إليه.

- أوه، اخرس يا فونت.

بعد وهلة، أراني خطابين أحدهما من مكتب الشؤون الداخلية.

سيدي العزيز،

أكتب إليك بتوجيه من مكتب الهجرة لأعلمك أن الطلب المقدم من سياتكم لتمديد إقامتكم في المملكة المتحدة ربما لا يتم اعتماده دون تقديمكم، في خلال أسبوع، ما يثبت أنه لديكم الدعم المادي الكافي.

خادمكم المطيع...

(لقد وصلني العديد من الخطابات من هذا الخادم المطيع. كان آخرها خطابًا أرسله ردًّا على خطاب شخصي أرسلته إليه أخبره فيه أنه ليس بالخادم المطيع على الإطلاق).

الخطاب الثاني كان من ديدي نكلا في باريس تخبرنا فيه أنها ستأتي إلى لندن الصيف المقبل، وتريدنا أن نجد لها شقة «معقولة الإيجار». ديدي نكلا بوسعها أن تشتري قلعة للصيف، إذا ما أرادت.

- كم من المال بحوزتك، يا فونت؟

- خمسة عشر جنيهًا.

- إذن، لدينا نحن الاثنان ثمانية عشر جنيهًا. لن يعتبر مكتب الهجرة هذا المبلغ كافيًا لأي شيء.

- تركت لنا إدنا تذكرتين إلى مصر.

- أنا لن أستخدم تذكرتي.

- وأنا لن أفعل كذلك.

استلقيت على الفراش، ريثما ينهي فونت حزم أمتعته. ارتفع حاجباه لأعلى، ثم لأعلى، ثم هبطا لأسفل، ثم ارتفعا ثانية.

- إلى أين ستذهب، يا فونت؟

- سأبحث عن غرفة.

قال وحاجباه مستمران في الصعود والهبوط.

- ماذا هنالك، يا فونت؟

- انظر، يا رام. لقد تركت إدنا معي ثلاثمائة جنيهًا في حال احتجنا إليها. لقد أنفقت علينا من المال ما يكفي حتى الآن. أنا لن ألمس سنتا من هذا المال. لكن بإمكانك أن تفعل ما تريد.

- ما أريد هو أن ألمس كل سنت من هذه النقود. ماذا تعني النقود بالنسبة لإدنا؟ لديها أطنان منها، فلماذا لا نلمسها؟

- فلتفعل ما تشاء.

قال ذلك وأدار لي ظهره متظاهرًا بانشغاله في حزم الأمتعة.

- ما خطبك، يا فونت؟

- ما خطبي أنا؟

- ما خطبك؟ هل تعتقد أني جاد بشأن النقود؟ بالطبع أنا لن ألمس

هذه النقود أنا الآخر.

- اسمع، يا رام. لقد تغيرت منذ أتينا إلى هنا. أنا ما عدت أعرفك.

- حسنًا.

تنهدت.

- لديَّ خطة جيدة. يمكننا أن نستغل المال بشكل غير مباشر.

- ماذا تعني بشكل غير مباشر؟

- أصغ إليَّ، يمكننا أن نودع النقود البنك في حساب باسمي..

- افعل ما شئت.

صرخت به:

- اسكت. إذا قلت شيئًا الآن، سأقتلك. نودع النقود البنك في حساب باسمي، ونحصل من البنك على إيصال بالمبلغ. ثم نسحب النقود ونودعها بنكًا آخر في حساب باسمك، ونحصل من هذا البنك أيضًا على إيصال. وهكذا يكون معنا ما يثبت أنّ لدينا «الدعم المادي الكافي».

أعجبت الفكرة فونت، بالرغم من أنه اجتهد في عدم إظهار ذلك. أمرته أن يعتذر لي ويعترف بأنني أذكى وأخلص وأنبل وأحب إنسان عرفه. كان قد أنهى للتو إغلاق حقيبة ملابسه بعد عشر دقائق من القفز فوقها ومحاولة إحكام الغطاء، فأعدت فتحها عندما رفض أن يكرر ما قلت. تدافعنا بمودة، وعدنا صديقين من جديد.

- دعنا نقامر.

- مَن، أنا وأنت؟

- لا تكن غبيًّا. دعنا نلعب البوكر، أو شيئًا من هذا القبيل، مع أناس أثرياء.

بالطبع، لم نكن نعرف أي أثرياء. لذا، اقترحت أن نذهب إلى سباق الخيول. لكن، كان علينا أن نجد حجرة لفونت أولًا. كنت في مزاج حسن ذلك اليوم. ربما لأن إدنا ذهبت. بعد التغلب على الصدمة الأولية لرحيلها، شعرت بالحرية. ولكنها ستعود قريبًا على أية حال.

أخذنا حقيبة فونت، وذهبنا إلى إحدى الحانات نتدبر خير وسيلة للعثور على حجرة له.

على الرغم من إرسالها النقود لنا، لم تتصل إدنا أو ترسل خطابات لمدة سنة كاملة. وحين عادت في نهاية المطاف، استعدنا علاقتنا كحبيبين، لكنها رفضت الزواج مني، كما رفضت إعطائي أسبابًا لذلك. وتغيرت شخصيتي حقًّا. في ذلك الوقت، وصلت ديدي نكلا إلى لندن، وبقيت معنا ثمانية أشهر. الغريب أنه على الرغم مما حدث بيني وبين ديدي نكلا، حين أفكر في لندن؛ لا أفكر مطلقًا فيها.

الجزء الثالث

«قد يضحّي المرء بالمشاعر التي يمتلكها، لكن، هل يستطيع أن يضحّي بمشاعر لا يمتلكها؟»

جيروديه

فتحت عينيّ في الصباح على صوت المؤذن الجميل، مختلطًا بصوت حفيف سعف النخل بالخارج، والجلبة التي يحدثها خرف الله أثناء إخراجه للطاولات على الرصيف المقابل لمقهاهِ. حتى تلاعُب الظلال على مصراعي النافذة المغلقة بدا متناغمًا مع صوت الأذان. نداء جميل آتٍ من المئذنة العالية يخبرنا أن «لا إله إلا الله»، ويخبرنا من يكون نبي الله. هل يهم من يكون نبي الله؟ «لا إله غير الإله»، فكرت، قد تكون أفضل. أو «لا إله، لا إله»، ينطق بها نفس الصوت الجميل. من قد يتسلق هذه الدرجات ليؤذّن إذا ما قامت ثورة حقيقية. لا أحد. أفكار حزينة. نعم، تنهدت، نداء جميل لكنه كان دائمًا يوصف بالعويل في البلدان ذات الثقافة التي كنت ألعقها كالجرو.

نظرت إلى إدنا النائمة، تبدو ندبتها أكثر وضوحًا في ضوء النهار، وشعرها منفوش فوق الوسادة. لقد وصف سومرست موم الحب بأنه مقدرة شخصين على استخدام فرشاة أسنان واحدة. حب فرشاة الأسنان؟ قربت رأسي من رأس إدنا، فاجتاحني عبير أنفاسها بما يحمل من ذكريات. تأثير الرائحة عادة ما يعلق بالذاكرة أكثر من تأثير السمع أو الرؤية. قليلًا ما قضينا الليل بأكمله معًا. كان هناك ثمة تباعد من جانب إدنا لم أستطع التغلب عليه. كما لم أستطع يومًا أن أعتبرها أمرًا مسلَّمًا به في حياتي.

لم نكن نتبادل العناق على سبيل العادة، وبقيت مشاعري تجاهها على حالها.

يبدو أن أجسادنا وأنفسنا ممتلئة بسموم تتلوى بداخلنا، كالأفاعي ترغب في الإفلات. أفاعي الجنس والحب والمشاعر والإحباط، تتلوى وتتلوى وتطل برأسها من آن لآخر. نحاول إغراقها في الشراب والشهوة، ونكبتها على طاولات المقامرة وفي ملاعب كرة القدم، لكنها تطل من جديد وتعذبنا بضغوطها. من آن لآخر، يبدو أنها جميعًا تفلت فتعطينا فسحة قد نسميها سعادة أو رضًا أو حتى سكينة.

شعرت بالخفة والسلام كأن كل أفاعيَّ قد انكمشت أو غادرتني لوهلة. حتى لحمي بدا أنه يلتصق أكثر بعظامي. كالنُّسَّاك الهنود الذين ينشدون حياة خالية من الأفاعي.

إذا تركت أفكارك تسرح في لحظات كهذه، فتعلو فوق تفاهة الحياة اليومية وعاديتها، وتبدو كأنها تحملق في العالم من أعلى بتباعد، وحتى برفق؛ ما قد يمنحك رؤية صافية وجلية للمشهد أسفل، كما يحدث حين يصفو عقلك بين نوبات السكر.

هذه النظرة الفوقية التي قد تشمل في مداها العالم بأسره، تركزت فقط على إدنا. وبتبصُّر مخيف، أدركت أنه قد يكون علينا أن نفترق. رأيتها ممزَّقة بين قوميات وأعراق وأحداث سياسية وثورات وديكتاتوريات، وبصفة خاصة بسبب مثاليتها الغامضة. ضممتها برفق بين ذراعيَّ واعيًا

لضحالتي وتفاهتي في مقابل عمقها وإخلاصها.

فتحت عينيها. بقينا متلاصقين ننظر إلى بعضنا لوهلة.

لا يُقَرِّبُ أي كلام أو شرح بين عاشقين أو صديقين مثلما يفعل الصمت.

- أرجوك أن تذهب، يا رام.

همست.

ارتديت ملابسي بهدوء وخرجت إلى حيث كانت تنتظرني سيارة يحيى، التي استعرتها بالأمس وقدناها إلى الأهرام. أخذت السيارة إلى يحيى، ثم عدت إلى المنزل ماشيًا.

سألتني أمي:

- ألم تنمْ الليلة هنا؟

- نعم.

- أين كنت إذن؟

- كنت مع يحيى

بعد وهلة سألتني عم يفعل يحيى الآن. أجبتها:

- مازال في الجامعة.

- حقًا؟ ألم ينهِ دراسته بعد؟

- نعم.

- غريب حقًّا. كم قضى في الجامعة؟

- عشر سنوات.

- بالطبع هم أثرياء جدًّا. أمه كانت معي في المدرسة، أتعلم؟ كانت المشرفة تصر على وضعنا في عنبرين مختلفين، فقد كنا مشاغبتين جدًّا حين نكون معًا. كانت محظوظة جدًّا بالطبع، فوالد يحيى رجل محترم جدًّا. أوروبا كل عام، والعشيقة الجميلة تلو الأخرى.

أخذت تهز رأسها بتقدير.

- ذهبت لرؤية خالتي نعومي بالأمس.

قالت بالفرنسية:

- آه، يا رام؟ أنا مسرورة جدًّا لأنك ذهبت لرؤيتها. كنت أتمنى دائمًا أن تكونا صديقين أنت ومنير. لقد أصبح شخصًا هامًّا. هذا الولد ذكي حقًّا. عليك أن تفكر بالمستقبل الذي ينتظرك إذا ما ساندتك خالتك بنفوذها. ألا ترغب في رؤية نفسك سفيرًا في إحدى دول أوروبا؟ لديك كل المؤهلات لذلك: طويل ووسيم وتتكلم اللغات، وفوق كل ذلك بالتأكيد تعليمك الإنجليزي. الرجال أمثالك نادر وجودهم هذه الأيام.

ثم قالت إنها تأمل ألا أكون قد ذهبت لزيارة خالتي خالي اليدين، فضحكت.

- كان أبوك مراعيًا جدًّا في مثل هذه الأمور. على الرغم من أنه لم يكن من وسطنا. لقد كنت صغيرًا جدًّا بحيث لا تستطيع أن تتذكر منزل والديَّ والرفاهية التي كانت تحيط بنا، الخدم السودانيين في لباسهم المُنشَّى يحيط بوسطهم شريط أحمر. حتى خالتك نعومي لا تعيش في

نفس المستوى الذي تربَّينا فيه.

أشعل كلانا سيجارة.

- وماذا أخبرت خالتك؟

- سألتها أن تقرضني ألف جنيه.

- ألف جنيه؟ لم تحتاج مثل هذا المبلغ؟ هل عدت إلى المقامرة؟

- لا.

- لماذا إذن؟

- أوه. لست أدري. أريد أن أعيش في أوروبا لبعض الوقت.

- تعقَّلْ يا بني. أنا لا ألومك بالطبع؛ فأين الحياة المفتوحة على العالم التي كنا نحياها؟ بالطبع إذا أنت التحقت بالسلك الدبلوماسي...

تركت الغرفة وذهبت إلى الشرفة لوهلة، ثم عدت مرة أخرى.

أكملت أمي:

- كما كنت أخبر ميمي بالأمس، الولد قد سافر إلى الخارج ويجد صعوبة في العمل هنا كأي شخص آخر.

- لا أعتقد أنه بإمكاني أن أصبح سفيرًا لمصر لدى بريطانيا؟

- لِمَ لا؟ من هو سفيرنا هناك الآن؟

- لا أحد.

- لا؟

- لا.

- لِمَ لا؟ بالطبع لا يمكنك أن تصبح سفيرًا هكذا مباشرة، فأنت صغير السن جدًّا.

- ياللأسف.

أجبتها ثم توجهت إلى غرفتي، واستلقيت على الفراش.

أخبرني كرولوس، خادمنا، أن الإفطار جاهز. كرولوس قبطي مثلنا وقد عمل لدينا لمدة خمسة وعشرين عامًا. يحمل كرولوس كل الصفات المميزة للأقباط: الخبث والاحتيال الدائم، المداهنة، حتى وجهه ذو العروق النافرة عند الجبهة يفضح هويته القبطية. دائمًا ينحني للأمام قليلًا كأنه يلتهم الأرض.

- ازي مراتك، يا كرولوس؟

انحنى أكثر وقال إنها مريضة جدًّا. بارك الرب فيَّ لسؤالي عنها.

- وأولادك؟

الرب يحفظني. هو يحاول أن يوفر المال اللازم لكي يعرضهم على الطبيب.

قلت له:

- هاجيب حد من أصدقائي الأطباء يشوفهم.

مستحيل. فالناس أمثاله يذهبون إلى الأطباء زهيدي الأجر.

- أنت مش هتدفع أي شيء.

هز رأسه ومشط السجادة بيده.

- وأنت، عيان أنت كمان؟

المنقذ يعلم أنه لا يفكر بنفسه، فهو سيموت قريبًا على أية حال.

نحن الأقباط لدينا هاجس المرض. غادرت الفراش، وذهبت إلى أمي. بادرتها:

- لا تبدين بصحة جيدة.

- أعلم. فأنا لم أستعد صحتي بعد الجراحة.

دخنت لبعض الوقت بعد تناول طعام الإفطار. ومن ثمّ لم أعرف ماذا أفعل بنفسي. درت ثلاث مرات حول حجرتي، ثم ذهبت إلى الشرفة، ثم إلى حجرتي، ثم إلى غرفة الجلوس حيث تجلس أمي. بدون أي داعٍ أو مقدمات قالت إنها ضحَّتْ بحياتها لأجلي.

- أعلم.

- لا تستطيع أن تتصور...

- أستطيع، يا مامي. أعرف أنك ضحيت بحياتك لأجلي.

- منذ...

- أعرف. منذ أن تزوجتِ.

أمي لم تحب زوجها، وترى أنها تزوجته فقط لتمنحني أبًا محترمًا. حقيقة أنها أنجبتني بعد عامين من الزواج تبدو لها خارج الموضوع، فأنا مسؤول عن الوضع برُمَّته.

- شكرًا، يا مامي.

استحممت، وارتديت ملابسي بعناية. هناك ترزي في مصر القديمة تتعامل معه عائلتي منذ سنين. أذهب إليه، أختار القماش، أحصل على البدل، وبطريقة ما تُسدد الفواتير دون أن أدفع مليمًا.

سألتني أمي:

- إلى أين أنت ذاهب؟

وقفت أمام الباب أهز مفاتيح المنزل في جيبي. لم أكن أعلم وجهتي. ثم حزمت أمري:

- إلى النادي.

هناك شيء ما يميِّز هذا النادي. شيء تحسه بمجرد دخولك من البوابة واتجاهك ناحية مبنى النادي مرورًا بأصص الزهور المعتنى بها جيدًا على الجانبين، وأعمدة المصابيح المصممة خصيصًا للمكان الذي تلقي بضوئها عليك، الحجارة البيضاء التي تصف الطريق، موقف السيارات، ملعب الكروكيه حيث يجتمع كبار السن للعب. تخيل كونك عضوًا في مكان حيث يلعب كبار السن الكروكيه. هذا التحليق في فضاء المكان والانتقال بيسر بين مباني النادي وعبره إلى حمام السباحة حيث الأعضاء يتحركون كالنسيم وحيث النساء الأنيقات يطُفْن هنا وهناك كمنحوتات متحركة.

الغريب حقًّا، أنه في الأيام الأولى للثورة انهالت الاتهامات على هذا النادي كرمز للاستغلال، وتم التحفظ عليه من قبل لجنة ما. حسنًا، إن كل الأعضاء ما زالوا أعضاءً مع إضافة بعض العناصر العسكرية. أستخدم

كلمة «أعضاء» هذه عن عمد؛ لأن الوافدين العسكريين اكتسبوا هذه السمة الأثيرة المميزة للأعضاء من «طواف كالنسيم».

مشيت تجاه مبنى النادي واضعًا يدي في جيبي. تجاوزتني سيارة مرسيدس جميلة، ولوَّح لي أحدهم من داخلها. لوَّحت في المقابل، فكلنا نعرف بعضنا البعض؛ نعرف كل شيء عن بعضنا البعض، ونعرف كم من المال والأطيان يمتلك بعضنا البعض. وكلنا نتزوج بعضنا البعض: الأعضاء المسلمون يتزوجون من المسلمين، والأقباط يتزوجون من الأقباط.

- صباح الخير، يا رام.

- صباح الخير، يا سيدي.

لم نتصافح. لو كنَّا نحمل المظلات أو نرتكز على عِصِيٍّ، لكنا وقفنا في مَيْلٍ عمودي، ومن يشاهد عن بُعد كان سيرى زهرتَيْ تيوليب تتأرجحان بعض الشيء في لقاء قصير، لكن أيدينا كانت خالية، فوقفنا مبتسمين ونحن نضعها في جيبينا.

مشكلتي أنني أحب ذلك. أحب أن أضع يدي، بارزة قليلًا، في جيبي. كما أحب أن أرتدي صدارًا تحت معطفي، وأن أبرز منديلي قليلًا من جيب المعطف. أحب ذلك، وأعي أنني أحب ذلك.

- كيف حالك؟

- بخير. شكرًا لك. كيف حال الليدي تانيل؟

- سعيدة جدًّا بعودتها هنا. فهي تعشق هذا البلد، وتعتبره موطنها.

لقد فقدت عذريتي على يدي الليدي تانيل، وكذلك فعل الكثيرون من أعضاء النادي. تأخذك إلى بيتها عندما تبلغ السادسة عشرة، أو نحو ذلك، كي تعلِّمها اللغة العربية، كما كانت تقول. وبينما تموت أنت حبًّا وإثارة، تكون هي في قمة الحيوية والتشويق، ثم تجد نفسك في السرير معها، فتتحول من فورها إلى لوح من رخام وتقول لك:

- ألم يكن ذلك لطيفًا؟

فتصدم صدمة مروعة.

أتحدث الإنجليزية بغير لكنة. لكن على الرغم مني، وأنا أتحدث إليه، شابت كلامي لكنة لندنية وجدت صعوبة في التخلص منها. غريب.

قال محدثي:

- قضينا أمسية رائعة في منزل خالتك.

- رائع.

خالتي ترى أنه من المناسب لمنير أن يتخذ الليدي تانيل «عشيقة». (أتحفظ على استخدام كلمة عشيقة للإشارة إلى الليدي تانيل لأنك لا تتخذها عشيقة. أنت فقط تـ ....) هكذا إذن. أمسية ساحرة في فيلا الهرم. بالطبع لم يسبق لمنير أن لمس الليدي تانيل. حفلات عشاء! بحق المسيح، هذا الولد غبي. فالليدي تانيل تلتقط من تريد. حسنًا، أنا أحبها على أية حال.

سألته فجأة:

- هل ستصوِّتُ لصالح حزب العمال؟

- عذرًا؟

كررت سؤالي:

- هل تصوِّتُ لصالح حزب العمال؟

- يا عزيزي، أنا لم أكن قط مهتمًا بالسياسة.

- أوه، كانت هذه هفوة.

فقلت مبالغًا:

- خمسة وعشرون ألف مصري ماتوا.

- كل هذا العدد؟! أوه. لعنة الله على الحرب.

قال ضاحكًا. ضحكت أنا أيضًا، ثم افترقنا.

كلمة «مصر» تُحضر إلى ذهنك، على ما أعتقد، صورة فلاح عائد إلى بيته بعد المغيب حاملًا فأسه على كتفه، وابنه خلفه يسوق بقرة. حسنًا، إن مصر مكان حيث كبار السن يلعبون الكروكيه. لست أدري لم أثرت فيَّ مسألة الكروكيه هذه فجأة، فقد مررت بهذه الساحة آلاف المرات قبل الآن ولم أفكر قط في ذلك. جلست على مقعد خشبي أشاهد بعض الناس يلعبون. واحدة منهم كانت ميمي التي ذكرتها أمي هذا الصباح. كل النساء اللاتي يحملن اسم ميمي وتاتا وسوسو في وسطي يكبرن ويتزوجن ويكبر أبناؤهن ويتزوجن، لكنهن يبقين الصغيرات ميمي وتاتا وسوسو. أما ميمي هذه فطويلة وتتميز بأقدام مسطحة تجعلها تمشي كالجمل.

أتخيل أنها ستنحني على الأرض تقبلها في أية لحظة. كما أن لها تفاحة آدم بارزة أيضًا. ذهبت ميمي مع أمي، وكذلك كل المدعوات ميمي وتاتا وسوسو، إلى إحدى المدارس الداخلية الفرنسية. في صغري، كنت معتادًا أن أصطحب السائق لإحضار بنات خالاتي من هذه المدرسة نفسها. كانت هذه المدارس تتبع نظامًا صارمًا جدًّا، وعليك أن تذكر رقم التلميذة السري من خلال فتحة صغيرة، قبل أن ينفتح الباب فتحة بالكاد تسمح بخروج الهيئة السوداء الشاحبة للتلميذة، التي تبدأ في وضع مساحيق التجميل قبل الوصول للسيارة.

- كوكو.

صاحت ميمي عليَّ ولوحت بيدها.

رددت صيحتها:

- كوكو.

لقد كنت أصيح منذ تعلمت الكلام، لكنني الآن أصيح وأنا أعي نفسي جيدًا، وأعي أنني أجلس هنا وأصيح. هذا بسبب مقالة قرأتها في «النيو ستايتسمان» عن مشاكل الري في الهند. كيف تقرأ مقالة في «النيو ستايتسمان» عن مشاكل الري في الهند، ثم تجلس هنا تصيح؟

- كوكو.

صحت مجددًا.

- هو ابن أخت..

سمعتها تترجمني إلى رجل يحمل مضرب كروكيه. تأملته يحمل مضربه بشكل شبه أفقي بسبب كرشه. كان عليه أن يمسك بالمضرب ناحية أحد جانبيه كي يتمكن من الوصول للكرة. قد تتصل ميمي بأمي مساءً وتقول لها: «لقد لعبت الكروكيه اليوم.. كم كان ذلك ممتعًا».

طوحت ميمي برأسها تجاهي، ثم أتبعتها بباقي جسدها.

- يا مجرم..

قالت بطريقة لاهية.

- أنت تسبب لأمك القلق بسبب هرائك السياسي.

- تبدين جميلة في هذا السروال، يا ميمي.

- إذن، لن تناديني طنط ميمي، بعد الآن، يا مجرم. لو كنت أصغر عدة سنوات، لكنت أقمت معك علاقة. اشتريته من كيركا. انتظر حتى ترى الملابس الجميلة المستوردة حديثًا من إيطاليا، يا رام. ملابس تجعل ما كنا نلبس حتى الآن يبدو مزريًا. تعال والعب معنا. هل تعلم من يكون هذا القادم نحونا؟

همست لي بهويته أثناء تقدمه.

- ها ها ها ها ها.

قال بهدوء واضعًا ذراعه فوق كتفي هازًا إيّاي قليلًا. ثم شدّ أذني قائلًا:

- أنا صديق عزيز لخالتك. ها ها ها ها.

قالت ميمي:

- إنه شخص ساحر.

تسلقت الدرج إلى مبنى النادي. في الحال غمرتني تلك الرحابة بالراحة. بإمكاني الذهاب مباشرة عبر المدخل إلى حمام السباحة، والشرفة الكبيرة، أو أهبط الدرج إلى حيث الملاعب والمربيات الأجنبيات، أو أنعطف يمينًا حيث غرف لعب البريدج والاسترخاء. وقفت لا أعرف ماذا أقرر. كان بإمكاني من حيث أقف أن أرى أن هناك مباراة بولو على وشك البدء. يجب على لاعبي البولو أن يبقوا ظهورهم مستقيمة. راقبت أحدهم يختبر ركبة حصانه؛ ركع على إحدى ركبتيه كأنما يصلي، ومد ذراعيه بإشارة ملوكية. أنتحدث عن الفلاح وولده الذي يسوق البقرة خلفه؟ كلهم دوق إدنبره.

شعرت برغبة في تناول البيرة المثلجة والفول السوداني المملّح بجانب حمام السباحة. ثم أدخن سيجارة، ثم أتناول المزيد من البيرة والفول السوداني. بإمكاني تحقيق رغبتي، على الرغم من أنه ليست معي أية نقود. لكنني أعرف جيدًا كيف سأشعر بعد ذلك، أعرف جيدًا الشعور بالإحباط والتقزز من النفس.

أخذت أراقب السبّاحين. ليس هناك زي رسمي للسباحة في النادي. لكن إذا لم يحمل ما ترتديه، رخيصًا كان أو غالي الثمن، شعارًا معيّنًا لامرأة تتأهب للغطس، فإنك لست عضوًا أصيلًا في النادي. أذكر أن إحدى بنات خالاتي حصلت على بزة سباحة خيطت خصيصًا لأجلها، فإذا بها تأتي

بشعار قديم وتخيطه فوقها. هذه هي مشكلتي. ها أنا أقف هنا أشعر بالتفوق وأحكم على هؤلاء الناس، ثم أتذكر أن بزة سباحتي أنا الآخر تحمل شعار «الصفوة». أتذكر أنني كنت ألعب الكروكيه، وأنني إذا ما لعبت البولو، فسوف أحرص أيضًا على إبقاء ظهري مستقيمًا. لا، فكرت، لن أشرب اليوم بكل تأكيد.

- رام بيه. بيدوروا على لاعب رابع في قاعة البريدج.

لقد كبرنا أمام أعين خدم النادي، لذا فهم ينادوننا بأسمائنا الأولى مضافًا إليها الألقاب المناسبة مثل بك وباشا.

- مين هم، يا حسن؟

- ابن خالتك منير واثنين ستات أمريكان.

- مين هم، يا حسن؟

- جداد، يا رام بيه.

ثم أخبرني أنهما جميلتان جدًا. عليَّ أن أتوخى الحرص، فأنا إن خسرت، لن يكون بمقدوري السداد.

- مين في البار النهاردة؟

- علي.

ذلك سيء. فهو يرفض إقراض أحد شيئًا من صندوق النقود.

- النص بالنص.

قال حسن، ونقدني خمسة جنيهات.

- لكن بالله عليك يا رام بيه ما تلعب شريك لمنير أفندي.

ها. إن «أفندي» أقل لقب شرف في مصر.

آخر مرة شاهدت منير كانت في نادٍ ليلي، وقد تجاهلنا بعضنا البعض. اختفى حسن بينما مشيت أنا بتؤدة ناحية قاعة البريدج. ناداني منير:

- هاي، رام. كيف أحوالك؟ أنا بالتأكيد مسرور لرؤيتك. نحن في حاجة إلى رابع. هل تميل إلى الانضمام إلينا؟

- أميل. بشكل أفقي.

كانت تلك ملاحظة غبية، لكن هناك شيء ما في منير يدفعني إلى قول وفعل أشياء غريبة عن طبيعتي. استفزتني لكنة منير الأمريكية كالمعتاد. لكن ألم أكن أتحدث بلكنة منذ قليل مع زوج الليدي تانيل؟ تظاهرت أنني لم ألحظ السيدتين اللتين بصحبته. كانتا جميلتين وأنيقتين بطريقتهما الأمريكية المستقلة. بدا لي أنهما من أصل اسكندنافي، فالنساء اللواتي يستطعن الاعتناء بأنفسهن يبدو أنهن يتخلين عن جزء من أنوثتهن. أذكياء إلى حد ما، على الرغم من كونهن لا يعترفن بهذا الحد. لكنهن جذابات للغاية.

قالت إحداهن، وكانت تكبر الأخرى بقليل:

- أنا كارولين، وهذه سو. الآن دعنا نتفق منذ البداية على طريقة اللعب. لم أحبها.

- أنا رام.

صافحت كلتيهما، ولسبب ما بدا ذلك غريبًا.

- جميل أن نلعب معًا مجدّدًا، يا رام. ماذا...

- ويسكي.

- هذا الشاب ابن خالتي.

تجاهلت منير قائلًا:

- سوف أوزّع الورق.

قالت كارولين:

- لم لا؟

- سوف يتفق الشريكان على اللعب.

- أنا وسو سنكون شريكتين.

- نحن سنوزع.

أصررت، فقد كانت هناك حرب دائرة بيني وبين هذه الكارولين. بدا لي من الغريب أنه كان هناك عصر حيث كان الرجل من التهذيب بحيث يقبّل أيدي النساء ويأخذ على عاتقه تحقيق رغباتهن وكأنها أوامر، على الرغم من أن بعض الرجال شديدي التهذيب ما زالوا يأخذون بهذه التقاليد المستعارة، والتي ترحب النساء كثيرًا باتباع الرجال لها. لكنني أعلم أن أمثال هؤلاء الرجال تحتقرهن النساء الأوربيات والأمريكيات. لست أدري لماذا أفكر في هذا الآن، لكن من خلال خبرتي، فإن مثل هذا العداء في بداية تعارفي بالنساء يجذبهن كثيرًا بحيث تنتهي العلاقة بما هو أكثر من مجرد تعارف.

- على كم نلعب؟

ردت كارولين:

- جنيه مقابل مائة.

جنيه في مقابل مائة. لقد راهنت من قبل على جنيه في مقابل مائة، لكن ذلك كان لعبًا حقيقيًّا، فأطوي أكمامي وأشرب القهوة بينما العديد من الناس يشاهدون. فجأة أحسست أن الخمسة جنيهات في جيبي لا تساوي أكثر من خمسة قروش.

علَّق منير:

بالطبع، فهذا هو المعتاد.

الكاذب. لكنه يحب أن يخرج دفتر الشيكات ويوقع على شيك. نظر إليَّ. هو يعلم أنه سيضطر إلى دفع خسائري لو خسرنا.

وافقتهم:

- لا بأس.

وجدت نفسي أشارك منير اللعب حتى صرخ:

- هذه الأوراق استخدمت من قبل.

فأحضرنا مجموعة جديدة، وانتهزت أنا الفرصة فوزعت مجددًا وشاركت سو اللعب. كانت تلعب بمهارة عفوية اكتسبتها على الأرجح بعد طول ممارسة، لكنها تجعلك تتساءل إذا ما كانت صاحبتها تمتلك أية مخيلة. ربحنا الثلاثة أدوار الأولى.

صرخت كارولين للمرة الثالثة:

- مووني، لقد فوّتَ دورين.

ضاعفت رهاني، فخسرا مرة أخرى.

أعلن منير انسحابه من اللعب.

- مووني، أنت من ضيَّعنا!

- بالتأكيد أنا فاقد التركيز.

كنا قد شربنا كثيرًا أثناء اللعب. حين تطلب كأسًا من الويسكي وأنت بصحبة منير، فإن النادل لا ينفك يملأ الكؤوس كلما فرغت. كانت أصوات روّاد حوض السباحة تصلنا خافتة في قاعة البريدج. تستطيع دائمًا معرفة مكان حوض السباحة من خلال الأصوات الآتية منه، فضحكات الأطفال لها صدى مميز. الشمس القوية في الخارج في مقابل العتمة والبرودة النسبية والهدوء في القاعة، والويسكي، كل ذلك، مقترنا بجمال سو وكارولين، كان من الممكن أن يكون لطيفًا ومكتملًا، لولا أن كارولين كانت تسلخ منير بسبب خسارتهما، وهو لا يحاول نفي تهمة التقصير التي توجهها إليه. انفجرت ضاحكًا.

خاطبتني ببرود:

- أنا مسرورة لأنك تجد ذلك ممتعًا.

أجبتها:

- فعلًا.

عمَّ الصمت المكان، حتى منير الذي ثمل لأنه لا يشرب كثيرًا في المعتاد شعر بالخطر. لكن، بدون توقع، ابتسمت كارولين وابتسمت أنا، وأصبحنا أصدقاء. أقول لكم، الأمر غريب مع النساء الأوربيات والأمريكيات. قلت:

- سألعب مع منير الدور القادم.

- أتمنى أن تستطيع تحمل التكاليف.

- في الحقيقة، لا أستطيع.

فجأة ناسبني أن أكون فقيرًا. حتى أنني تمنيت لو كنت معدمًا لا أجد ما آكله. لكن في هذه الحالة، ما كنت أستطيع الدخول إلى النادي. الفقر ليس ممتعًا على الإطلاق خارج النادي.

قالت كارولين:

- لا أصدقك.

لكني أصررت على ما قلت.

- سأسأل موني. موني، هل ابن خالتك فقير؟

- هو بالتأكيد يعرف أنه إذا احتاج أي شيء فما عليه سوى أن يسألني.

كنا قد توقفنا عن اللعب أثناء الحديث، وكنا على وشك استئناف اللعب حين حضر رجل طويل وبدين في أربعينياته ووضع يديه على كتفي كارولين. كان أصلع ويرتدي نظارات طبية.

حيَّته كارولين:

- أهلًا. هل تعمل هذا المساء؟

- أعتقد ذلك. نحن نعاني بعض المشكلات مع رجل يدعى... أبراكادابرا، أو شيء من هذا القبيل.

قال ذلك مخرجًا بطاقة من حافظته.

- أعتقد أنني سوف أحتاج إلى عونك، يا موني.

أعطى منير البطاقة.

- عبد الحكيم.

نطقها منير بطريقة تنم عن أنه بدوره يجد صعوبة في قراءة الاسم.

- جاك. هذا رام، ابن خالة منير.

صافحني جاك بقوة، وقال إنه مسرور جدًّا بلقائي. ولأنه أعجبني؛ إذ يبدو لطيفًا، قلت له:

- أنا أيضًا مسرور جدًّا بلقائك، يا سيدي.

خاطب أمريكيًّا بـ «يا سيِّدي»، فيقع في غرامك.

- هل تعمل مع منير؟

- لا.

أوضحت كارولين:

- جاك زوجي.

- هل تعمل هنا؟

سألته خائبَ الأمل لأنني لم أكن أدري أنهما متزوجتان، فلم يكن في يديهما خاتما زواج.

- ظننت أنكما سائحتان.

ردت كارولين:

- جاك في مهمة تقصي حقائق.

سألت سو:

- هل زوجك في نفس المهمة.

هزت رأسها، ثم قالت بعد وهلة:

- أنا لست متزوجة.

أوضح جاك:

- سو أختي. ومنذ قرأتا سنوحي المصري أرادتا القدوم إلى هنا.

نادى منير النادل، فطلب جاك كوكاكولا. كانت الورقة التي تحمل نتائج اللعب ملقاة بإهمال على الطاولة مع أوراق اللعب، وفي أية لحظة قد ينظف النادل الطاولة ويرمي بها.

- ما الحقائق التي تتقصاها، يا سيدي؟

- نادِه جاك.

قالت لي كارولين.

فقلت:

- جاك.

- حسنًا، نحن مجموعة من الناس ننتقل من بلد إلى آخر، نعيش كما يعيش أهل البلد، نشاركهم حياتهم اليومية، لنعلم رأيهم في الولايات

المتحدة، وكيف نستطيع تعميق وتقوية صداقتنا مع هذه الشعوب.

سحب كرسيًّا وجلس عليه، واضعًا ذراعه على ظهر كرسيّ ووجهه قريب من وجهي، مؤكدًا على كل جملة من جمله القصيرة المرتبة. تذكرت أن أمريكيين من طائفة المورمون طرقا بابي في لندن ذات يوم محاولين إقناعي، بالعبارات القصيرة المرتبة نفسها، أن الرب عبارة عن ثلاثة كيانات منفصلة... أو العكس، لست أذكر تحديدًا.

قلت:

- هذا لطيف حقًّا. هل تكفُل الحكومة هذا المشروع؟

- بشكل غير مباشر، في الواقع. لكننا شكلنا اللجنة وموّلنا المشروع بأنفسنا.

- أتمنى أن تستمتع بإقامتك بيننا.

- لقد لقينا ترحيبًا وكرم ضيافة يفوقان كل توقعاتنا. سيسعد الناس في الولايات أن يعلموا أننا كسبنا الكثير من الصداقات في هذا البلد؛ مصر.

- أنا مسرور لسماع ذلك.

- لقد قابلنا الكثير من الناس اللطفاء.

لم أكن أرغب في البعد بالحديث عن الطاولة ومحتوياتها، فما زالت مسألة ورقة النتائج والمال الذي كسبته معلقة.

- هل تلعب البريدج، يا جاك؟

- نعم. هذا قاسم مشترك آخر بين شعبينا. لدينا العديد من الهوايات

المشتركة، فنحن نلعب ألعاب الورق نفسها ونتكلم اللغة نفسها.

- هل تلعبون الكروكيه في الولايات؟

- في الواقع، لا أستطيع أن أدعي أننا نلعب هذه اللعبة. لكنني لا أرى داعيًا ألا نفعل في المستقبل.

قلت:

- سيكون ذلك قاسمًا مشتركًا آخر.

- بالتأكيد.

طويت الورقة التي تحمل نتائج اللعب، ثم فضضتها، ثم طويتها مرة أخرى. عم الصمت القاعة لوهلة، ما يعني أننا قد نغادر بين لحظة والأخرى.

- ما مشكلة الرجل الذي ذكرته لتوك؟

- هذا الرجل أبراكادابرا.

اتسعت ابتسامته لهذه النكتة، ثم فجأة ارتسم الجد على وجهه وقال:

- لا تسئ الحكم عليَّ. إنه لخطأ لعين ألّا أستطيع أن أنطق اسم الرجل بشكل سليم، لكنني لم أقصد أن أتحدث عنه بقلة احترام.

- بالطبع لم تقصد ذلك.

- حسنًا، هذا الرجل مختص بالعلاقات العامة فيما يتصل برئيس مصر. وأنا أرغب في الحصول على صورة فوتوغرافية لي وأنا أصافح رئيسكم.

باستطاعتي أن أتخيل الصورة التي قد يضعها في كتاب يحتل مكانًا في العديد من المكتبات الأمريكية حول العالم وتحتها تعليق: المؤلف يصافح الرئيس.

قال منير:

- دعه لي.

قلت:

- دعه لمنير.

وسألته أين يقيمون، فقال مع موني.

- لا بُدَّ أن يكون ذلك مفيدًا جدًّا بالنسبة إلى تقصي الحقائق. أن تقيم مع عائلة مصرية.

- نعم، حقًّا. أكتب ملاحظاتي وأنا أقيم مع الناس الذين أتيت كي ألاحظهم.

- ممتاز.

ثم سألته كيف يجد مستوى الدخل مقارنة مع مستوى الدخل في الولايات المتحدة.

- في الواقع، هناك الكثير من المغالطات فيما يقال عن هذا البلد. الناس في بلادي سوف يندهشون حين يطَّلعون على ما جمعت من حقائق خلال إقامتي مع خالتك وابنها. سأعطيك مثالًا شخصيًّا على ما أقول.

كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما، فمه يلامس أذني طيلة الوقت،

وهو يطلعني على الحقائق التي جمعها أثناء إقامته لدى خالتي مشيرًا بإصبعه تأكيدًا على ما يقول.

- لدينا، في لوس أنجلوس حيث نعيش، خادمة وطاهٍ فقط. على زوجتي، كارولين، أن تقوم بالكثير من الأعمال المنزلية بنفسها. أما هنا، فالزوجة لا تقوم بأي عمل، بل لديها بستاني وسائق وطاهيان وخادم يقوم بالأعمال المنزلية الأخرى.

كان يلتفت إلى منير منتظرًا تأييده، فيومئ الآخر بحكمة موافقًا.

- أنت تقوم بعمل جيد، يا جاك.

قلت بلهجة أمريكية. ثم وقفت مغادرًا، أخبرتهم أنني سأسبح قليلًا وربما لا أراهم فيما بعد؛ لذا أرغب في تحصيل المال الذي كسبته الآن.

- لقد خسرتِ ستين جنيهًا، يا كارولين.

وضعت ورقة النتائج أمامها.

- جاك، هل لك أن تعطي رام ستين جنيهًا؟

- طبعًا. لكن كم يساوي هذا المبلغ بالدولار؟

أخرج منير قلمه المصنوع من الذهب، وأخذ يحسب كم يساوي ذلك بالدولار، ثم أخرج دفتر شيكاته المغلف بالجلد، وكتب شيكًا لسو. أعطاني جاك ورقة بمائتي دولار. كان ذلك المبلغ يزيد على قيمة الستين جنيهًا التي تدين لي بها زوجته، لكنه يساوي ما حسبه منير بقلمه الذهبي.

قلت محاولًا استقدام سو:

- هل يرغب أحدكم في السباحة؟

- نعم.

ردت كارولين، ثم قامت معي مودعة الآخرين.

سألتها:

- هل لديك مايوه؟

لم يكن لديها واحد، في حين ينتظرني مايوهي الذي احتفظ به في خزانة بالنادي. وقفنا لوهلة نشاهد السابحين والرواد الذين يتناولون طعام الغذاء والشراب حول الحوض.

- أف. أحس برغبة كبيرة في السباحة.

- لا تقلقي، سوف أحضر لك واحدًا.

طلبت منها أن تنظر حول الحوض وتدلني على فتاة تماثلها في القياس، فأشارت إلى فتاة تقرأ تحت مظلة.

قلت لها:

- سأعود بعد لحظة.

واتجهت ناحية الفتاة.

- لولا. اعملي معروفًا وأقرضيني مايوهك.

- رام. كنا نتحدث عنك بالأمس.

- لا يهمني. كما أنني أعرف ما كنتم تقولونه.

- ماذا؟

- إن واحدة منكن لن ترضى أن تتزوجني.

- حسنًا، أنت تعرف ذلك، يا رام. لكن واحدة قالت...

- نعم، نعم. فيكي دوس قالت إنها لا تمانع أن تتزوج رجلًا مفلسًا لأنها مثقفة. وهي مثقفة فقط لأنها عاشت لسنتين في الحي اللاتيني ومروج سانت جيرمان.

قالت بالفرنسية:

- أف، أنت غير عاطفي. على أية حال، مَن المرأة التي معك؟

- إنها أمريكية.

تفحصتها لولا.

- هل هذه أجمل مني؟

- لا يهم من الأجمل. هي على الأقل ليست عذراء لعينة مثلك.

هذا الأمر يقتلهن. الفتيات في النادي جميعهن منفتحات جدًّا، لكنهن جميعًا عذراوات، ويبقين كذلك حتى يتزوجن. وذلك يقتلهن. حتى فيكي دوس عذراء.

قالت ضاحكة:

- وقح. ها هو مفتاح دولابي. لكنها في الغالب ستكون سمينة جدًّا على مايوهي.

كنت على وشك مغادرتها عائدًا إلى كارولين حين قالت:

- لا أريد أية آثار منوية على مايوهي.

فأجبتها:

- أن تحبي وتبقى آثار منوية على ملابسك أفضل من ألا تحبي على الإطلاق.

- ربما. لكنني لا أريد أية آثار على ملابسي بدون أن أحب.

ضحكنا معًا، ثم عدت إلى كارولين.

بعد أن سبحنا قليلًا، تناولنا طعام الغذاء إلى جانب حوض السباحة. تناولنا البيرة المصرية مع شرائح اللحم، وكان حسن، الذي أقرضني الخمسة جنيهات، مَن قدم لنا الطعام. سألتني كارولين لماذا يبتسم بحبور هكذا، فأخبرتها عن الخمسة جنيهات.

- أفهم من ذلك أنك فقير؟

- نعم.

- جاك يمتلك مطعمين في لوس أنجلوس. كنت نادلة في أحدهما.

يبدو أنها أيضًا وجدته شيئًا لطيفًا أن تكون فقيرة في هذه اللحظة. وهكذا، فكرت، ها نحن قد تناولنا الويسكي وأمتعنا أنفسنا ساخرين ممّا حولنا. ها نحن نتناول الغداء إلى جانب حوض السباحة برفقة امرأة جميلة وبحوزتنا مائتا جنيهٍ. كما أن فيكي دوس لن تقول لا.

- أين ذهبت بأفكارك، يا رام؟

أفترض، مجرد افتراض، أنني لم أقابل إدنا يومًا، وأنني لم أسافر إلى أوربا، هل كان الزواج من فيكي دوس أو من لولا الظريفة والعيش في شقة

جميلة وامتلاك سيارة وقضاء معظم الأوقات بالنادي ولعب الكروكيه سيبدو فكرة سيئة؟ وحتى الآن، هل هذه بالفكرة السيئة؟ أليست هذه حياتي على أية حال؟ ألن يكون ذلك امتدادًا للحياة التي عشتها منذ مولدي؟ ووجدت نفسي، للمرة الأولى منذ عودتي إلى مصر، أفكر في ديدي نكلا.

سألت كارولين:

- أتتنهد؟

ناديت حسن.

- كأسين كبيرتين من الكونياك، من فضلك.

- لقد شربنا ما يكفي. أنت معتاد على الشراب كما أرى.

- لا.

- تبدو حزينًا.

نظرت إليها. كنا قد تغازلنا قليلًا في الماء: أمسكت يدها، فضغطت على يدي في المقابل. أخذت يدها بين يدي وقبلتها.

- أنت ظريف.

- شكرًا.

كان حسن قد استبدل إحدى ورقتي المائة دولار بالجنيهات، وأعطيته عشرين جنيهًا ليحتفظ بها لنفسه. اقترب منير منا بخطى غير ثابتة، وصاح بالعربية:

- سكتنا له دخل بحماره. زوجها ينتظرها بالداخل، وأنت تتناول الغداء معها هنا. سكتنا له دخل بحماره.

كانت طاولتنا تشرف مباشرة على حوض السباحة. وقد وقف منير أثناء صياحه ملاصقًا لحافة الحوض بحيث إن أقل دفعة قد تفقده توازنه فيقع في الماء، فأعطيته هذه الدفعة. سمعت ضجة سقوطه في الحوض، ورأيت ربطة عنقه تتبعه إلى الماء. نظرت حولي، ثم هربت. جبان. لن أكون أبدًا سفيرًا، ولا حتى في واحة.

وجدت سيارة أجرة خارج النادي مباشرة. سألت السائق كيف تسير الحياة معه، فقال إنه لا يشكو شيئًا. قلت له:

- أقصد بعد الثورة وكل ده.

- أقول لك. كانت الزباين قبل الثورة من المناطق الراقية بس، أما دلوقت فضباط الجيش كمان بيركبوا معانا. يعني دلوقت عندنا الناس الراقية والجيش كمان.

وكما أعلم فإن الجيش منتشر في كل مكان من القاهرة. لا، هو لا يشكو من شيء.

- جميل.

- أيوه، الأمور مش وحشة قوي. عمومًا الواحد يقبل اللي يعطيه له ربنا.

طبعًا. أما إذا لم يكن هناك رب، فلا أحد يأخذ شيئًا. هناك عدل في

الكون على أية حال. كنت ثملًا بعض الشيء.

- أنت كاثوليكي متدين.

- أنا؟ أنا مسلم، واسمي محمد على اسم الرسول.

- دا قصدي. أنت مسلم كاثوليكي متدين.

- الظاهر إنك شارب حاجة.

- أنا؟ أبدًا.

- صعب تلاقيه اليومين دول.

- صحيح.

- وغالي قوي.

- أيوه.

- لكن، لو عايز، أقصد لو نفسك فيه، ممكن يعني..

- لا.

- صنف كويس. تمام زي اللي كان قبل الثورة.

- لا.

لم أكن مهتمًّا. طالما دخنت الحشيش، لكنني لم أكن يومًا بمفردي. كما أنني لم أذهب يومًا بحثًا عنه. لكنه متاح إذا ما أراده أحد. مددت يدي إلى جيب سترتي كي أعطيه أجرته، فلامست يدي رزمة النقود التي نسيت وجودها. جعلني تذكر النقود أنشرح.

صعدت إلى نادي البلياردو وسألت فونت إذا كان يرغب في اللعب معي.

- لا، يجب أن أذهب للتسوق، راقب المكان حتى أعود.

هبطت إلى الطابق الأول، وسألت فارينيان إذا كان يرغب في لعب مباراة بلياردو معي.

- علام تراهن، الاحتراف؟

- جنيه للنقطة.

صاح:

- عظيم.

كنا على وشك مغادرة المحل، حين جاء دوروماين ركضًا من الغرفة الخلفية. تلى ذلك واحدة من المجادلات الأرمينية العاطفية التي أحب سماعها. في آخر الأمر اقترعا، واستقر الأمر على أن دوروماين سيلاعبني، فراهن هذا بجنيه على أنه سيكسب المباراة. اقترح فارينيان أن يعطي الرابح للخاسر الجنيه على سبيل التعويض. تبادلا الإهانات مازحين، وأتى فارينيان بحركات وأصوات بذيئة. أخيرًا، صعدت ودوروماين إلى النادي.

سأل دوروماين:

- البروفسور يشكل الوزارة؟

- ذهب للتسوق.

أجبته منسقًا الكرات فوق الطاولة.

خلع معطفه، وأدخل ربطة عنقه من بين أزرار قميصه، ثم أخذ يجرب بعض الضربات على طاولة أخرى.

- في أية جامعة تعلمت لعب البلياردو؟

- في تركيا.

هناك مجموعة من الأتراك الأعضاء في نادي البلياردو ممن اعتاد دوروماين وفارينيان تبادل المزاح الثقيل معهم. قال أحد الأتراك ذات مرة مخاطبًا دوروماين:

- الله، كنت لتصلح لصنع المقانق الشهية. لقد وصلني للتو بعضها من أنقرة، رائحتها تبدو تمامًا كرائحتك. أُخذ الدهن من الدوروماين الأم، وقامت جدتي بإذابتها.

رد دوروماين:

- لا، والدتي في البيت. كانت تعاني من الإمساك لمدة طويلة، حتى بنينا لها مسجدًا صغيرًا في الشقة، فقد كانت معتادة على فعل ذلك في تركيا.

انتبهت إلى دوروماين يقول لي:

- نقودك، يا صاحب السعادة.

أخرجت رزمة النقود ووضعتها على إفريز النافذة، ففعل مثلي. غطى طرف عصاه بالطباشير وتفحصه، رسم صليبًا على صدره متمتمًا شيئًا بلغته، ثم رسم علامة إكس على الطاولة ليجلب لي سوء الحظ.

قال:

- ابدأ أنت.

- لا. ابدأ أنت.

من المستحيل إحراز النقاط من الضربة الأولى؛ لأن الكرات تكون مازالت متجمعة في مكان واحد.

- قبطي.

قال باصقًا في منديله. وجلس مُبديًا عدم الاهتمام بالمباراة. فعلت مثله، فوضعت عصاي على الحامل ونظرت من النافذة. فجأة تظاهرت بأنني أرى فارينيان وأدعوه إلى الصعود لمشاركتي اللعب.

صرخ دوروماين بشيء لم أفهمه، واندفع ناحية النافذة قائلًا:

- نقترع.

- موافق.

فاز هو؛ وبدأت أنا اللعب، في منتصف المباراة عاد فونت.

سأل فونت:

- علام تراهن؟

- جنيه للنقطة.

نظر إلى عدد النقاط، كنت متفوقًا بفارق أربعين نقطة.

- هلا صنعت بعض الباس، يا فونت؟

- باس، باس. لم لا تسميانها بيرة كباقي الناس؟

سخر دوروماين الذي كان متضايقًا من خسارته.

أجبته:

- الباس هي بيرة المثقفين.

- عذرًا، عذرًا. أنا لم أقرأ كتابك الأخير.

قال منحنيًا حتى الأرض ثم توجه بالسؤال لفونت:

- هل سيُترجم إلى الأرمينية؟

قلت له:

- بالطبع أنت تعلمت حروف الهجاء.

- نعم. وأرجو ألا يغير البروفسور شيئًا منها في كتابه.

ضحكت، وجلس فونت على إفريز النافذة يراقب المباراة.

قال دوروماين لفونت:

- أنا أخسر أربعين جنيهًا؟ أود أن أكتب أطروحة تتناول عدم لعب البلياردو مع الأقباط الذين يدّعون الثمالة. زمزمادريان دوروماين، دكتور في البلياردو في خدمتك.

انحنى ثانية أمام فونت باسطًا يده خلفه، وهو يظن أنني لم ألحظه، وحرك الكرة السوداء إلى الأمام بما يعادل سبع نقاط، أي سبعة جنيهات. لكن، كان عليه أن يسقط كرة حمراء قبل أن يتمكن من إسقاط السوداء. كانت الكرة الحمراء قريبة بحيث يسهل إسقاطها، فأزحتها للخلف عندما أزاح دوروماين الكرة السوداء إلى الأمام.

غطى طرف عصاه بالطباشير قائلًا:

- والآن، مهرج البروفسور الخاص...

بتر كلامه حين لاحظ التغير في وضعية الكرة الحمراء. وقف ساكنًا لوهلة، ثم جلس على كرسي جلدي محدقًا فيَّ. أشار بإصبعه تجاهي قائلًا:

- لقد أبعدت الكرة الحمراء.

- نعم.

توجه إلى فونت:

- أنا لم أذهب إلى الجامعة، ولا شهادات لديَّ. ذهبت إلى مدرسة متواضعة، وأنا رجل فقير، لكنني لا أغش. لا. أبدًا.

هز رأسه مؤكدًا نفيه.

حدق فونت فيَّ:

- رام، هل غششت؟

- نعم.

كان فونت يجلس بجوار رزمتى النقود، فأخذهما وأعطاهما إلى دوروماين، وضعهما دوروماين في جيبه، ولبس سترته، بقيت جالسا. اتجه ناحية الباب ونظر إلى، لكنني لم أتحرك.

قال ضاحكًا:

- مصري قذر. كنت لأفعل ذلك أيام فاروق، لكنني الآن أخاف.

أعاد إليَّ نقودي، ودفع الأربعين جنيهًا التي يدين لي بها حتى الآن، ثم أعاد الكرة السوداء إلى مكانها الأصلي، فوضعت الكرة الحمراء في مكانها واستأنفنا المباراة التي انتهت بعد عشرين دقيقة. دفع لي ثلاثين جنيهًا

أخرى قبل أن يغادر لاعنًا حظي بلغته. أقفلت الباب خلفه.

- فونت، هل اعتقدت حقًّا أنني قد أغش؟

- نعم.

كنت قد تشاجرت مرارًا مع فونت منذ عودتي، وكان ذلك يعني انقطاعي عن الذهاب إلى نادي البلياردو لأسبوعين أو ثلاثة.

- أتدري؟ إن حالك كحال من يشتري مذياعًا معطوبًا؛ لأنه يهوى الصمت.

- ماذا تقصد؟

- فسر ذلك بنفسك.

- ماذا...؟

- أقصد ماذا تحسب نفسك فاعلًا؛ إذ تجعل من نفسك أضحوكة بالعمل هنا، بينما تصدر أحكامًا مترفعة على أخلاقي. لِمَ لا تستجمع نفسك؛ وتجد لنفسك وظيفة محترمة و..

- وماذا تفعل أنت عوضًا عن الكلام؟

- أنا لا أتحدث عن نفسي.

- ولمَ لا تجد أنت لنفسك وظيفة؟

- أنا لديَّ وظيفة.

- ماذا؟

- انسَ الأمر.

قلت متضايقًا لأنني بدأت بشجار جديد معه، وتظاهر هو بالانشغال في ترتيب كرات اللعب.

إذا نال وظيفة لا «يضعه» فيها أحد كخالتي فقد يحصل على عشرين جنيهًا، كما يحصل عليه الآن من جميل. لدينا عدد هائل من المهندسين والمحامين والكيميائيين والفيزيائيين العاطلين عن العمل، أو الذين يعملون في وظيفة ما لدى الحكومة مقابل عشرين جنيهًا، ويجلسون طوال النهار بلا عمل. تُقدم إليهم عروض هائلة من أمريكا الجنوبية والسودان وغانا وتركيا، بل حتى من ألمانيا، لكنهم لا يستطيعون الحصول على جوازات سفر، ولا يُسمح لهم بالسفر. لست أدري لماذا، ما داموا بدون عمل. لكن ذلك ليس سبب تعطل فونت، على أية حال.

- فونت، ماذا تريد بالضبط؟

- اخرس.

كما قلت سابقًا، هو لا يعرف ماذا يريد. ذهبت إلى خلف البار لأخلط بعض الباس. كان هذا المساء إجازة لفونت، فأخذ يغلق الأبواب كلها.

- خُذ.

أعطيته قدحه الممتلئ بخليط البيرة.

- فونت، هل تعرف مَن فعل تلك الفعلة الشنعاء بإدنا؟

هز رأسه نافيًا.

- يا الله، أرغب في قتله.

قال ساخرًا:

- أنت؟ أنت حتى بقيت في إنجلترا عندما كان الإنجليز يدكُّون بورسعيد.

- وكأن عودتك غيَّرتْ الكثير. لِمَ لا تسخر من يحيى كما تسخر مني؛ فهو لم يعد من باريس حيث كان يقضي عطلة أثناء الهجوم؟

- يحيى؟ وهل أنت مثل يحيى؟

- لا، أنا مثقف مثلك.

ثم تبدأ إحدى المهاترات التي تعبت منها وضقت بها، هذه الطبقات من الطين التي لا تساعد إلا في دفن فونت ورام القديمين في قبرينا المعلقين بين عصور من الحضارة.

- أنا لم أقل قط إنني مثقف.

- لا، لكنك تحسب نفسك واحدًا.

قلت مغيرًا الموضوع.

- دعنا نلعب البلياردو، يا فونت.

سأل فونت بعد قليل:

- ما هذه الوظيفة التي تكلمت عنها؟

أنتمي إلى منظمة سرية يرأسها الدكتور حمزة، والد جميل، الذي يجمع مستنداتٍ وصورًا تثبت ما يحدث بمعتقلاتنا السياسية من انتهاكات، في ملف ينوي تقديمه للأمم المتحدة. والدكتور حمزة، كما قلت سابقًا،

من ذلك الطراز فرنسي التعليم الذي يؤمن بحقوق الإنسان. الغريب في أمر تلك المعتقلات أن مُلَّاك الأراضي والرجعيين من المعتقلين، الذين يعارضون النظام القائم ويتمنون عودة النظام الملكي، يُعاملون معاملة أفضل وتصدر ضدهم أحكام مخففة. أما باقي المعتقلين من الشيوعيين وأنصار السلام مع إسرائيل، الذين يرون أنه لا يوجد مستقبل اقتصادي لمصر بدون ذلك السلام، فإنهم يُعَامَلُون معاملة قاسية ويعذَّبون بضراوة. المشكلة تكمن في أن الدكتور حمزة لم يقم بأية خطوة حتى الآن، ولم يقدم الملف الذي أعدَّه بالرغم من أنه أصبح يضم ما فيه الكفاية من المستندات لإدانة النظام الحاكم.

أما ما أقوم به فيقتصر على أن أذهب مرة في الأسبوع لمقابلة ضباط شرطة، يُفترض أنهم أصدقائي، يسلِّمونني مغلَّفًا يضم صورًا وتقارير يكتبها المعتقلون، مقابل مبلغ من المال. ولكن ينتابني إحساس رهيب بأن الصور ما كانت لتكون بهذه الدموية لو لم ندفع جيدًا في مقابلها.

ألحَّ فونت في السؤال:

- ما تلك الوظيفة؟

- لا شيء.

لم أرغب يومًا في حدوث شيء مأساوي في حياتي. لكن منذ.. حسنًا، منذ لندن وكل ذلك وأنا أتجِّه إلى الأشياء المأساوية وكأن إرادتي قد سُلبت. المضحك في الأمر أن ملايين الناس يواصلون حياتهم العادية، يشاهدون

التلفاز ويغنون ويترنمون على الرغم من أنهم فقدوا شقيقًا أو والدًا أو حبيبًا في حرب ما. الأغرب من ذلك، أنهم يتمالكون أنفسهم إذ يرون إخوانًا وأحبة لهم آخرين يذهبون في حرب أخرى، لكنهم لا يرون المأساة الكامنة في ذلك. بين حين وآخر، قد يقرأ أحدهم كتابًا، أو يشرع في التفكير، أو يهزه شيء ما، فيرى حينئذ فقط المأساة المحيطة به من كل اتجاه، أينما ينظر يجد معالم هذه المأساة، ويجد الأمر مأساويًا أن لا يرى الناس هذه المعالم كما يراها هو، فيصبح مثل فونت وإدنا، أو ينضم إلى حزب ما، أو يقضي حياته سائرًا خلف اللافتات، حتى تصير حياته في حد ذاتها مأساة صغيرة. كم أكره المآسي!

كررت قولي:

- لا شيء. فلنلعب مباراة بلياردو، يا فونت.

أحيانًا نتمتع أنا وفونت بلعب مباراة هادئة بدون مراهنة؛ نلعب كصديقين قد يمازحان بعضهما بشأن طريقة اللعب.

- هل لديك طعام في المطبخ، يا فونت؟

- نعم، اصنع بعض الباس حالما أحضّر شيئًا ما.

ذهب إلى المطبخ ورجع يحمل صينية عليها أطباق متعددة: بندق، وفول سوداني، وبصل مخلل، وجبن أبيض، وكرفس. حسّنتْ الباس مزاجنا.

- في صحتك، يا فونت.

- في صحتك، يا رام.

أضاء فونت المصباح فوق طاولة البلياردو، فطوينا أكمامنا، واخترنا عِصِيًّا للعب غطينا أطرافها بالطباشير، وغطينا أيدينا بالمسحوق. كان الظلام والبرودة يعمّان بقية الصالة حيث أغلق فونت النوافذ؛ ما أضفى على الطاولة الخضراء والكرات الملوّنة جوًّا مريحًا للأعصاب.

ضرب فونت مثلث الكرات، فتفرقت الكرات الحمراء.

- أنت لاعب ماهر. ياردة واحدة فقط إلى اليسار كانت ستمكِّنك من إسقاط بعض الكرات.

حاولت أن أسقط كرة حمراء سهلة نسبيًّا، لكني لم أفلح. قال فونت إنه سيصنع طاولة بلياردو ذات زوايا أوسع كي آخذ راحتي في التصويب. كنا منهمكين في اللعب حين سمعنا ضجة خارج النادي وقرعًا شديدًا على الباب.

- بوليس. افتح.

- كيرياليسون.

لا أعرف ما يعني ذلك القول تحديدًا، كذلك كان فونت. لكننا كثيرًا ما سمعنا كبار القساوسة يتغنون بذلك في الكنائس المصرية. كانوا يتغنون بما يشبه ذلك القول، فيرجّع قولهم أربعة صبية أرثوذكس دميمون. توصلت أنا وفونت إلى تصور مفاده أن الغناء بين مجموع القساوسة والصبية ما هو إلا مباراة تنس تجري أمام أعيننا، وأن هذا القول هو كرات التنس التي يتقاذفونها فيما بينهم. ذات مرة، أصاب فونت مغص من كتمه

الضحك على مشهد مماثل. كان القس يترنم بـ «كيريااليسون» والصبية الأربعة يتسابقون لردها إليه، يمكنك تصور ذلك، فتفلت منهم وتتخبط في أركان الكنيسة. كان هذا القس بالذات ماهرًا جدًّا في الاحتفاظ بالـ «الكيريااليسون» وبلبلة الصبية.

في إحدى المرات، حضر ليتحدث إلينا بعد القُدَّاس، فقال له فونت بالإنجليزية:

- مباراة جيدة، يا سيدي.

فكدت أموت من شدة الضحك.

لا أعرف لماذا قلت «كيريااليسون» حين سمعت «بوليس» على الباب. ربما لأن مشاعري الدينية لم تتجاوز الضحك على «كيريااليسون»، وربما لأن المرء يتطلع إلى الله حين يكون خائفًا.

أمسكت برأس فونت، وغطيت فمه بيدي. قلت هامسًا قبل أن أفلته:

- اسمع، أنت لا تعرف مكاني. امنحني المزيد من الوقت قبل أن تفتح الباب حتى أقفز من النافذة.

- افتح، يا فونت. افتح أيها الوغد وانظر ماذا أحضرنا.

ميَّزتُ صوتَيْ جميل وفوزي، فجلست أمسح العرق المتصبب من جبهتي، ثم ذهبت خلف البار وصببت لنفسي كأسًا كبيرة من الكونياك، في حين ذهب فونت ليفتح الباب. صاحا ثملين:

- أحضرنا لك هدية، يا فونت.

كان برفقتهم ثلاث مومسات يونانيات، إحداهن فتاة تدعي إيلينا وتعمل في بار فندق باريس. أمسكا بفونت ودارا به راقصين. كانت الفتيات ثملات كذلك. تمددت إحداهن فوق طاولة بلياردو ورفعت تنورتها لأعلى، وأخذت أخرى عصا بلياردو متظاهرة بأنها رجل فارغ الصبر. رآني جميل، فجرى نحوي:

- راموس، راموس.

أخذ زجاجة خمر من خلف البار وذهب بها إلى الفتيات.

جلست خلف البار، وصببت لنفسي كأسًا أخرى من الكونياك. كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أختبر فيها مثل ذلك الخوف، لا بل الرعب. كانت هذه التجربة بمثابة لطمة قوية على وجهي، كأنني كنت ثملًا طيلة حياتي، ثم أفقت فجأة.

- رام.

- ماذا؟

- ما بك؟

- لا شيء.

- إن يدك ترتجف.

- لقد قلبت الباس معدتي. أريد أن أتقيأ.

جلس فونت يحدِّق بي رافعًا حاجبيه حتى جبهته.

- لماذا أردت أن تهرب حين سمعت كلمة «بوليس»؟

- أهرب؟ كنت فقط أمزح متظاهرًا بأنهم حقًّا من الشرطة وأنهم جاءوا يسعون خلفي.

ظل يحدِّق بي. أحيانًا تثور مشاعرك فتجد نفسك فجأة غاضبًا أو عاطفيًّا أو حزينًا. أردت في هذه اللحظة أن أربت على ظهر فونت.

- لم لا تأخذ إحدى الفتيات إلى غرفتك، يا فونت؟

- رام، هل أنت متورط مع منظمة ما، أو في شيء خطر؟

- لا.

- رام، هل أنت عضو في الحزب الشيوعي؟

ضحكت.

- رام؟

- فونت، خذ إيلينا واذهب إلى المنزل.

أخرجت رزمة النقود وأعطيته بعضها.

- خذ إيلينا واذهب. خذ زجاجة خمر معك وتمتَّعْ بوقتك. أعرف أنك لم تحصل على امرأة منذ أشهر.

أراد أن يذهب، لكنه كان خجولًا. في انجلترا، كان فونت يشاطر المرأة أفكاره وجسده. أما هنا فذلك مستحيل. صببت له كأسًا من الكونياك. لا بُدَّ أن هذه الأوقات تذهب بعقل فونت، حين يتذكر بريندا دنجايت. كان الزواج يلوح في الأفق قبل أن تطيح حرب السويس بكل هذا.

بدأت أهدأ وأستعيد نفسي. كان جميل في المطبخ بصحبة إحدى الفتيات،

وفوزي نائمًا على أحد المقاعد، بينما جلست إيلينا والفتاة الأخرى تأكلان وتشربان من زجاجة الكونياك.

كنت أعرف إيلينا هذه عندما كانت طفلة؛ فهي ابنة إحدى الخياطات التي اعتادت أمي وخالاتي الذهاب إليهن. اعتادت أمي أن تصحبني معها حين كنت صغيرًا لمنازل هؤلاء النسوة اللاتي، على اختلاف أسمائهن وجنسياتهن، ماريا أو تالما أو جانو أو جورجيت، يونانيات أو أرمينيات أو مالطيات أو حتى فرنسيات، كان لديهن دائمًا حوالي أربعة أطفال، كائنات صغيرة شاحبة تلعب على الأرض.

كانت الخياطات تقمن بعمل جانبي كصناعة «الحلاوة». كما أنهن يعرفن طرقًا تتبعها المرأة كي تنجب صبيًا لا فتاة، أو العكس، أو كي تتجنب الإنجاب على الإطلاق. كان كل شيء متشابهًا في بيوت هؤلاء الخيَّاطات: ماكينة الحياكة البالية والدبابيس وقطع القماش والخيوط في كل مكان، بالإضافة إلى مغناطيس كبير على شكل حدوة فرس. وبينما كانت أمي تجرب الأثواب، أو تصرخ وتتلوى ألمًا بفعل «الحلاوة»، كنت أنا أتلهَّى بجذب الأشياء بالمغناطيس.

سألت إيلينا ذات مرة بينما كنت أحاول جذب المقص بالمغناطيس:

- أين أبوك؟

- أي واحد فيهم؟

- قصدك ايه أي واحد؟ أبوك.

- أنا عندي كتير.

- يا سلام؟

أجبتها مندهشًا، لكنني تمكنت أخيرًا من جذب المقص.

مرة أخرى، ذهبت لأخذ ثوب أمي الذي كانت تحيكه أمها كميل، أتذكر اسمها، فسألتني:

- عندك كم أب؟

- ولا واحد، لكن عندي أربع أمهات.

- مش ممكن!

- أنا عندي أربع أمهات. عايزة تطلعي إيه لما تكبري؟

- خياطة. وأنت؟

- مش عارف. ممكن فارس.

قررت أنني أريد أن أصبح فارسًا، فركبت ذراع الأريكة وأخذت أسوطه.

- تعال، هوريك حاجة.

تبعتها خلف الستارة، فخلعت سروالها ورفعت تنورتها. نظرت إليها ولمستها بالمغناطيس، ثم ذهبت إلى بيتي.

نظرت إلى إيلينا تعبّ الكونياك من الزجاجة. لم ترني حتى الآن. وحين تفعل، ستنكس رأسها خجلًا، وتصافحني قائلة:

- مسيو رام.

كان فونت يختلس النظر إلى إيلينا عبر المرآة. هناك شيء في الظهيرة

المصرية الدافئة يُعتبر نوعًا من العذاب بالنسبة إلى الشبان. سبق واختبرت ذلك التوق أنا أيضًا. بعد المدرسة، بعد تناول طعام الغذاء حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، وعندما تكون أمي مستلقية في غرفتها والشقة معتمة بعض الشيء، تطن هذه الحرارة في آذاننا، فنستلقي أنا وفونت، كل في سريره، نتلظى. نتقلب فوق الملاءات البيضاء الدافئة نحاول أن نجد بقعة رطبة من السرير نمدد فوقها أجسادنا المتململة المحمومة. نكون قد أرضينا بطوننا، ونشتهي بشدة أن نرضي حواسنا الأخرى بمشاركة امرأة هذا الدفء. أما إذا كنا محظوظين، فيغلبنا النعاس.

- كم من المال لديك، يا فونت؟

- خمسة عشر قرشًا.

كنا نجمع ما معنا، وغالبًا ما نقترض بعض المال من كرولوس، الذي يعلم بالضبط سبب حاجتنا إلى المال، مقابل فائدة خيالية، ثم نتسلل من أمام غرفة نوم والدتي التي تتلظى هي الأخرى، المسكينة أرملة في الثلاثين من عمرها. أحيانًا كانت حركتنا توقظها وهو فعل فظيع ترتكبه بحق أحدهم في الظهيرة المصرية.

- أنت عديم الإحساس.

- لماذا؟ ماذا فعلت؟

- أنت أناني.

- لماذا؟

- لا أستطيع أن أعود إلى النوم.

- لم أكن أعلم أنك نائمة.

- ماذا تريد على أية حال؟

- لا شيء.

لكنني أكون قد استللت مفاتيح السيارة، فلم أكن قد بلغت السن المناسبة للقيادة بعد، ثم نخرج أنا وفونت.

- سأقود.

- لا، بل سأقود أنا.

- لا، أنا من سيقود.

- حسنًا، قُد أنت.

بعد أن نقرر بشأن ذلك ونقلع، يتسلل إلينا ذلك التوتر، والانقباض في المعدة الذي يشبه ما نختبره عند الدخول إلى قاعة الامتحانات، ثم نبدأ بحثًا قد يستغرق ساعات.

- هذه هي.

- لا، هذه لن ترضى.

- لا، هذه واحدة غيرها.

- حسنًا.

لكن قبل أن نكف عن الجدال ونتجه نحوها، تأتي سيارة أخرى وتأخذها، فنشرع في البحث عن أخرى في الشوارع الضيقة والأزقة حيث

يفترض وجودهن. لكن الوقت يكون مبكرًا، بالرغم من أنه في هذا الوقت بالذات تعظم حاجتنا إلى ذلك. أما إذا وجدنا إحداهن، فتطلب عشرة قروش، فنوافق، فتسأل أين، فنقول في السيارة. نقود السيارة بجنون إلى الصحراء حيث الجو حار دبق. يترك أحدنا السيارة لمدة عشر دقائق، ثم يعود ويغادر الآخر، فالأمر لا يطول أكثر. ثم نعود إلى المنزل خائبي الأمل محبطين. الأمر ليس رومانسيا كما في أحلامنا. حين كبرنا أكثر، كنا نذهب برفقة نساء متزوجات من النادي، لكن فونت لم يعد يذهب إلى النادي.

كنت قد تمالكت نفسي تمامًا بعد حالة الذعر التي انتابتني حين سمعت كلمة «بوليس». أردت أن أذهب إلى المنزل لأستحم وأبدل ثيابي، لكنني كنت أرجئ لقاء أمي.

رنَّ الهاتف، فذهب فونت ليجيب.

أردت أن أنفرد بنفسي حتى أستطيع أن أفكر. فكرت في إدنا، وامتدت يدي إلى زجاجة الكونياك لكنني منعت نفسي.

- المخابرة من أمك. تقول إنه يجب عليك أن تذهب إلى المنزل حالًا، فخالتك هناك وخالك أميس سيصل من الصعيد في أية لحظة.

- بحق المسيح. لقد دفعت منير إلى حوض السباحة بالأمس، ويبدو أن الأمر لن ينتهي أبدًا.

تركت رزمة النقود لفونت فوق الطاولة، واستقللت سيارة أجرة إلى المنزل.

الجزء الرابع

كانت خالتي تقول:

- هذا الولد يجب أن يتزوج. يكفي ما فعله حتى الآن.

فقالت أمي:

- لقد فعلت ما في وسعي. لقد ضحيت...

- بنفسي من أجله.

أكملت لها الجملة. فقال لي خالي الباشا:

- لا، لا، لا. شوية احترام، شوية احترام.

جلس ثلاثتهم يناقشونني. قذف منير في حوض السباحة موضوع لن ينتهي، على ما يبدو. الباشا، وهو واحد من أقاربنا الذكور القليلين الذين مازالوا على قيد الحياة، يعيش في الصعيد حيث يرعى الأرض. بما أن كل خالاتي فقدن أزواجهن، وكل الأبناء فقدوا آباءهم؛ فقد باع الباشا أصول الأملاك واشترى أرضا حيث يسكن. والباشا هو الشخص الوحيد في العائلة غير «المتفرنج». كنت لأحبه كثيراً؛ لو لم يُكِنَّ هذا الاحترام المستفز لأعضاء العائلة «المتعلمين».

في الواقع، كان لدينا أربعة باشوات في العائلة، لكنهم ماتوا جميعًا مبكرًا؛ لذا، قررت خالاتي المبجلات شراء لقب لهذا الخال. تطلَّب شراء هذا اللقب خمسة وثلاثين ألف جنيه: تم شراء قطعة أرض رخيصة وتحويلها إلى متنزه، وأُعلن أن خالي يهب هذا المتنزه للصالح العام. دُعي بعض

الوزراء إلى احتفال أقيم بهذه المناسبة، وقامت خالاتي ومعارفهن من ذوي النفوذ على ضيافتهم. في الواقع، كلّف شراء قطعة الأرض العائلة ألف جنيه. أما الأربعة وثلاثون ألفًا الباقية فـ... حسنًا، فقط تكلف الأمر أربعة وثلاثين ألف جنيهًا أخرى. بعد ذلك بيومين، منح فاروق خالي الأميّ رتبة الباشاوية. بعد ذلك بثلاث سنوات، قامت الثورة وأُلغيت الألقاب، لكن كل من مُنحوا الباشاوية، ما زالوا يُلقَّبون بالباشا.

حسنًا، لقد استدعوا الباشا من الصعيد. ليس لأنني قذفت بمنير إلى بركة السباحة؛ ولكن لأن المذكور منير يرغب في شراء فيلا بمصر الجديدة وهم يتساءلون إذا كان بالإمكان عَصْر الفلاحين لاستخراج ثلاثين ألف جنيه دون الحاجة إلى بيع شيء من الأرض.

نظرت إلى خالي غامزًا، فهز رأسه بشدة. ثم ابتدأ الأمر من جديد.

- كانت مجرد حادثة.

- بكل تأكيد لا؛ أنت فعلتها عن عمد.

أخرجت أمي منديلًا من حقيبتها؛ حين تدافعت الدموع على وجنتيها، ثم نظرت فجأة حولها، وفتحت المنديل كأنما لتؤكد لنا ألا شيء بداخله، ثم تمخطت.

ضحكت بصوت عالٍ. لأمي سمعة سيئة في ادِّعاء البكاء؛ فقد كانت تضع قطعة بصل في منديلها، لكنني كشفت أمرها ذات مرة حين فاحت الرائحة بشدة.

صاحت خالتي:

- لماذا تضحك؟

- صدقًا، صدقًا، كنت أحاول أن أقوم من الكرسي، فاصطدمت بمنير.

- كذاب. لو كان كلامك حقيقي؛ لِمَ هربت؟

- شرحت ذلك ألف مرة.

كان دفاعي أن منير معروف جدًّا في النادي، بخلافي، فخشيت أن يرميني الخدم خارج النادي. سرّها هذا المبرر، لكنها استمرت تلوِّح بتهديدها بأخذ أمي للعيش معها وبيع هذه الشقة.

- ادِّيه فرصة ثانية.

- يا باشا، ده غير طبيعي.

أحيانًا يكون عرق الفكاهة عندي نافرًا، بحيث أنَّ النسيم قد يجعلني أنفجر ضاحكًا. ضحكت ثانيًا. كانت كلمة باشا هذه ما يضحكني: فخالي اسمه أميس، وكُنَّ يدعونه أميس حتى ألغيت الألقاب. ثم فجأة، ولأجل قيمة الخمسة وثلاثين ألف جنيهٍ، بدأن ينادينه «باشا». لم أتمالك نفسي من الضحك.

صاحت خالتي بالفرنسية:

- انظر الآن...

- آ..آسف. أنا فقط متعب. يبدو أني مصاب بالحمى.

قفزت أمي من مقعدها من فورها مشرعة يدها باتجاه جبهتي.

صرخت أمي بالفرنسية كذلك:

- جبهته تحترق، أخشى أن يكون التيفود.

للتيفود عندنا مكانة خاصة، فهو يُستخدم كمنزل المقامر الذي يحتفظ به ولا يقامر عليه حتى يخسر كل شيء آخر. قد يندهش المتخصصون في الطب لمعرفة أن بعض الأشخاص في عائلاتنا قد تكررت إصابتهم بالتيفود. نحن نحب هذا المرض، لكننا لا نحب أن نموت من جرائه كما حدث للكثيرين منا قبل اكتشاف العلاج الذي كان بمثابة رحمة من الله. يمكننا الآن أن نمرض لا أن نموت. يتبع المرض الكثير من الطقوس التي تصاحب المريض حتى الشفاء. كما قلت، فإن الكثيرين منّا قد مات من جرّاء هذا المرض؛ لذلك لم يفقد تأثيره في إدرار العطف والمال، حتى مع وجود الدواء المعالج له.

قالت خالتي:

- حقًّا؟ لقد أصيب به مرتين سابقًا.

فردّت أمي:

- وليكن. زيزا أصيبت به مرتين، ثم ماتت به في المرة الثالثة.

لم أرغب بصورة خاصة في التيفود الآن. في المرة السابقة، عندما أُصبتُ به، كان فونت لا زال يسكن معنا، فأقنعته بأن يتمارض لأننا لم نكن مهيَّئين لخوض الامتحانات. أقرّ قريبي؛ أستاذ الجامعة، بأننا غير قادرين على المذاكرة، وألمح إلى الأسئلة بأن أعطانا أوراق الامتحانات قبل أسبوعين من

الوقت الذي كان من المفترض أن نراها فيه. قالت أمي من بين دموعها:

- ربما لا يعيشان حتى يريا النتيجة.

لا، لم أكن أرغب بالتيفود الآن. كنت أفكر بذلك، حين سمعت كلمة الجيش.

الجيش؛ جيشنا الذي يستقل التاكسي. من المدهش أن عائلتي تصالحت مع الجيش أثناء سفري. في الواقع، هي لم تتصالح معه فحسب؛ لكنها انخرطت فيه أيضًا. أقارب وإخوة اختُطِفوا من الجامعات وزرعوا في الجيش. وعلى الرغم من أن القول الشائع: «ألا تعلم مع مَن تتكلم؟ أنا فلان باشا، أو ابن فلان باشا» لم يختف تمامًا؛ فإن عبارة «ألا تعلم مع مَن تتكلم؟ أنا البكباشي فلان، أو ابن البكباشي فلان» أصبحت شائعة الآن أيضًا. كانوا يريدون مني أن ألتحق بالجيش.

قالت خالتي:

- أحسن الناس في الجيش الآن. لم يعد الجيش كما كان في السابق. ثم هل أنت أفضل من صفوت ابن بولس باشا؟

أجبتها:

- لا.

- أو من آمون وأخيه يسّي؟

- أنا أسوأ منهما بكثير.

- أو من ابن فوفو؟

- لا.

- أو..

قاطعتها أمي:

- لقد قررنا أنك ستتزوج وتلتحق بالجيش.

أجبتها:

- نعم.

- على كل حال، لقد ضَـ ...

- ... حَّيْتِ بحياتك من أجلي.

أردف خالي الباشا:

- بنت كويسة من عائلة محترمة.

قلت:

- نعم. مع ميراث من الأرض.

- نعم.

- وبعض المال في البنك.

- ما يضرش.

أضفت:

- ويفضل أن يكون لها أقارب في الجيش.

يبدو أن ذلك قد ضايقه بشكل ما. من الواضح أن الفلاح لم يخش كلمة باشا كما يخشى الآن كلمة عسكري.

سألتني خالتي:

- انتهيت؟

فأجبتها:

- نعم.

- لأنك إذا لم تتوقف عن الكلام، فسوف أغلق لك فمك هذا للأبد.

خرست.

قلت لخالي:

- أم كلثوم تغني الليلة.

- هذا فقط ما يفلح فيه. أي شيء يزعجنا به.

من تركيا إلى المغرب، تتمتع أم كلثوم بشعبية لا يحظى بها أي إنسان آخر، فهي تمتلك صوتًا يأسر القلب بجماله وبساطته. تحظى بحب جميع الفئات، وتاريخها حتى الآن، وهي في الأربعينات من عمرها، لا تشوبه أية شائبة.

سأل خالي الذي بدأ يتململ:

- بتغني؟ بتغني إيه؟

صاحت بي خالتي مرة أخرى. لكني أجبته:

- غني لي شوية شوية.

تستمر أغنيات أم كلثوم لساعات، رواد المدارس الفرنسية والنادي يترفعون عن الإعجاب بغنائها، لكن لأن مزاجهم الموسيقي شرقي على أية

حال؛ فهم يستمعون إلى مدام إميليا رودريجز البرتغالية التي قلّما يشبه صوتها صوت أم كلثوم.

قال خالي متنهدًا:

- أحسن أغنياتها.

علقت خالتي:

- هذا لا يطاق. شيء يفوق الحد.

فسألتها:

- ماذا فعلت؟

ردت صارخة:

- تريدنا أن نجلس ساعات نسمع هذا العويل؟

- لم أعرف أنك لا تحبينها.

قالت وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

- شغِّلْ الراديو بصوت منخفض ولا تقل أية كلمة أخرى.

أدرت الراديو، ثم عدت إلى مقعدي وعقدت ذراعيّ. تظاهرت بعدم ملاحظة خالي الذي بدا عليه البؤس وقد قرّب كرسيه من الراديو وألصق أذنه إلى السماعة.

صرخت خالتي:

- ارفع صوت الراديو، باسم الرب.

رفعت الصوت حتى أصبح مسموعًا ومن ثم عدت إلى كرسيّ.

كان كورلوس، الخادم، يقف في الممر يستمع. كان يبدو أشد بؤسًا حين تزورنا خالتي، فقالت له:

- هات كرسيًّا من المطبخ وأقعد.

نظر إليها بامتنان لا يوصف وتمكن من أن يجعل عينيه تدمعان، ثم عاد إلى المطبخ.

علَّقت خالتي:

- شخص بائس.

- لا أعلم كيف سأستطيع أن أدفع أجره.

زمجرت خالتي.

- أنا لم أشتر فستانًا جديدًا منذ سنوات.

واصلت أمي التي كانت قد اشترت ثوبين جديدين منذ يومين فقط.

- السيارة في البداية، ثم الخدم. الرب يعلم ماذا يأتي بعد ذلك.

- نعم، هذا فظيع.

قالت وهي تُخرج منديلها مرة أخرى:

- كل هذا بسببك.

فقال خالي:

- أنت ولد زين، يا رام. ماتخلِّيش أمك تبكي.

- أنا آسف. تريد سيجارة، يا خالي أميس.

- نعم، أجرب واحدة من معاك.

أخذت علبة سجائري وذهبت إليه. أشرت إلى سيجارة معينة وهمست له أن عليه أن يدخنها في الحمام. أومأ بلهفة ثم غادر الغرفة. رجع بعد دقيقتين تبدو عليه خيبة الأمل؛ ضحكت بصوت مسموع، فقالت خالتي

- أنت مجنون.

- أنا آسف، لن أنطق.

ظنّ خالي أن السيجارة محشوّة حشيشًا.

عاد كرولوس يقف في الممر على مرأى من خالتي وهو يظن أنني لا أراه.

- الشحاذ البائس، هات كرسيًّا من المطبخ يا كرولوس واقعد لحد ما تخلص الأغنية.

هز رأسه وعاد إلى المطبخ، فتبعته، نادت أمي في إثري:

- اتركه لحاله.

أقفلت باب المطبخ خلفي، واستندت إلى موقد الغاز أنظر إلى كرولوس.

- فين الراديو اللي ادّيته لك؟

هز رأسه.

- هاقتلك والله. قلت هو فين؟

- مش عارف أشغله.

- كنت بتشغله لمدة سنة.

- أنا خايف أكسره.

- حطه على الترابيزة وشغله.

أحضره من خزانة بالمطبخ، ووضعه فوق الطاولة. أداره دون أن يوصله بالكهرباء هازًّا رأسه بين الفينة والأخرى. كان يمسكه بحرص كأنه يمسك بشمعدان مصنوع من الكريستال.

علقت:

- ما بينطقش.

مال برأسه على السماعات محاولًا التقاط أي صوت.

- كسرته! هاخصم اثنين جنيه من مرتبك.

استدرت متظاهرًا بمغادرة المطبخ.

- يمكن نسيت أحط الفيشة.

- يمكن.

أوصل الراديو بالكهرباء. سألته:

- إيه التمثيليات اللي بتعملها كل مرة خالتي تكون هنا؟

- تمثيليات إيه؟

- مش عارف؟ هي عمرها ادتلك تعريفة؟ يا ابو عين فارغة.

هو لا يسعى وراء النقود. لقد تمكن في الواقع من أن يجعل عينيه تدمعان، وأخذت الدموع تنهمر بغزارة على وجنتيه. لم يكن يحمل منديلًا، فأخذ يمسح وجهه وأنفه بطرف ثوبه.

تركته وعدت إلى غرفة الجلوس.

كان خالي يقول:

- أنا بأعمل اللي في وسعي، لكنهم ما بيدفعوش حاجة.

سألت خالتي:

- لحد إمتى يمكننا التحمل؟

أجابها خالي:

- همه ما يبدفعوش لأن ما معهمش.

فصاحت:

- ما معهمش؟ نترك الأرض من غير زراعة أفضل من تركهم يسرقوننا بهذا الشكل.

يترك ملّاكُ الأراضي المصريون - عادة- الأرضَ لمستأجرين يزرعونها، حتى لا يكلفوا أنفسهم عناء زراعتها بأنفسهم.

قال خالي:

- مش ممكن نعمل كده؛ سمعتنا تسوء في الناحية.

قالت خالتي ساخرة:

- سمعتنا تسوء؟

- الدنيا غلا.

- المشكلة إنك طيب معهم زيادة عن اللازم؛ عصِّيتهم علينا.

- الزمن اتغير.

- لازم تشوف حل؛ منير هيتجوز قريب.

- يبقي نبيع.

صاحت خالتي:

- نبيع، نبيع، نبيع. إذا كان معاهم مال يشتروا يبقى معهم مال يأجروا.

- مش هما اللي بيشتروا، يا أختي، أقول لك: بيعي بيت من اللي في مصر.

- أنت مجنون؟ أهو ده اللي ناقص، نجوع هنا وفلوسنا عند الفلاحين.

شخص طيب وحنون خالي أميس. وهو، كأي حيوان آخر، يتخم نفسه بتناول ما في متناول يده بدون أن يفكر في أي شيء محدد. حتى الفلاحون يحبُّونه لأنه يجلس معهم ويتبادل النكات، وكثيرًا ما يبكي لمصائبهم، تمامًا مثلهم، بدون أن يبحث عن سبب هذه المصائب. فقط يتنهد قائلًا:

- دنيا

فيتنهدوا مرددين وراءه:

- دنيا

سألت:

- من يجوع؟

- ماذا؟

صرخت خالتي.

- فيفي،...

استدارت تخاطب أمي:

- أنا لا أطيق رؤية ابنك. سأصاب بانهيار عصبي.

قالت أمي باكية:

- لا أعرف ماذا أفعل معه.

- لكني أعرف، ستأتين للعيش معي وتبيعين هذه الشقة. وسنرى ماذا سيفعل.

شرعت أمي في البكاء الآن بصدق. وأمرني خالي:

- اعتذر لخالتك، يا رام. اعتذر.

- أنا آسف.

استطرد خالي:

- قبِّلْ يد خالتك.

صاحت خالتي بالفرنسية:

- لا أريد.

تظاهرت بأنني أتجه نحوها؛ لأقبِّل يدها، حين دق جرس الباب. كانت ماري التي اتجهت مباشرة ناحية خالي محيية. قالت بالعربية:

- أهلًا، يا باشا، أسأل عنك باستمرار. شايفاك بخير.

ثم توجَّهت إلى خالتي قائلة بالفرنسية:

- يبدو مريضًا، المسكين.

عادة، يشعر خالي بالحرج حين يغدق عليه المجتمع بعضًا من سحره، فيهمس بالعربية عبارات مهذبة، يبتسم بتوتر، ولا يعرف ماذا يفعل بيديه.

- فيفي.

استدارت ماري إلى أمي، لاحظت أنها تبكي فغيرت نبرة صوتها.

- مسكينة فيفي. يا عزيزتي، دائمًا هناك مشاكل.

ربتت على كتف أمي، وقبلت وجنتي خالتي، ثم خلعت قفازيها وجلست. بادرتها:

- مساء الخير.

- لم أقل لك بونجور؟

- لا.

- يا له من مساء. أنا لا أفكر بوضوح.

- احكِ لنا ما حدث.

قلت لها مشجعًا إياها على الكلام. لست أدري سببًا لذلك، لكني أشعر أن ماري تخشاني.

ماري واحدة من هؤلاء الكاثوليكيين المخلصين الذين ينادون الجميع بابن العم أو ابنة العم الصغيرة أو بالعم والعمة، وأحيانًا تشبّ، مرتدية أحذية مفلطحة ذات طابع رجالي؛ لتقبيل هؤلاء الأعمام والعمات. بلغت ماري الأربعين بدون أن تتزوج. فجأة، أخذتها خالتي تحت جناحها، وأمرتها أن تتوقف عن مناداتها بالعمة وأن توقف لعب الأطفال هذا.

نظرت ماري إلى خالتي، فأشارت لها الأخرى بأن «لا تهتمي به». قال خالي مخاطبًا ماري:

- لعلك بخير، يا ست ماري.

قالت ماري بالفرنسية:

- كم هو لطيف.

ثم خاطبته بالعربية:

- شكرًا، يا باشا. احنا بنعيش يوم بيوم، ما نعرفش إيه يجي بكره.

غمغم بكلمات تعزية مناسبة؛ فقالت ماري لخالتي:

- أتساءل كيف يستطيع العيش في القرية كل هذا الوقت.

- نشكر الرب لأنه بقي فلاحًا. أتتخيلينني أتعامل مع هؤلاء الناس هناك؟

- لازم تزور القاهرة أكثر.

قالت ماري لخالي رافعة صوتها، كعادة من يتكلم مع من يظن أنهم لا يفهمون اللغة.

شكرها بحرارة.

تركتُهم، وذهبتُ إلى فراشي. تمددت على الفراش مشبّكًا يديّ تحت رأسي. لقد وصلت مرة أخرى إلى طريق مسدودة، ولم أدرِ ماذا أفعل بنفسي. رؤية إدنا مجددًا بعد كل هذا الوقت، والندبة على وجهها. تنهدت. حبي لإدنا كان دائمًا مختلطًا بالسياسة. دائمًا، ومنذ اللحظة التي التقيتها فيها بفيلا خالتي، والسياسة تلعب دورًا ما في علاقتنا. مثل الأدب. ضحكت.

بعد حوالي ساعتين، غادرت خالتي، فحضر الباشا إلى غرفتي. تظاهرت بالنوم.

- قوم، يا شقي. أنا عارف إنك صاحي.

غططت.

- شوف معاي إيه.

لم أتحرك. سمعته يحرك أوراقًا في جيبه.

- إحم، هل تريد أن ترى...

قفزت واختطفت المظروف من يده.

- لا، لا. رام، رام. خليك عادل.

- وأنت يا حلوف، روح اقضي ليلة هادية مع اخواتك.

- لا، لا، لا، يا رام. الأول ادِّيني الظرف.

حاول أن يخطف مني المظروف، فأخفق وجلس يلهث. جلست على الفراش، وفتحت المظروف. عددت محتوياته، فوجدتها خمس عشرة ورقة بنكنوت من فئة المائة جنيهٍ.

قلت له:

- أنا ما بكلمكش.

- أنا عملت إيه؟

- تنحاز للأعداء.

- لا، لا، لا. ده بس علشان الشكليات. أنت فاكر إني بأفهم كلمة من الإفرنجي اللي بيقولوه؟ بس ادِّيني الفلوس الأول.

- على أي حال، أنا مش هاخرجك الليلة.

- كده برده تعامل خالك أميس؟ خالك أميس المسكين اللي بقاله سنة ما نزلش مصر. خالك أميس اللي دفع الربعميت جنيه اللي خسرتهم في القمار؟

- إيه؟

- أقسم بالعدرا، شوف.

أخرج إيصالًا من حافظة نقوده وأعطاني إياه منتزعًا المال من يدي.

منذ ستة أشهر خسرت أربعمائة جنيه في لعب البكاراه، ووقعت على إيصال أمانة.

- أنت ملك. أنا هخليك تقضي وقتًا رائعًا الليلة. ما تقلقش، يا خالي الفلاح الجميل، يا رحيق الآلهة. لو بس تعامل الفلاحين أحسن شوية...

- لا، لا، لا. رام، ما تبتديش في الكلام الفارغ إياه.

- طيب.

- قوم دلوقت على التليفون.

قال وهو يشدني من الفراش.

- الأول، قول لي عاوز إيه بالظبط؟

- الأول نلعب البوكر لحد الليل ما يدخل، وبعدين نروح المكان اللي فيه الرقّاصة أم شعر أحمر. وبعدين...

ذهبت إلى التليفون.

- جميل، خالي أميس هنا.

علّقت أمي ونحن نغادر المنزل:

- يا للعجب.

كانت حالتي رهيبة، في الصباح التالي، عندما استيقظت في غرفة الجلوس؛ فخالي يشغل غرفتي. دخَّنَّا الحشيش في الليلة السابقة، وكانت ذكرى مجوننا الفجِّ في نادي البلياردو، حيث صحبنا إليه الراقصة ذات الشعر الأحمر وثلاثة من فرقتها وعازف الناي، ما زالت تشعرني بالغثيان. أنفق خالي ستمائة جنيه. كان عمر ويحيى هناك، بالإضافة إلى إيلينا والمومسين الأخريين. أخذت أتأوه رغمًا عني. كان فونت قد انخرط فجأة في البكاء وسط هذا الجنون، فصاحبته إيلينا في البكاء. انهار خالي حوالي الساعة الثالثة صباحًا، فحملناه نحن السبعة إلى الفراش بعد أن كاد جميل يصطدم بأحد أعمدة الإضاءة أثناء توصيلنا بسيارته إلى المنزل.

فتحت عينيّ، فوجدت أمي ترتق جواربي. كانت ترتدي نظارات حين تقوم بعمل كهذا. حين ترتدي النظارات، يتبدل شكلها تمامًا. كأن مظهرها الذكي المثابر يجعلها أكثر هدوءًا وتفكيرًا.

سألتني بالفرنسية:

- متعب؟

- صداع. كانت ليلة فظيعة، وأخوك شديد الفجاجة.

- ماذا تتوقع ممن يبقى أعزب حتى هذه السن؟ ثم يحضر إلى القاهرة مرة واحدة في السنة. بالإضافة إلى كونه لم يتلق التعليم الذي تلقيناه.

- لا.

تنهدت.

- تناول فنجانًا من القهوة. يوجد كرواسون ساخن أيضًا.

صبت لي بعض القهوة، وأحضرت لي بعض الكرواسون. نادرًا ما نتشارك هذه اللحظات الحميمة التي تجمع ابنًا وأمه، وعادة تكون مثل هذه اللحظات في الصباح الباكر حين أستيقظ من النوم.

- لا تدخن الآن، كُل شيئًا أولًا.

- وهو كذلك.

استمرت في رتق الجوارب.

- دكتور حمزة اتصل مرتين اليوم.

- نعم.

- هذا الرجل أرستقراطي بحق. كما أن ابنة أخته، ديدي نكلا، فتاة رائعة. سيكون منير سعيدًا معها، وهي ستكون محظوظة بالزواج منه.

- وهل سيتزوجان؟

أدهشني ذلك، فمنير ليس من طراز ديدي.

- نعم، خالتك ترتب الأمور. سيشكلان ثنائيًّا رائعًا.

- نعم.

- هي عاشت في إنجلترا، أليس كذلك؟

- لفترة.

- هل رأيتها هناك؟

- لقد عاشت معنا.

- مستحيل. أنت لم تخبرني من قبل.

- لا.

- هل عاشت معك وفونت؟

- وإدنا.

- لا بُدَّ أن ذلك كان رائعًا، يا رام. هل تظن أنني لا أعرف كم هو قاسٍ عليك كونك فقيرًا؟

تنهدت.

الرحلات الرائعة التي اعتادت القيام بها كل عام، رقص التشارلستون طوال الليل، باريس، جوزفين بايكر، موريس شيفالييه، وحتى ماكسيم، فقط أفخم الفنادق. وكل الناس الذين قابلتهم، والآن...

- أتساءل لماذا اتصل؟

- من؟

- الدكتور حمزة.

- ربما بخصوص جميل؛ لأن ليفي يعطيه دروسًا في اللغة العربية.

- بالمناسبة، خالتك تريد من ليفي أن يُحسّن لغة منير قليلًا، من الأفضل أن تعطيني عنوانه. كان فظيعًا ما فعلت، يا حبيبي. لماذا قذفته في الماء؟

- من فضلك، يا مامي، لا تفتحي هذا الموضوع مجددًا. كانت مجرد حادثة.

تنهدت.

- لست أدري لماذا تتصرف بغرابة طيلة الوقت؟ ربما أنت بحاجة إلى زوجة، سيكون عليَّ أن أذهب لأعيش مع أختي حين تتزوج.

- إطلاقًا. أنت لن تتركيني. إذا تزوجت، ستبقين معي.

- هذا ما يقوله الجميع. لكن حين تكون لديك زوجة جميلة، لن ترغب في وجود شمطاء مثلي تحوم حول المكان.

- أنت لست شمطاء.مازلت جذّابة جدًّا، وأنا أحبك كثيرًا.

- ماذا تريد للغداء، يا حبيبي؟

أردت أن أدخن، لكن ذلك يعني أنني سأضطر إلى القيام والذهاب إلى الحمام، فهكذا يكون تأثير السيجارة الأولى في اليوم عليَّ.

- مَن برأيك تقبل أن تتزوجني؟

- هذا لن يكون صعبًا. فبالرغم من كل شيء، نحن ما زلنا ننتمي إلى واحدة من أحسن العائلات في مصر.

- سمعت أن فيكي دوس على استعداد للقبول بي.

- إنها مفلسة.

- وكذلك أنا.

تنهدت، وأكملت عملها.

- مامي؟

- نعم، يا حبيبي.

- مامي، ما رأيك بإدنا سلفا؟

لم تحر جوابًا.

- حسنًا؟

- ألا تعرف أن الناس يقولون إنها أخذتك إلى لندن كعشيقها المستأجر؟

- هذا ليس صحيحًا.

- أعرف. لكن الناس تتكلم، ألا تعرف ذلك؟

- هل توافقين على زواجي بها؟

تركت الجوارب من يدها وقالت إنها لا تهتم بمن أتزوج طالما سأكون سعيدًا. فهي تعلم أنني كنت أواعد إدنا.

- الزواج بيهودية ليس من الحكمة في الوقت الراهن.

لكن إذا كنت أحبها، وإذا كان ذلك سبب تصرفي بهذه الطريقة الشاذة، فيمكنني أن أتزوجها. هذا إذا رضيت هي بي، فلطالما كانت عائلتها تحتكم على المليارات. كما أنها أكبر مني. فجأة قالت لي إنه عليّ أن أتزوج بمن أحب، ثم شرعت في البكاء.

رن جرس الهاتف، فخلعت أمي نظاراتها لتعود إلى شكلها المعتاد.

- إنه الدكتور حمزة. كن في غاية الأدب معه.

أعطتني السماعة، ووقفت تنتظر بلهفة.

صرخ بي الرجل:

- رام.

- نعم؟

- ماذا فعلت بمجموعة الصور الأخيرة؟

- لقد صنعت نسخًا عنها، وأرسلتها إلى كل محرري الصحف.

- من أعطاك الإذن لفعل هذا؟

- لا أحد.

- أنت طفل غير مسؤول. أنت لا تعرّض نفسك فقط للخطر، لكن كل من له علاقة بهذا الموضوع. أحرق كل ما لديك، ولا تحضر إلى مكتبي بعد الآن. أقفل الخط.

- ماذا كان يريد؟

- لا شيء.

- لقد سمعت ما قال، يا رام. أنت تشتغل بالسياسة. كنت أحس بذلك.

أخذت تنوح.

- هذه هي النهاية. سوف تتسبب في قتلنا جميعًا. ربي، ربي....

هدأت من روعها، ثم ذهبت إلى الحمام. استلقيت على الأرض، ومددت يدي إلى ما تحت المغطس. بحثت عن بلاطة مخلخلة استخرجت من تحتها مظروفًا بني اللون. وضعت المظروف في الحوض، وأشعلت به النار. ثم عدت فوضعت البلاطة في مكانها، ونظفت كل شيء قبل أن أشرع في ارتداء ملابسي.

237

الجزء الخامس

طرقتُ بابَ إدنا.

ذات مرة، في لندن، حين كنا متقاربين جدًّا، أخبرتني إدنا أننا إذا ما افترقنا إلى الأبد؛ فإنها سوف تقص شعرها؛ لأنها لن تستطيع العيش مع فكرة أنني لن أصفِّفَه لها. أنا أيضًا، أخبرتها أنني لن أستطيع العيش مع فكرة أن أحدًا غيرى سوف يصففه لها.

- أدخل، يا رام.

ميزَّتْ طرقتي.

كانت تجلس إلى مكتبها تدوِّن خطابًا ممسكة سيجارة في يدها، وإلى جانب أوراقها يقبع فنجان من القهوة التركية. جذبت كرسيًّا، وجلست إلى جوارها.

- تكتبين خطابًا؟

- نعم.

- هل لديك عائلة كبيرة، يا إدنا؟

- أنا وحيدة أبوي، كما تعلم. لكن، العائلة كبيرة جدًّا.

- أين يعيشون؟

- في كل أنحاء العالم، يا رام. كل آل سلفا في ألمانيا والبلطيق، يعيشون الآن في جنوب إفريقيا أو روديسيا، أو بالقرب منهما. ولديَّ أقارب في

انجلترا وفرنسا وأمريكا الشمالية. في كل أنحاء العالم، يا رام.

- وفي إسرائيل أيضًا؟

هزت رأسها إيجابًا.

- بعض أقاربي الصغار في السن هناك، لكن للسياحة لا لشيء آخر.

- هل هم أغنياء جدًّا؟

- محلات سلفا تملأ العالم. أنت تعلم كيف هي الحال مع اليهود، فنحن نحب توظيف اليهود وبالذات الأقارب منهم. كما أننا نساعد بعضنا في أمور شتّى.

- إدنا، لماذا تسكنين في هذا المكان؟

- منزلنا تحت الحراسة، يا رام. وكذلك حال كل محلاتنا هنا. أنا أحب هذه المنطقة، كما أنني لم أضع خططًا للمستقبل بعد.

- ما خططك للمستقبل، يا إدنا؟

لم تجبْ.

- إدنا، ألا تريدين أن تتزوجي وتنجبي أطفالًا يتقافزون فوق ركبتيك، وينظرون إليك بعيون واسعة ويسألونك إذا كانوا يستطيعون الحصول على المزيد من المثلجات؟

ابتسمت.

- تحصلين على زوج يضع الأطفال في مكان مناسب على الأرض ويضبط الكاميرا الآلية، ثم يأتي مسرعًا ليتخذ مكانه إلى جانبك ويضع

ذراعه فوق كتفك من أجل صورة عائلية؟

- أنت لطيف، يا رام.

- ثم، بعد أن تُلتقط الصورة، وتكون الكاميرا من هذا النوع الحديث الذي يحمّض الصور فورّيًا، تكتشفين أنني رسمت على وجهي تعبيراً مريعًا، ومن ثم نغرق نحن الاثنين...

- أنت، يا رام؟

- نعم. أنا.

نظرتُ إلى مؤخرة عنقها. كانت ضفيرتاها ملفوفتين لأعلى وملتصقتين إلى جانبي رأسها مغطيتين أذنيها. كان عنقها رقيقًا وشاحبًا، كعنق طفلة في الثانية عشرة من عمرها، يجري في منتصفه خط مجوف.

- هذا لن يحدث أبدًا، يا رام.

- لو أنك فقط تعطينني سببًا لذلك. يوجد مائة سبب، واحد فقط قد يفسّر الأمر. أو قولي فقط إنك لا تحبينني.

- أنا أحبك.

وضعت يدي على مؤخرة كرسيها، أتأملها في صمت.

- حين ذهبتِ للمرة الأولى، حين كنا في لندن، ولم تكتبي لمدة عام، كنت أجوب الشوارع في الليل أتساءل عن ماهية السعادة والاكتفاء. قد يكون هذا رأيي الشخصي، وقد يكون هذا لأنك أنت زرعت هذا الإحساس فيّ، لكن السعادة بالنسبة لي هي حرية شخصين يحبّان بعضهما

البعض في أن يعيشا معًا في ظروف تسمح لهذا الحب أن يعيش. حين أسمع عن الفقر أو عن الجوع أو عن الحروب أو عن السجن أو عن معسكرات التعذيب، أفكِّر فقط في حبيبين تفرِّقهما ظروف كهذه. أعرف أن الناس لا يمكن أن يستمروا في حب بعضهم البعض إذا ما اضطرُّوا إلى العيش في غرفة واحدة مع أطفالهم، أو إذا كانوا مرضى، أو قذرين أو جياعًا. بالرغم من مثاليتكِ ورقتكِ وكرمكِ، أنا أعتبرك قاسية. أنت قاسية حين تقولين إنك تحبينني، ومع ذلك تصرِّين على العيش بعيدة عني. لو أنك لم تحبينني، لكان الأمر اختلف....

- أرجوك، يا رام. توقف.

- هل هناك أي شيء، أي شيء أستطيع أن أفعله؟

هزَّتْ رأسها.

قد يجري المرء في سباق هائل، ثم حين ينتهي السباق، ينهار إعياءً. وكأنه قاس قدرته بهذه البوصة الأخيرة من السباق. مددت يدي ولامست ضفيرتها المثنية. فجأة، قفزت واقفًا ويدي ممددة كالملسوع. وقعت الضفيرة من يدي على الأرض ورقدت هناك تحدق بي بيأس. كانت قد قصت شعرها.

لقد وصلت إلى البوصة الأخيرة من السباق.

جلستُ على سريرها، وجلستْ هي إلى جواري ممسكة بيدي. السبب في أنها ما كانت لتناقش مسألة الزواج معي هو أنها متزوجة بالفعل. كان

ذلك بمثابة سؤال المتسابق، المنهار، أن يتسابق من جديد.

- أنا متزوجة، يا رام.

- ممَّن؟

سألتها بعد حوالي نصف ساعة.

- تزوجت قبل أن أقابلك. كان يهوديًّا، عضوًا في الحزب الشيوعي المصري. كان طيبًا جدًّا وشريفًا، يا رام، ومنكرًا لذاته. كنا نعلم أن المباحث على وشك القبض عليه. وظننّا أن تمتعي بالجنسية البريطانية سيحول دون سجنه، لكن البريطانيين رفضوا منحه الجنسية أو حق اللجوء. كما رفض هو أن يذهب للسوفييت طالما أنهم يساندون عبد الناصر. وأصبح فجأة وحيدًا. بعد أسبوعين من زواجنا، تم اعتقاله وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. حاولت مجموعة منهم الهرب، فقُتل بعض أفرادها بالسلاح الذي منحه الروس لعبد الناصر. أما هو، فقد تلقّى ثلاث رصاصات تركته عاجزًا تمامًا، هو بالكاد يعد رجلًا الآن. ويعيش في إسرائيل؛ كونه يهوديًّا.

- لا يهم.

- أردت مرارًا أن أخبرك.

كررت قولي:

- لا يهم.

- لكنني لم أفعل. حين تركتك وذهبت إلى إسرائيل، لم أكن أنوي أن أعود.. لكنني أردت بشدة أن أراك مرة أخرى. أنا أيضًا امرأة، يا رام. أنا

أيضًا ضعيفة كالأخريات. كما أنني أحب، كالأخريات. سامحني، يا رام.

- أسامحك ألف مرة.

أخذت أذرع أرض الغرفة، أفتح الخزائن وأقفلها، أسحب الأدراج ثم أدخلها مرة أخرى.

- هل أصبحْتَ مدمنًا على الكحول، يا رام؟

هززت رأسي. فتحَتْ مكتبها، وأعطتني زجاجة ويسكي مقفلة.

- هل تتناولين كأسًا؟

- نعم.

فتحت الزجاجة، وصببت كأسين.

- إذن أنت إسرائيلية.

- لا، يا رام. أنا مصرية.

وقفتُ، وقلتُ لها:

- أتدرين، يا إدنا؟ أنت لست مصرية. ليس لأنك متزوجة من إسرائيلي، أو لأنك يهودية، لكنك فقط لست مصرية. سأخبرك السبب. هل تذكرين حين قلت لي إنني لست مصريًّا لأنني أنتمي للطبقة العليا من المجتمع، وكل ذلك. لكنني مصري. مثل جميل ويحيى، أنا مصريٌّ حقًّا. فأنا أمتلك روح الفكاهة التي تميزنا نحن المصريين. بالرغم من أن «مصريتي» تشوَّهتْ بسبب إقامتي في لندن، وبسبب الكتب التي قرأتُها، ما زلت أمتلك مقومات الشخصية المصرية، على النقيض منك؛ أنت لا

تتمتّعين بروح الفكاهة التي لولاها، يا إدنا، لَكُنَّا متنا جميعًا منذ زمن طويل.

- ليس لديَّ الكثير لأضحك عليه.

- يا الله. لقد أحببتكِ. أحببتكِ أكثر من أي شيء في هذا العالم. وكانت السنوات الست الماضية لتكون أسعد سنين حياتنا، لو أنه كانت لديك روح الفكاهة، ولو أنك لم تنزعجي من تلك النزعة في. فقط، لو كان باستطاعتك أن تطلقي لنفسك العنان بين حين وآخر، ما كان ليشكِّل أي فارق كونك متزوجة. هل تريننني أهتم؟ من الممكن أن نعيش معًا حتى الموت، وهذا كل ما أهتم له. أستطيع الحصول على وظيفة عندما أريد، خالتي ستوفرها لي. أو ربما نذهب للعيش مع خالي في الصعيد. يمكننا حتى أن نفتح مدرسة، لو أردتِ.

شربت كأسًا أخرى من الويسكي.

- لو كانت السياسة ما ينقصني؛ سأجد شيئًا ما.

أخبرتها عن نشاطي مع الدكتور حمزة.

- لماذا لم تخبرني ذلك من قبل؟

- وهل أعطيتني فرصة؟ منذ عودتي وأنت ترفضين رؤيتي. هناك الكثير من الأمور التي لا تعرفينها.

- ماذا أيضًا، يا رام؟

- لقد انضممت إلى الحزب الشيوعي في إنجلترا.

- أنت؟ لماذا؟

- لماذا؟ كم أتمنى لو أخبرك ببساطة أنني انضممت لنفس السبب الذي يجعل الآخرين ينضمون إليه؛ الإيمان بمبادئه.

- وهل كان هذا دافعك؟

أخذت أتجول في الغرفة مجددًا. أنهيت كأسي وصببت أخرى. لا أحب الويسكي دون صودا وثلج، لكنني شربتها على أية حال.

- لقد انضممت لأنني لم أعرف ماذا أفعل بكل المعرفة التي لديَّ.

- ماذا تقصد، يا رام.

- أقصد أن هذا الكم من المعرفة بالتاريخ والسياسة والأدب كان لا بُدَّ له أن يُصبّ في أية قناة، وإلا جننت. في البداية، كان سلوكي وانخراطي في السياسة وكفري بالكثير مما حولي لمجرد المفاخرة والمتعة. كنت أذهب برفقتك إلى حيث نستمع لخطب عن الوضع في جنوب إفريقيا، أو ننضم إلى المظاهرات في ميدان ترافالجار، أو نستمع إلى بيفن وراسل وسوبر وكولينز وغناء بول روبسون، ثم أعود برفقتك يدًا بِيَدٍ إلى المنزل، فأقول لنفسي كم هي رائعة هذه الحياة. قد أشعر بالغضب الصادق لما أسمع من ظلم وقسوة، لكن هذا الغضب في حد ذاته كان ممتعًا. كانت مشاركتك في شيء جيد هي الممتعة. لقد أحببتك، وكان هذا الحب الشيء الرئيس في حياتي. أما حين تركتني فجأة وظننت أنك لن تعودي، فقد أصبح غضبي من الانتهاكات السياسية شخصيًّا؛ اختلطت مرارتي لفقدك

بمرارتي لما أسمع من ظلم وقهر. كنت أشعر وكأنني فقدتك بسبب أناس كفيرفويرد. وحتى حين كنت أتحرى الإنصاف وأقرّ أن تركك لي لا علاقة له بالظلم السائد في هذا العالم، أعود فأقول لو كان العدل يسود العالم؛ لكُنّا أحببنا بعضنا أنا وأنت وعشنا معًا بصورة طبيعية.

إدنا، لقد تركتني مع كمٍّ من المعرفة والإدراك للعالم لم أعرف ماذا أفعل بشأنه. حين كنا معًا، كانت لهذه المعرفة، ولو بطريقة غامضة، علاقة بحبي لك، كانت تجعلني جديرًا بك ولو قليلًا.

ملأت كأسي مرة أخرى.

قالت إدنا:

- لقد تركتك المرة الأولى دون أن أكتب لك لأنني كنت خائفة. كنت تتغير بسرعة خلال تلك الفترة القصيرة. ظننت أن سبب ذلك هو تأثيري عليك. ربما لتثبت لي أنك رجل. أنا لم أرغب في ذلك. وكان هناك سبب آخر لابتعادي. لكن، ربما كان عليَّ أن أكتب لك.

أفرغت كأسها بجرعة واحدة، ثم ملأتها بنفسها.

نظرت إليَّ.

- رام، لقد وقعت في حبك مرتين. أحببتك في المرة الأولى لأنني كنت وحيدة، ولأن شخصيتك كانت رائعة. كنت بريئًا ومخلصًا. أنا أكبر منك، يا رام. ظننت أن حبك لي سيموت تلقائيًا بعد فترة. حين عدت إلى إنجلترا بعد سنة، كانت شخصيتك قد تغيرت بشدة. كنت قد أصبحت شخصًا

معقّدًا وصعب المراس. ووقعت في حبك للمرة الثانية. لكن هذه المرة، كان حبِّي لك مختلفًا. أحببتك لأني وجدتك جذابًا.. أنت تجذب النساء. أعطني ثقابًا، يا رام.

أشعلت لها سيجارتها.

- لماذا تقولين إنك تحبينني في حين أن تصرفاتك توحي طوال الوقت بالعكس؟

أشاحت بيدها قائلة:

- لأننا لا نستطيع أن نتزوج. وحتى لو كنا نستطيع، ما كنت لتسعد معي.

- لم تقولين ذلك؟

- علمت ذلك يقينًا حين قدمت ديدي إلى إنجلترا.

- نحن ندور في حلقة مفرغة. بإمكاني القول إن ما حدث بيني وبين ديدي كان بسبب ظني أنك لم تحبينني، وأنت تقولين إننا ما كنا لنسعد معًا بسبب ما حدث مع ديدي.

- رام، حبيبي..

ابتسمت فجأة وقلت لها:

- أتساءل أحيانًا لماذا لم نستخدم كلمات التحبُّب هذه أثناء علاقتنا. «حبيبي» و«حبيبتي». هذه هي المرة الأولى التي تناديني حبيبي.

- نعم، هذا صحيح. نحن لم نفعل قط. لا أدري لماذا.

رفعت كتفيها بطريقة محببة وابتسمت هي الأخرى. رفعت كتفي أنا الآخر.

- متى انضممت إلى الحزب الشيوعي؟

- حين تركتني للمرة الأخيرة، أنت وفونت. قبل حرب .

- ما الذي دفعك حقًّا إلى الانضمام؟

ملأت كأسي مرة أخرى، ووقفت أنظر من النافذة. طالما كان للحرارة تأثير غريب عليّ: طنين خفيض أعيه بين الحين والآخر ويكاد يكون مسموعًا في أذني كدقات الساعة. هززت رأسي دون وعي.

- لو أن أحدًا قرأ كمًّا هائلًا من الأدب ولديه معرفة عميقة بالتاريخ الحديث، منذ بداية هذا القرن وحتى هذا اليوم، ويمتلك مخيّلة وبعض الذكاء والوقت ليفكر، لو أنه كان شفوقًا ويهتم بما يحدث لباقي البشر على اختلاف أجناسهم، ولو أنه كان مخلصًا وشريفًا، فأمامه خياران: إمّا أن ينضم للحزب الشيوعي ثم يتركه متحسّرًا على عدم بلوغ الحزب الأهداف السامية التي أنشئ من أجلها، أو أن يجن. أو ربما، إذا كان شخصًا غير مخلص على مستوى اللاوعي، فقد ينضم إلى أحد الأحزاب اليسارية الأوربية ويمتّع نفسه.

وضعت كأسي على مكتبها، وشرعت في المشي في أرجاء الغرفة من جديد.

- ومَنْ أنت بين هؤلاء، يا رام؟

- أنا غير مخلص، لكن شريف.

- هل مازلت شيوعيًّا؟

- شيوعيٌّ. شيوعيٌّ. ربما يجدر بك أن تسأليني إذا ما كنت عضوًا في الحزب الشيوعي. الإجابة لا.

- لماذا لم ترجع معنا أثناء حرب بورسعيد؟ لماذا أصبحت ساخرًا إلى هذه الدرجة؟ لماذا لم تخبرنا عن انضمامك للحزب الشيوعي؟

- لأن فونت كان لينضم أيضًا. لكن فونت مخلص. كان ليبقى على نشاطه هنا؛ ما يعرِّضه للسجن والتعذيب. وعلى أية حال، فقد انضممت للحزب بعد سفركما.

- والآن؟

- ماذا؟

- ماذا تنوي أن تفعل؟

عدت للمشي مرة أخرى متناولًا المزيد من الويسكي الذي بدأ تأثيره يسري فيَّ.

- تسأليني لماذا أصبحت ساخرًا وما إلى ذلك. كنت أنت من يستمر في تذكيري بمصريّتي، ومع ذلك لم تريديني قط أن أتصرف كما يتصرف المصريون. طالما...

- لماذا عدت، يا رام؟

أشعلت سيجارة، ووقفت أنظر من النافذة مرة أخرى.

- لقد أخبرتني مرارًا عن مدى ولعك بالمصريين. أنا أيضًا، يا إدنا،

أحب المصريين. لكن حبي، بخلافك، لا واعٍ. مصر، بالنسبة لي، تعني أشياء عدة: لعب البلياردو مع دوروماين وفارينيان الأرمينيَّيْن هو مصر بالنسبة لي، النكات والملاحظات الساخرة هي مصر بالنسبة لي، استقلال الترام هو مصر بالنسبة لي، وليس فقط الفلاح ومعاناته. هل تعرفين صديقي فوزي؟ إنه لا ينطق بأية كلمة غير مرحة أو فطنة، ومع ذلك لم يُقلِّدْ الأوسمة لقاء ذلك. هو مجرد مصري عادي. ركبت الترام بصحبته الأسبوع الماضي، فداس أحدهم قدمه. اعتذر الرجل فسأله فوزي عم يعتذر، فأجابه الرجل "لأني دست على رجلك"، فقال له فوزي: "يا سيدي، أنا بقى لي سبعة وعشرين سنة بادوس عليها". كيف أشرح لك أن مصر بالنسبة لي شيء لاواعٍ وليست أي شيء سياسي أو... أو... فلتنسي الأمر.

- لم لا تعيش حياة عادية إذن؟ لم لا تجد عملًا؟ لماذا تزعج عائلتك؟ ولماذا ساعدت الدكتور حمزة؟

مرة أخرى عاد إليَّ هذا الشعور البغيض بالضغط وهذا التَّوْق إلى تحطيم كل شيء واختبار النتائج.

وضعت وجهي بين راحتيَّ.

- هذه المعرفة البغيضة لديّ، وكل هذا الأدب الذي قرأتُه، وأنتِ، وهذا الوعي بذاتي الذي يؤرِّقني منذ وضعت قدميّ في أوربا. أصبحت أرى نفسي، ليس فقط بعين مصرية، ولكن بعين تسع نظرتها العالم كله.

- لا أفهم كل ما تقول، يا رام.

تقدمت نحوي وفعلت شيئًا لم تفعله قط من قبل: ركعت أمامي ورفعت إليَّ عينين تملؤهما الدموع. وقالت:

- رباه، لم أدرك كم جعلتك وحيدًا.

في مصر، لدينا غروب بطيء للشمس. فيشع ضوء بنفسجي، أكثر أصالة من اللون نفسه، بحزن من كل الموجودات. يبقى هذا العرض فقط لبضع دقائق، لكنه يعلن عن قدوم نسيم المساء وانبعاث الحياة في الشوارع داحرةً خمولَ النهار.

وقفت في الشارع لا أدري ماذا أفعل بنفسي. إذا لم تكن مدمنًا على الكحول، فسوف تكون في حالة مزرية إذا ابتدأت الشراب في فترة الظهيرة. تمر بك لحظات من الانشراح تتبعها لحظات من الكآبة، وتظل تشرب حتى موعد نومك. أردت أن أعود إلى إدنا، لكنني كنت أعلم أنه ينبغي ألا أفعل. كنت أرغب في أخذها إلى سميراميس لنرقص ونتناول العشاء مستمتعين بمنظر النيل من الطابق الأخير. عددت ما معي من نقود ببطء، فوجدتها تتجاوز المائة جنيه. مسح لي ولد حذائي أثناء وقوفي، فأعطيته جنيهًا، وعبرت الشارع إلى حيث بار ميراندي. طلبت كأسًا من الويسكي، ثم ذهبت إلى التليفون وطلبت رقم منير.

- مساء الخير، يا أنّا. كيف حالك؟

حييتها بالإيطالية.

- بخير، يا سنيور رام. وأنت؟

أنّا امرأة لطيفة وحنون تعمل مدبرة منزل لخالتي ولجدّيّ من قبلها. سألتها إذا كانت السنيورة الأمريكية موجودة.

- السنيورة كارولين؟

- أجل، يا أنّا.

لكنها لم تكن بالمنزل. كانوا قد خرجوا جميعًا.

ذهبت إلى سينما مترو. وقفت قليلًا في المدخل المكيف أنظر إلى صور النجم الأمريكي يقتل العمال الكوريين. مشيت إلى سينما أخرى، فوجدت فيلمًا لنفس النجم السينمائي يضع على أذنيه سماعة طبيب. ذهبت إلى المتحف المصري، فوجدته مقفلًا. أحب أحيانًا أن أذهب إلى هناك وأن ألمس كل الأشياء المهيبة بالداخل. لم أكن بعيدًا عن سميراميس، فذهبت إلى هناك وتناولت كأسًا أخرى من الويسكي في البار الذي يشغل الطابق السفلي. أومأت إلى بيترو، عازف البيانو، وأرسلت إليه كأسًا من الويسكي. فعزف من أجلي موسيقي أغنية «أقبّل يدك، يا سيدتي». كنت قد أخبرته مرة أنني أحب هذه الأغنية. صعدت إلى الطابق الأخير، وتناولت المزيد من الويسكي في البار هناك. حيّاني قائد الفرقة الموسيقية التي كانت حاضرة على الرغم من أن الوقت كان مبكرًا.

خرجت من الفندق، ووقفت أراقب المراكب الشراعية. بعد وهلة، شرعت في المشي بجوار النيل إلى جاردن سيتي. كثيرون من أصدقائي يسكنون هناك. مررت من أمام منزل نكلا باشا، فوجدت سيارات كثيرة

متوقفة هناك، كانت بينها سيارتا عصام التركي وجميل؛ ما يعني أنهما يلعبان بالداخل؛ لذلك عبرت المدخل وقرعت الجرس. فتحت ديدي الباب، وتظاهرت بأنها لم تُفاجَأ لزيارتي. كانت تتصرّف وكأن أحداث لندن لم تقع إطلاقًا، أو كأننا كنا بالأمس معًا.

هادئة ديدي وجميلة، لها عيون مسحوبة قليلًا عند الأطراف كالصينيين. كما أنها حائزة على درجة الدكتوراه في الآداب من السوربون. كان فونت واقعًا في غرامها حين كنّا في الرابعة عشرة. تعمل ديدي الآن في إحدى الصحف.

سألتني بالفرنسية:

- أتشاركهم اللعب؟

- لا. ما عدت أقامر.

- إذن فأنت تقوم بزيارة اجتماعية.

- نعم.

يقوم ليفي بتدريس اللغة العربية لهامو، شقيق ديدي البليد، وهو مدلَّهٌ في حبها. لم يصرّح ليفي لي بحبه لديدي، لكنني أرى العلامات عليه.

- ذلك من دواعي سرورنا.

وانحنت مازحة.

- سأزور والدتك أولًا، ثم أمر عليك. إذا سمحت لي.

- جيد.

لديدي جناح منفصل عن المنزل مكوّن من حجرتين ومطبخ. وقد جرت العادة على أن يجالس كل من يزور المنزل السيدة نكلا المكفوفة لدقائق. أخبرتها الخادمة التي تجلس عند قدميها مَنْ أنا حين اقتربت. قبَّلتُ وجنتَيْ السيدة نكلا، وجلست على مقعد مواجه لها.

- كيف حال والدتك، يا رام؟

- بخير، شكرًا لك.

- وكيف حال خالتك؟

- أية واحدة؟

- خالتك عايدة.

- خالتي عايدة بخير، شكرًا لك.

- وكيف حال خالتك الأخرى؟

- أية واحدة؟

- خالتك نعومي.

- وخالتي نعومي بخير، شكرًا لك.

- وكيف حال خالتك سميحة؟

- خالتي سميحة بخير هي الأخرى، شكرًا لك.

- يسعدني سماع ذلك.

- خالي أميس في الصعيد بخير كذلك.

- لم أسألك عنه.

- لكنك كنت على وشك السؤال.

ضحكت. هي تحب أن تضحك كثيرًا. كما تحب أن تستمع إلى آخر الأخبار والشائعات؛ لذلك، فقد استرخيت وبدأت أخبرها ما تحب.

- ماري اشترت سيارة جديدة ثمنها ستة آلاف جنيه؛ لأن سيارتها القديمة كانت تكلفها الكثير من المال لشراء البنزين. تي وسينا في نيويورك لشراء حاجيات العرس. ابن خالتي مادي خطب وسيتزوج الشهر القادم. لولو تقيم علاقة مع صناعي ألماني وزوجها لم يفعل شيئًا كالعادة.

- أنت كلب، يا رام.

- حسنًا، هذه هي الحقيقة. حسن عبده، الابن الأكبر لآل عبده سيتزوج من فتاة نرويجية. لطفي صفوت، زوج جِيدا، اعتقل؛ كونه شيوعيًّا. لن نراه مجددًا. كلارو هانو خسرت مجوهراتها في إيطاليا على المقامرة. فرح فرح سوف يطلّق زوجته ليتزوج فاطمة الراقصة. كيكو رسّوم اعتنق الإسلام لأسباب تتعلق بالعمل. عصام التركي وجميل ويحيى يقامرون مع زوجك في الغرفة المجاورة. هناك شائعات عن زواج منير ابن خالتي من ابنتك ديدي. قذفت بابن خالتي منير هذا إلى حوض السباحة الأسبوع الماضي، وأنا على وشك الذهاب لرؤية ابنتك.

- لا، لا، يا رام. ابق قليلًا. أريد أن أضحك.

وكزت الخادمة بقدمها.

- اذهبي وناديِ جميل، أنا لم أضحك هكذا منذ زمن.

أشعلت سيجارة وانتظرت. ظهر جميل على باب الغرفة، وجرى نحوي.

- رام، رام. بعض الحظ. أنا لم أفز بورقة واحدة طوال اليوم.

- لا أستطيع. لقد استنفدت ما لديَّ اليوم.

قال جميل نائحًا:

- ولا ورقة واحدة طوال اليوم ، يا سيدة نكلا، ولا ورقة.

- أعطه بعض الحظ، يا رام.

- حسنًا لديَّ القليل المتبقي، لكن في قدمي.

- أعطني إياه.

- لكنك تعلم أن ما في القدم يؤخذ فقط عن طريق الفم.

قالت السيدة نكلا:

- هذه حقيقة معروفة. هذا الصباح حاول زوجي أخذ بعض الحظ الذي كنت أوفره لمباراة هامو الكبيرة غدًا، فظننت أن الكلب يلعق قدمي.

- يمكنك أن تضحكي؛ عصام التركي يقسم أنه اشترى بعض الحظ من أحدهم، وهو يكسب كل ما معنا.

خلعت حذائي وجوربيّ، مرر جميل فمه على باطن قدمي، بينما أخذت الخادمة تصف ما يحدث لسيدتها. حين انتهى جميل، عاد مسرعًا إلى حجرة اللعب.

قالت السيدة نكلا:

- هذه المقامرة مزعجة. بعد أن أقفلوا نوادي البكاراه، أصبح زوجي

يستولي على كل زواري ليلاعبهم.

سألت فجأة.

- ماذا حدث لفونت؟

- لا شيء.

- هيا، يا رام. لقد عرفته لمدة طويلة. أية حماقة في أن يعمل كأي...

- لقد جن.

قلت لها وقد أصابني الاكتئاب والضيق.

- لكن...

تركتها وعبرت صالتين مؤثّثتيْن بطريقة جميلة لأصل إلى جناح ديدي، وجدتها تجلس على أريكة وقد ثنت ساقيها تحتها وتنورتها تُشكِّل ما يشبه الدائرة حولهما، إلى جوار الأريكة، قبع مصباح رقيق يدوي الصنع مشعًّا ضوءه الخفيض على ما بيديها: كتاب، جلد، وأدوات تجليد. جدران غرفتها مغطاة بأرفف للكتب التي تقرؤها ثم تغلِّفها بالجلد بنفسها: «أنا لا أجلد كتابًا لا يعجبني.» أخبرتني ذات مرة.

أرفف الكتب المصنوعة من خشب الماهوجني والتي تغطي كافة جدران الحجرة، والمكتب الكبير في ركن من أركان الحجرة، قد يجعلان الغرفة ذكورية الطابع لولا تلك الدائرة الأنثوية في الركن الذي تحتله هي الآن.

كان هناك إبريق شاي أزرق وفنجانان موضوعان على طاولة بيضاء مصنوعة من حديد أبيض مشغول ومغطّاة بمفرش وردي. وهذا الركن

مؤثَّثٌ بأريكة ومقعد ذي مسند لونهما بنيّ فاتح وقماشهما الخالي من النقوش مصنوع من نسيج لامع يشبه الساتان، وتحتل الأرضَ سجادةٌ لونها بُنِّيٌّ غامق بدون نقوش كذلك.

- اجلس، يا رام.

- لحظة.

درت في أرجاء الغرفة، وتابعت هي عملها. كان جو الغرفة يشع بسلام قلّما يجده شخص مثلي، سكينة غمرتني فجأة بجمالها العميق. كنت قد اختبرت هذا الإحساس من قبل، لكنني لم أرد أن أتذكر ذلك الآن. آخر مرة رأيت فيها ديدي كانت في لندن. وقفت حيث أستطيع أن أراقبها دون أن تلاحظ. هي، مثل إدنا، ليس لديها لزمات معينة، ولا تفتعل حركات لجذب الانتباه، لكن تعليمها الفرنسي يضفي عليها أنوثة وجاذبية تفتقر إليهما إدنا. كانت تنتعل صندلًا خفيفًا له سير واحد مُذهّب يلتف حول الإصبع الأكبر. ذات مرة في لندن، بينما كنا نرقد على العشب في هايد بارك، قبّلتُ قدمها من خلف ظهر إدنا. على المكتب انتصبت مزهرية معدنية رشيقة تطل منها وردة ندية تماثلها في الرشاقة. إلى جانب المزهرية كانت هناك شمعة كبيرة سوداء على حامل معدني. أضأت الشمعة، وابتعدت لأرى ما أحدثته من أثر.

كان تأثير الشراب الذي تناولته من قبل قد ابتدأ في الظهور: الصداع والرغبة في النعاس والهبوط في القلب، لحظات التعاسة والخيبة والاكتئاب.

كنت ما أزال أرى السكينة المحيطة بي، لكنني كنت قد فقدت القدرة على الإحساس بها.

جلست.

عندما تبتسم ديدي نكلا، تبرز فجأة على جانبي ثغرها غمازاتان عميقتان تندهش من وجودهما؛ لأن وجهها الأملس الخالي من الخطوط لا ينبئ عنهما. لمست قلادتها المصنوعة من النحاس الأصفر والمرجان على هيئة نفرتيتي، ثم صعدت بلمساتي إلى عنقها. ابتسمت.

- لو لم يصدف أن فتحت أنا الباب، لكنت تلعب البكاراه الآن مع أبي وأصدقائك.

- نعم.

- حصلت على بعض المال؟

- لعبت البريدج مع ابن خالتي منير، ثم البلياردو مع دوروماين الأرميني.

- متى عدت؟

- منذ حوالي العام.

أشعلت سيجارة، ثم أبعدتها حالًا شاعرًا بغصة ورغبة في التقيؤ.

استمرت في عملها على تجليد الكتاب. وقفت مجددًا محاولًا مغالبة الصداع. عندما كانت في لندن، اعتدت أن أجعلها تضحك. اعتدت أن أصف الناس الذين يعيشون هناك وأقلِّدهم. اعتدت أن أصف بادي

وأقلد طريقته في الكلام. فكانت علاقة الحب هذه. فإدنا لا تمتلك روح الدعابة. اعتدت أن أمزج السياسة والدعابة والحب مع ديدي نكلا، لكن مع إدنا السياسة هي السياسة. كما ينبغي لها أن تكون، على ما أعتقد.

تنهدت.

هذا الويسكي! وصل الصداع إلى ذروة قوته. ذهبت إلى الحمام، أخذت مسكنًا للصداع، تغرغرت وفركت أسناني بفرشاة أسنانها، ومصصت أقراص النعناع.

- ماذا حدث بعد أن غادرتكم في لندن؟

- تشاجرت مع إدنا وفونت. ثم رفضت أن أعود معهما أثناء حرب السويس.

جلست، ثم عدت فوقفت، ثم أخذت أتجول في الغرفة. أطفأت الشمعة، ثم أشعلتها ثانية. ثم جلست إلى مكتبها أتلاعب بفتاحة المظاريف.

بادرتها:

- كتبت لك خطابًا طويلًا ذات مرة.

- لا زال بحوزتي.

- ليفي يحبك.

لم ترد.

ذهبتُ وجلستُ على ذراع أريكتها.

- كما أن فونت كان يحبك، عندما كان في الرابعة عشر. وأنا أحبك.

كان صدغي ينبض بالألم.

- وماذا عن إدنا؟

- نعم، وإدنا أيضًا.

ضربت المصباح بقدمي فانطفأ، ثم جذبت الكتاب من يدها ورميته على الأرض. استلقيت على الأريكة واضعًا رأسي في حضنها.

- ديدي.

- ماذا؟

- ديدي، لقد ضرب ضابط وجه إدنا بسوط.

أنزلت يدها وضمّتْ رأسي برفق إلى حضنها.

سألتني، بعد قليل، إذا كانت كأس من الويسكي، أو قدح من الشاي، قد يجعلني أشعر بتحسن.

- شاي.

استيقظت حوالي منتصف الليل. كانت الشمعة مازالت تحترق، وصوت قيثارة ينبعث من الراديو. كان حذائي قد انتزع، وجسمي مغطًّى ببطانية خفيفة. كان الصداع قد زال تمامًا. رقدت ساكنًا أستمع إلى الموسيقى.

- هل استيقظت؟

- نعم.

- سأصنع بعض الشاي الطازج.

أضأت المصباح، وجلست ملتحفًا بالبطانية ضامًّا ركبتيّ إلى صدري.

- حدثني عن بادي.

نادت من المطبخ. كان باستطاعتي أن أراها تعد الشطائر، تفتح الثلاجة وتغلقها، وتدندن مع الموسيقى. كانت سعيدة. كل فرد يجب أن يكون مثل ديدي نكلا. أقصد أن العالم يجب أن ينتظم، وأن كل فرد يجب أن يمتلك شقة لطيفة مثل ديدي نكلا ويتجول مترنمًا، كالعصافير.

- لقد عشت هناك لفترة، أتدرين؟

- ماذا قلت؟

- لقد عشت في منزل فنسنت حين عادت إدنا وفونت إلى مصر. اعتدت أن أنام أنا وبادي في المطبخ. كان يقرأ شيئًا ما لكلب الصيد الرمادي طوال الوقت. أخذت أقلد لهجة بادي الأيرلندية:

- أقول لك الآن، هذا الكلب لا يمكن أن يُهزم. بحق الله، هذا الكلب سيسبق الكلاب الأخرى نصف ميل على الأقل. عشرون لواحد على الأقل. لن أتفاجأ الآن لو أن فرانك مالوني له يد في هذا.

ثم يصرخ:

- شيرلي، أين أمك؟

فتصرخ هي الأخرى:

- لا أعرف.

- أراهن أنها في الويت سيتي الآن. ألم يكن في مقدورها أن تقول إنها خارجة؟ ستندم إذا فاز هذا الكلب الآن.

أسأل بادي:

- ما اسم هذا الكلب؟

- ترافالجار الثالث. كلب أصيل. لقد رأيت جده. كنا في كروك حين أتى إليَّ فرانك مالوني هذا وقال: «بادي لو كان بإمكانك الحصول على ثمن تذكرتَيْ سفر، لأمكننا السفر إلى الويت سيتي بصحبة هذا الكلب وسنفوز بالتأكيد». وأراني عشرين جنيهًا ادّخرها للمراهنة على الكلب، فركضت إلى البيت بقدر ما احتملت قدماي، ثم صعدت إلى الطابق العلوي حيث كان والدي بالخارج يحتسي الشراب، وجدت تحت الفراش رزمة من ورق الخمسة جنيهات ملفوفة في فوطة قديمة.

يتوقف عن الكلام حين يتملكه الضحك.

- بعد قليل كنت مع فرانك مالوني، حين رأيت أبي قادمًا. كان عجوزًا، لكنه كان يركض بسرعة. كنت أنا وفرانك مالوني نركض بأقصى سرعة في اتجاه المحطة وأبي يركض خلفنا رافعًا عصاه. أقول لك لو أن هذا القطار تأخر ثانية واحدة، لكان أبي قبض علينا.

فأسأل بادي إذا كان الكلب قد فاز.

- سأخبرك الآن، أقسم أن هذا الكلب كان أفضل ما رأت الويت سيتي.

كانت شيرلي تأتي وتقف بالباب:

- كان أفضل كلب هناك. لكن كل الكلاب كانت مخدرة باستثناء

ترافالجار الأول، وكانت النتيجة أن تخلَّفَ ميلًا عن بقية الكلاب فلم يجرؤ بادي على رؤية والده إلا بعد سنتين.

- الرجل العجوز كان طبعه بشعًا، أقول لك الآن. أتذكر أنني ذهبت ذات مرة إلى دبلن بصحبته هو ورجل يدعى جيمي أودنوفان...

كانت ديدي تضحك.

- كم عشت معهم؟

- حوالي العام. كان بادي هذا كسولًا جدًّا وباستطاعته أن يجلس لأسابيع دون أن يفعل أي شيء. أحيانًا كان بعض أصدقائه يحضرون محمَّلين بحقائب مليئة بالجينيس: «كيف حالك، يا بادي تاينان؟ أراهن على راتبي أنه لديك رقعتين على مؤخرة بنطالك. دعنا نلقي نظرة، يا بادي تاينان، فلسوف تزحف على مؤخرتك قريبًا.»

- هل كنت سعيدًا بالعيش هناك؟

- أتعرفين، يا ديدي، كل هذه القراءة وسفر إدنا وفونت جعلني أشعر بالوحدة الشديدة.

- لماذا عدت؟

- لقد عثرت عليَّ الشرطة. كنت قد ضربت شرطيًّا في ميدان ترافالجار أثناء حرب السويس ، وكان تصريح إقامتي قد انتهى ولم يجدد. بالإضافة إلى أنه كان من المستحيل أن أحصل على عمل، ولم يكن معي أي مال. المضحك في الأمر أن كل رفاقي «المثقفين» وقراء «النيوستايتس مان»

لفظوني الواحد بعد الآخر حين واجهتني المتاعب. كلهم ما عدا فنسنت. حتى آل دنجايت. على أية حال، فقد رُميت خارج إنجلترا.

- ماذا فعلت حينذاك؟

- ذهبت إلى ألمانيا لأنها كانت المكان الوحيد الذي أستطيع أن أدخله بدون تأشيرة. عملت في مصانع هنا وهناك. لكن دعك من هذا الآن.

- لماذا عدت؟

- على الأرجح عدت من أجل فونت. كنت أتصوَّر حاجبيه يرتفعان لأعلى دهشة مما يجري في العالم، ثم...

- ثم ماذا؟

- أنت تعلمين كم أحب فونت، يا ديدي. ثم تصورت أنه باستطاعتي فعل شيء مفيد، كالتعليم أو ما شابه، أو حتى المساعدة في القرى أو أي شيء. هل تعلمين، يا ديدي نكلا. أنا ...

كنت على وشك أن أقول لها إنني لست سيئًا كما أبدو، لكني لم أفعل.

- حتى معك، يا ديدي. أعني أنني صارحتك بحبي لإدنا. هل تذكرين كيف كنا نضحك سويًّا؟ مع إدنا، لم أكن قط طبيعيًّا ولست أدري السبب. على أية حال، حين عدت إلى مصر وجدت الحياة فيها تمامًا كما تركتها. حتى المحروسة. أعني كيف أذهب للعمل في قرية مشتعلة، وهو يتنقل في يخت فاروق الذي تكلِّف صيانته وإدارته مليون جنيه؟ وكل هذه التأميمات تضحكني، على الرغم من أنني لا أخبر فونت بذلك. يذهب

المال إلى الجيش عديم الفائدة. حتى السد العالي، حين يكتمل بناؤه، يكون تعدادنا قد زاد عشرة ملايين.

- ماذا تريده أن يفعل؟

- تحديد النسل وما إلى ذلك؟

- سيضعف هذا شعبيته.

- وإسرائيل أيضًا. تخيلي أن ثلث دخلنا يُنفق على جيش يُجهز لمحاربة مليوني يهودي بائس ارتكبت ضدهم جرائم بشعة أثناء الحرب الماضية. وماذا إذا ضعفت شعبيته؟ هو قوي بما يكفي ليتخذ قرارات غير مُرحب بها من قبل الشعب. كما أننا نحن المصريين لا نهتم البتة بشأن إسرائيل. لا، يا ديدي نكلا. من الغباء أن نعيش في ظل دولة بوليسية من دون التمتع بفوائد السيطرة.

- ماذا تعني؟

- لا تكوني غبية. لو أنه مقدَّر علينا أن تحكمنا الديكتاتورية، فلتكن شيوعية. سأقول لك ما أعني. انظري إلى الهند: الناس هناك تجوع لتدفع ثمن الديمقراطية المنشودة. وفي الصين، الناس لا تجوع على الإطلاق لأن ما يحكمهم ديكتاتورية شيوعية. أما نحن، فلدينا أسوأ ما في النظامين معًا: الديكتاتورية والجوع، بالإضافة إلى عدم وجود مستقبل نتطلع إليه.

أضفت ضاحكًا.

- لست أقول ذلك لوجود الكثيرين ممن يتضوَّرون جوعًا في دائرة معارفنا.

- ما رأي فونت وإدنا في ذلك؟

- لا أستطيع أن أتحدث إليهم هكذا. هم ممتلئون بالنظريات والأفكار والتعقيدات السياسية؛ ما يجعلني أضحك. اعتاد فونت أن يمشي من ألدرماستون إلى لندن، وإدنا تسافر في الدرجة الثالثة؛ دلالة على المساواة. وكأنه سينجم الخير الكثير من وراء فعلهما هذا.

صبَّت لي قدحًا آخر من الشاي. قلت:

- لطيف أن أجلس هنا معك وأتحدث إليك. المكان لطيف ومريح، وأنت جميلة.

ابتسمت.

- كدت أن أكسر قلبي بسببك في لندن. لديك سحر مزعج.

- لماذا لم تفعلي؟

- أفعل ماذا؟

- تكسرين قلبك.

- أنت ذكي بما يكفي لتعلم أنني ما كنت لآخذ شخصًا مثلك على محمل الجد.

- نعم. أعرف.

ضحكت.

- كل هذا الهراء. وثلاثتكم!

- نعم.

- الحرب الأسبانية، القنبلة، الانتخابات البريطانية، حزب العمال المستقل، الأب هدلستون، المسرح الصغير في الجانب الشرقي..

قالت متذكرة مناقشاتنا ونشاطاتنا في لندن، فقد عاشت معنا ثمانية أشهر.

- نعم.

- لقد راقتني علاقتنا. كنتَ جذّابًا، الوحيد المتأنّق دائمًا بين مَن يرتدون قمصان البولو والمعاطف ذات أغطية الرأس. راقني جانب الحب في علاقتنا كذلك. لكنها كانت عطلة وانتهت.

- أكليشيه.

- ماذا؟

- عطلة وانتهت.

- لكن هذه العلاقة كانت غير محتملة بوجود إدنا. لا تعتقد أنها لم تلحظ أني كنت أقضي الليل في غرفتك. لست أدري لماذا احتملت....

- أتدرين؟ حين رحلت إدنا عن إنجلترا فجأة للمرة الأولى، بدأت أعاني آلام الحب الرهيبة. لم تخبرنا إلى أين ذهبت، ولم تكتب رسالة خلال العام الذي غابته. حين عادت، كان كل ما أخبرتنا أنها سافرت إلى إسرائيل وعاشت في كيبوتز لمدة عام. علمت أنها تملك جواز سفر بريطانيًّا بالإضافة إلى جوازها المصري. وكأن ذلك كان مبررًا كافيًا لعدم الكتابة طوال عام كامل. بعد ستة أشهر، غادرت مرة أخرى، لكن إلى جنوب إفريقيا هذه

المرة. وضعت المزيد من المال في البنك من أجلنا، ثم رحلت دون أن تخبرنا عن وجهتها. كنت قد سألتها أن تتزوجني قبل أن تحضري أنت إلى لندن مباشرة.

- ثم؟

- كانت الإجابة بالرفض. لماذا نحن عاشقان إذن؟ لماذا لا تنهي علاقتنا؟ لأنني أحبك. كانت تخبرني بينما الحزن يسكن ملامحها.

- ألم تعد تحبها؟

لم أجب.

- كثيرون من الشباب في مثل سنك يحبون أن يثوروا لأي سبب. كثيرون من المصريين يفعلون كذلك. أنا أقول إن النظام هنا جيد.

- ماذا تقصدين؟

سألتها وصوتي يرتفع قليلًا.

بدت لوهلة متحيرة من نبرة صوتي الحادة.

- أرى أن الحكومة جيدة وعادلة. إذا كانت لبعض الناس من أمثالك أنت وفونت هذه النزعة المسرحية فسرعان ما يتغلبون على ذلك.

- يتغلبون على ذلك؟ هل تعرفين بوبي ملّا؟ لقد مات؛ قُتل في معسكر تعذيب. هل تعرفين حكيمة محمد زميلتك في المدرسة التي أحدث زواجها من قبطي فضيحة؟ دفن زوجها جسدها المشوه الأسبوع الماضي. «لقد انتحرت» كما أخبروه. هل تعرفين عدد الرجال من أطباء

ومهندسين ومحاميين في معسكرات التعذيب؟ أم أنك لا تعلمين أن لدينا معسكرات تعذيب؟

أخذت أصيح، ثم وقفت.

- أيتها البلهاء. يمكنك أن تجلسي هنا في دعة تحفرين اسمك على الجلد المغلف لكتبك ومئات البشر المحترمين يسجنون ويموتون تحت التعذيب، وتسمين دفاعنا عنهم نزعة مسرحية. أنت سافلة كالآخرين. أنت وتعليمك ودرجتك العلمية. يا لك من محررة بائسة تعملين في صحافة مكممة، وتكتبين فقط ما يأمرونك بكتابته.

- رام، هل أنت مجنون لتصيح هكذا؟

- نعم، أنا مجنون. ألم تعلمي أن عشرين رجلًا «انتحروا» هذا الأسبوع في معسكرات التعذيب، وأن طبيب السجن الشجاع رفض أن يوقع شهادات الوفاة؟ ألم تعلمي ذلك؟

واصلت الصياح.

لم تُجب.

- لأنني أرسلت الصور والوثائق بنفسي، لك وللمحررين الآخرين، لم تظهر كلمة واحدة في الصحف عن الموضوع. أيها الجبناء لاعقي مؤخرة السلطة.

فقدت السيطرة على نفسي تمامًا. لقد شاهدت الوجوه المحطمة للاثني عشر رجلًا. كان بينهم شاب هادئ ومسالم كان زميلي في الجامعة. كان ابنًا

لمُزارِع من الصعيد، يعيش على سبعة جنيهات في الشهر ينالها من العمل ليلًا «أبلسير» في سينما. كان مثقفًا ماركسيًّا رفض الاشتراك في الحرب ضد إسرائيل ما لم يقابل عبد الناصر بن جوريون في محاولة لحل الأزمة سلميًّا. ذهب في هدوء، أخبرني جيرانه، ولم يسمعوا عنه شيئًا حتى رأيت هذه الصورة.

- أخفض صوتك، يا رام.

جلست. كان لطيفًا ومهدئا أن أستيقظ من النوم وأحتسي الشاي معها.

- أنا آسف، يا ديدي. لم أقصد أن يكون صوتي عاليًا هكذا. سأذهب على أية حال.

- لا، يقفل البستاني البوابة في الليل، ولا أريده أن يراك تغادر غرفتي في هذا الوقت المتأخر.

- أكرر أسفي. منذ دقائق كنت أفكر في أن كل مخلوق على الأرض يجب أن يكون مثلك.

وقفت تشعث شعري بأصابعها.

- أنت طفل، يا رام. لكنك تعجبني.

ثم جلست على حجري ووضعت ذراعيها حول رقبتي.

- قبلني كما كنت تفعل.

ابتسمت فقبلت غمازتيها.

- لا أحد لمسني بعدك منذ أن كنا في لندن.

كانت عذراء حينها.

- ما بك، يا رام؟

- لا شيء.

- لقد ضحكت فجأة.

- كنت أحلم.

حكت رأسها في صدري وغطت جسمي بجسمها. أحسست بثقلها؛ مررت يدي على طول ظهرها. كان جسمها مسترخيًا ورطبًا.

- جسمك رطب.

- لقد أخذت حمامًا.

- لماذا؟

- أردت أن أكون منتعشة حين تستيقظ. هل تعجبك غرفة نومي؟

- نعم.

- وأنا؟

قلت هامسًا:

- وأنت أيضًا. أنت جميلة.

- ضُمَّنِي بشدة وقل لي كلمات جميلة.

خفق قلبها بشدة وتصلب ثدياها الملاصقان لي.

تأتي لحظة بعد ذلك، تكون عاطفة الرجل قد استهلكت بالكامل فجأة، وكل ما يبقى هو التباعد، وربما الإحساس المغرور بالتفوق. إذا لم يكن

الرجل يحب المرأة؛ فإنها ستعاني بشدة؛ إذ يشعر الرجل فجأة بالتعالي على من كانت منذ وهلة شريكًا ندًّا له.

ديدي منفتحة تمامًا وتنتمي إلى وسط منفتح كذلك، غير أن هذا الجانب الهام جدًّا من حياتها يبقى غير مشبع إلى أن تتزوج. لقد أخذتها بالقوة تقريبًا حين كنا في لندن. والآن، ترقد في سريرها، سكينتها مزعزعة، ويعلو وجهها تعبير ساذج وضعيف.

قالت:

- أنا أحبك.

هذا التعالي الذي يشعر به الرجل يجعله قاسيًا ومغرورًا، كما قلت. وكلما زادت قسوته، ازداد ضعف رفيقته ومعاناتها.

- أولًا، يجب ألا تقولي لرجل إنك تحبينه بهذه الطريقة؛ ذلك يجعله قاسيًا. ثانيًا، لو كانت لديك شجاعة أن تمنحي نفسك لرجل آخر؛ لكنت أحببته كذلك.

- لا.

- خالتي نعومي تريد تزويجك من ابنها منير.

هزّت رأسها.

انقلبت راقدًا على بطني، واضعًا رأسي تحت الوسادة.

- أو، إذا كنت لا تحبّين منير؛ بإمكانك الزواج مني.

مررت يدها على ظهري وكتفي.

- لا تسخر مني، يا رام.

- أنا جاد. هل تتزوجيني؟

- لكن...

- لكن ماذا؟

- لكن... لكن...

رددت ساخرًا:

- لكن، لكن، لكن. إذا أحببت أحدًا، فلتتزوجيه.

- لكن..

- لكن.

- لكن، رام، أنت لا تعمل، ولا مال لديك.

- صحيح. هذا ما يجعلك تتزوجين منير.

- بالإضافة إلى ...

- بالإضافة إلى لا شيء. منير لديه مجموعة كتب أحضرها من الولايات المتحدة حول كيفية المضاجعة مع الصور وشرح الأوضاع. لقد رأيتها. «أفضل خمس دقائق». التصميمات مرسومة على خلفية لها شكل ساعة بعقرب ثوان. خلال الأربع دقائق الأولى، يثيرك. ثم في دقيقة كاملة، يجني ثمار هذه الإثارة. وبإمكانك دفع وسادة إليه بدلًا منك، إذا لم تكوني ترغبين به. ستذكره الوسادة بأيام التدريب. لقد أراني الكتب: «أنت بالتأكيد ستحصل على بعض المعلومات من هذه الكتب، يا فتى».

- وماذا بشأن إدنا؟

- لقد انتهى ما بيننا.

- بالإضافة إلى...

- بالإضافة إلى أخرى؟

- كن جادًّا، كيف حصلت على الصور والوثائق من معسكرات التعذيب؟

- هذه إحدى هواياتي.

- من فونت؟

- فونت؟ فونت؟ هل تستطيعين تخيُّل هذه الأشياء في يد فونت؟ لكان انطلق في الشارع واضعًا نسخة في يد كل من يقابله. وقبل أن يطلقوا النار عليه، كان ليجن. لا، دعي فونت في جنة البلياردو بعيدًا عن الأذى.

- هل أنت عضو في الحزب الشيوعي؟

- لا يوجد شيء بهذا الاسم، أؤكد لك. هم، مع كل الليبراليين والديمقراطيين الاجتماعيين ودعاة السلام والمثاليين، منفيون على شواطئ البحر الأحمر. لدينا ضبّاط مخابرات سابقين ألمان يعرفون ماذا يفعلون بشأن أناس كهؤلاء.

- صارحني بالحقيقة، يا رام.

- قلت لك، إنها هواية أمارسها. أنت تعرفينني أفضل من أن تظني أنني قد أضحي براحتي أو حياتي من أجل أي شيء.

- لكنك لا تحبني، يا رام؛ فلم ترغب في الزواج؟

جذبتها ناحيتي وقبلتها.

- سوف أحبك. كانت هناك أوقات حين كنا في لندن كنت فيها متيما بحبك. أنت جميلة للغاية؛ أريد أن أعيش معك في منزل جميل تحيطنا الكتب الجميلة المغلّفة بالجلد، أن آخذك كل مساء إلى أجمل الأمكنة، أن نذهب ليلًا إلى الصحراء بسيارتنا، وأن نشتري أجمل الملابس والحلي والعطور...

ثم ضحكت رغمًا عني، عادة الضحك المفاجئة الغبية تلك.

- كل هذا بأموالك طبعًا، فأنت ثرية للغاية.

- إذن أنت تمزح؟

- لا، كنت لأمزح لو لم أذكر مالك. بالطبع تدركين أني ما كنت لأسألك الزواج مني لو لم تكوني ثرية؛ كيف لنا أن نعيش إذن؟ بالتأكيد لأنك ثرية، أنا جاد.

ضممتها إليّ أكثر، وحين ابتدأت في الكلام مجددًا، غطيت فمها بفمي. استلقينا في صمت لبعض الوقت، حتى تحركت عاطفتي من جديد.

- أريدك أن تغمري بيتنا بالسكينة والسلام، حتى نسير في الأنحاء مترنمين، كلانا.

- طالما أحببتك.

قلت لأمي:

- أنا من سيتزوج ديدي، لا منير.

فابتدأت أمي بالفرنسية:

- لكن، كل شيء جاهز. كل شيء جاهز.

- أنا وديدي سنتزوج.

- أنت تمزح، لا يمكن.

- أنا لا أمزح، إلا إذا كنت تريدين مني أن أتركها لمنير.

- أنا لا أصدق.

- إنها الحقيقة، لقد عقدنا خطبتنا في لندن.

كنت أكذب.

- لكن، ماذا ستقول خالتك؟

- سأخبرك حين أراها اليوم.

- أين؟

- ديدي سوف تذهب بصحبتهم إلى كيركا، وأنا سوف أقابلهم هناك.

- لكنها رتّبت كل شيء.

- ماذا؟

- الفيلا الجديدة في مصر الجديدة، و نكلا باشا كان مسرورًا..

- ماذا عن ديدي؟

- لم تُعطِ ردًّا صريحًا. أقسم أنها لم تقل أبدًا إنها مخطوبة لك، أو لأي كان. كل ما قالت إنها سوف تفكر في الأمر. ونحن ظننا...

- أم أنك لا تريدين أن يتزوج ابنك من ديدي؟ تلك الفتاة الساحرة، المليونيرة؟ بالطبع أنا لن أتزوج ضد رغبتك.

كان الموقف أكثر مما تحتمل، فأخرجت منديلها ومسحت عينيها.

قالت أمي بعد وهلة:

- اشترِ لها هدية ثمينة. أخبرهم أن يرسلوا الفاتورة إلى هنا، لا إلى خالتك.

ثم أضافت:

- هذه الإدنا كانت كبيرة عليك، على أية حال.

هذا المحل، حين تدخله، تتبادر إلى ذهنك صورة ملعب الكروكيه في النادي. هو من نوع المحلات التي لها فاترينة بطول ميل لكنها تحتوي فقط على قبعة سوداء ووردة.

كان جاستون يتمشى في البهو واضعًا يديه خلف ظهره. جاستون رئيس النُّدُل في المناسبات، وهو واحد من أولئك الذين تدعوهم جاستون على الرغم من إحساسك بأنه خليط من دماء مالطية وإيطالية ويونانية وربما شرق أوروبية كذلك. تقدم نحوي:

- بونجور مسيو، العائلة في الطابق الأعلى. هل لي أن أهنئك على خطوبة ابن خالتك؟

- أجل.

كما قلت، جاستون خليط من عدة أعراق، لكنه وأبويه ولدوا في مصر.

ومع ذلك لا ينطق بكلمة عربية. هذا المحل سوف «يؤمَّم». أضع كلمة يؤمَّم بين علامتَيْ تنصيص لأنني لا أري أن التأميم هنا يأتي بأية منفعة اقتصادية عدا تسمين الجيش. لكن التأميم سيكون ذا فائدة في حالة جاستون لأنه سوف يجعله يقلع عن استخدام الكلمة العربية الوحيدة التي يعرفها والتي كان مسموحًا له باستخدامها مع خمسة وتسعين بالمائة من الشعب المصري: «امشِ».

أتذكر حين أُمِّمَت قناة السويس واستشاط حملة الأسهم والأجانب غضبًا. كان تأميم القناة خطوة عظيمة، بخاصة في نظر أولئك الذين يعرفون ما كان عليه الحال في النادي الفرنسي في بور فؤاد، حيث كان الفرنسيون الذين يأتون إلى بلادنا يحصلون على وظائف سهلة ويتعالون على الجميع. إن البريطانيين المتحمسين لبلادهم أشخاص مسليُّون، ومن يرافقهم من شابات مهتمات بالخيل وهُنّ حمقى من خريجي المدارس العامة، لا يبدون سيئين إذا ما قورنوا بالبرجوازيين الفرنسيين. كانت شركة القناة نعيمًا للفرنسيين عديمي النفع، ذوي الوساطة، الذين يجلسون طيلة اليوم لا يقومون بأي عمل. أوقفنا ذات مرة أنا وفونت سيارتنا الصغيرة، التي كنا قد استخدمناها في رمي بعض القنابل الصغيرة على معسكر إنجليزي في السويس ، أمام النادي الفرنسي ودخلنا لنشرب كأسًا من الويسكي.

- أنتما أيها القذرين...

صاح فرنسي وأشار إلى الخارج.

فقال له فونت:

- فلتذهب إلى الجحيم.

ذهبنا إلى البار وطلبنا كأسين من الويسكي.

- لا.

قال النادل.

فجأة، اتجه نحونا خمسة فرنسيين يحملون عِصِيًّا خشبية سميكة طاردونا بها حتى الخارج. وبينما كنا نتشاجر معهم على شرفة النادي، أخذت مجموعة أخرى سيارتنا الفيات الصغيرة وألقتها على الشاطئ. ثم، حين حضرت الشرطة، أخذتنا نحن. أقول لكم، حين أُمِّمَتْ القناة أردنا أنا وفونت تقبيل أقدام البكباشي من فرط الإعجاب.

لنعد إلى هذا المحل. قادني جاستون إلى المصعد، فوفَّر عليَّ بذلك صعود حوالي ثماني درجات. هذا المحل! الناس دائمًا يذهبون إليه كنوع من المقبِّلات. أقصد أنهم لا يذهبون إلى هناك لشراء شيء محدّد أو لأنهم بحاجة إلى شيء محدد، لا. يتناولون القهوة مع المدير، يتحدثون عن باريس وروما ونيويورك، يتذكرون بودابست في الأيام الخوالي، ويتساءلون عما حل بالكونتيسة أوزبينسكي.. كم كانت رائعة، هذه النينا. ثم يقول لهم لويجي، المدير: «لقد كانت ملكة»، فيهزون رؤوسهم بحزن، ويتساءلون عما يحدث في العالم.

وأخيرًا، يتذكرون أنه حتى معهم لم تعد الأمور كما كانت عليه، فالسفر أصبح صعبًا، يا لويجي. حتى عندما يتمكنون من السفر، يجدون صعوبة في ترتيب الأمور ليجدوا نقودًا كافية بانتظارهم في الخارج. ليس فقط بودابست وبراج، يا عزيزي. يهزّون جميعًا رؤوسهم بمعرفة، ثم تخبرهم سوسو عن تاتا الماهرة التي ترسل سبعين جنيهًا شهريًّا لابن وهمي يدرس في سويسرا، حتى تتمكن من قضاء عدة أسابيع في الخارج كل عام.

يضحك لويجي ويضع إصبعه أمام فمه، يطلب منهم أن يتوخوا الحذر.. فالمرء لا يعرف. ثم، فجأة يتذكر شيئًا ما:

- هل أخبرتكم؟ لديَّ أربع قطع ديور جديدة لم تفتح بعد.

- مستحيل. أرنا إياها، يا لويجي. لا تكن شريرًا.

- نعم، نعم. لكن ليس اليوم.

- أف. لويجي، لا تكن كريهًا. سنلقي عليها نظرة فقط.

يتشاجرون على الأثواب فيما بينهن. وحين يريهم لويجي الأحذية التي جاءته مؤخَّرًا من إيطاليا، يشترون لهم وللعائلة بأكملها أحذية إيطالية تعيش خمس سنوات. بعد ساعة أو نحو ذلك، يأمر لويجي بلف الأمتعة التي باعها لتوه وتساوي ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه، ثم يتصل بمدام عبد الله المعروفة بفيفي، ويقول لها:

- ألم أخبرك عن الأشياء التي وصلتني للتو من فيينا؟

خرجت من المصعد، وقفت واضعًا يدي في جيبي. نظرت حولي فرأيت

خالتي. كانت تدير شؤون البلاط. أعرف ذلك جيدًا. كانت أحيانًا تجمع العائلة، كل العائلة من فقراء وأغنياء وقساوسة وكتبة وفتيات فقيرات يدخرن لأجل جهازهن وأقارب من بعيد وعمات وأعمام، تجمعهم في فيلاتها وتدير شئونهم.

- والآن، يا سامية. أريدك أن تتزوجي فتحي. هل تسمعني، يا فتحي؟

- نعم، يا خالتي.

- الشهر القادم. لا أريد سماع كلام فارغ بعد الآن. السن لا يهم؛ المهم أن وظيفته جيدة.

وقد يكون هذا الفتحي أكبر من المسكينة بنحو عشرين عامًا.

- نعم، يا خالتي.

ثم تعطي سامية دستة من قمصان منير، لتطرِّز عليها حرفي اسمه تعويضًا عن إرغامها على الزواج من فتحي بشع المظهر.

- نعم، يا خالتي. شكرًا، يا خالتي. شكرًا.

- عزيز، عليك أن تبقى في وظيفتك. إذا سمعت مرة أخرى أنك وصلت إلى وظيفتك متأخرا أو ثملًا؛ فلن تدخل هذا المنزل مجددًا. أتسمع؟

- نعم، يا خالتي.

- وأنت، يا أمين. الكنيسة في حالة مزرية، يجب أن ترفع سعر الخبز المقدس. أنا لست مؤسسة خيرية؛ لأدفع ثمن كل شيء. لو لم ترفع سعر الخبز المقدس؛ سأتحدث إلى البطريرك، هذا نهائي.. وشيء آخر، ضع

بريزتين أو ثلاثًا في طبق الهبات قبل أن تمرره.

- نعم، يا خالتي.

حين ترتب أمور كل هؤلاء، تتحول إلى أمي وتتحدث بالفرنسية.

- لا بُدَّ أن تبيعي السيارة، يا فيفي.

ترد أمي:

- سأرى.

أما الآن، فهي تحتل أريكة ضخمة في المحل. كانت ابنة خالتي، مادو، على وشك الزواج، ورافقتها خالتي للتأكد من شرائها الأشياء المناسبة.

- هراء؛ سوف ترمينها في نهاية الأسبوع. أرني الحرير الصيني مجددًا، يا لويجي.

يهرع لويجي لينفذ طلبها.

- لا. لا. قلت لا. وهذا يعني لا، يا مادو.

ابنة خالتي، مادو، على قدر ثراء خالتي، لكنها لا تملك الشجاعة لمجابهتها.

عينا خالتي واسعتان، بارزتان مثل كرتين معلقتين تحت حاجبيها. رأيتهما يلمحانني بطرفيهما لجزء من الثانية، ثم يعودان إلى التركيز على الملابس التي كانت ماري تحملها أمامها.

هززت نفسي وجلست على بعد حوالي عشر ياردات منهم. أومأ لي لويجي، فأومأت له. سمعته يأمر شابًّا أن يحضر لي قهوة. كانت ديدي نكلا تجلس على أريكة مقابلة لتلك التي تحتلها خالتي، وإلى جانبها

جلس منير. كانت تنظر نحوي بين الفينة والأخرى. حضرت قهوتي ووضعت على منضدة أثرية إلى جانبي. أشعلت سيجارة. أخذت أفكر في زوج إدنا، وأتساءل بتراخٍ عن شكله، حتى أحسست بالناس المحيطين بخالتي يتحركون قليلًا. كانت تغادر مجلسها، لتقف مستندة على كتف خدوم. تنثني إلى جانب لتجذب مشدها إلى الأسفل من هذا الجانب، ثم تنثني إلى الناحية الأخرى لتشده من الجانب الآخر. تقطيبة سريعة، وها هي مستعدة للمشي.

اتجهت نحوي بخطى غير ثابتة. أخذت تبحث عن شيء في حقيبة يدها، وأخرجت منديلها وتمخطت، ثم جلست إلى جواري بهدوء.

- أعطني واحدة من سجائرك المصرية، فسجائر منير الأمريكية قوية عليَّ.

أعطيتها واحدة من سجائري وأشعلتها لها. أشارت إلى بعض الأقارب، الذين اقتربوا ليستمعوا إلى المحادثة، بأن يبتعدوا.

- ما هذا الذي أسمعه عنك وديدي نكلا؟

- سنتزوج.

قالت:

- إذن، إذن.

رددت قولها:

- إذن، إذن.

- ليس هناك معنى لوقاحتك أو غطرستك.

قلت مكتئبًا وبائسًا:

- أنا آسف.

- وكيف ستعيل زوجتك؟

- هي ثرية بما فيه الكفاية.

- آها. المال ما يجذبك إذن.

- المال جذّاب.

- آها.

أطفأت سيجارتي، وطويت ذراعيّ.

- وأمك؟

- ماذا عن أمي؟

- كيف ستعيش؟

- ماذا تقصدين؟

- أبوك خسر كل أمواله في البورصة، وأنا من يعيل أمك- ناهينا عنك- ليس هناك مجال لاستمراري في إعالتها، إذا لم تتزوج ديدي من منير.

- ديدي لديها من المال ما يكفي.

- وهل أخبرت ديدي بذلك؟

- سأفعل.

تنهدت.

- آها.

أخرجت منديلها وتمخطت ثانية.

- إلى ماذا وصلت في دراستك حين كنت في لندن؟

- لماذا تسألين؟

- أجب فقط.

- أستطيع أن أحصل على درجة عندما أريد.

- إذن، إذن.

- أجل.

- هذه آخر فرصة لك، يا رام. لن أعرض عليك ذلك مجددًا. تستطيع أن تذهب إلى كوك، أو أية وكالة سفر، وتحجز تذكرة طائرة أو سفينة إلى لندن، أو أي مكان تريده. سأدفع تكاليف أربع سنوات أخرى من دراستك. ستحصل على مصروف شهري مناسب، وبإمكانك شراء سيارة صغيرة. هاك. لا تختبر صبري وكرمي أكثر من ذلك.

- أشكرك. لكنني سأتزوج ديدي نكلا على أية حال.

- إذن، إذن.

رددت:

- إذن، إذن.

أومأت إلى منير الذي جاء مادًّا يده لمصافحتي.

- احتجت تجفيفًا، يا ابن الخالة. لكني لا أحمل ضغينة.

صافحته قائلًا:

- شكرًا. لقد كان حادثًا.

- شربنا كثيرًا، على ما أعتقد.

- أجل.

- من الممتع وجود امرأتين جميلتين في منزلك، يا رجل.

- نعم.

- كاف تسأل عنك.

- كاف مَن؟

- كارولين.

- آه.

- رام، ما رأيك في السفر إلى أمريكا لفترة؟

- لا. شكرًا، يا منير.

- لا تقلق. أنا كفيل بكل شيء.

وربت على الجيب الذي يحوي حافظة نقوده.

- شكرًا لك.

- اسمع، سوف أتحدث إليك رجلًا لرجل.

- وهو كذلك.

تركنا والدته، وجلسنا على أريكة أخرى.

- أعتقد أني متيم بديدي. كما أني تفاجأت تمامًا، يا فتى، حين سمعت

عن علاقتكما. ثم قلت لنفسي: هذا الفتى، رام، يعتبرها صفقة رابحة، فأبوه خسر كل أمواله في البورصة. لكني قلت لنفسي ماذا كنت تفعل لو كنت مكانه، يا منير؟ أتعرف، يا فتى؟ كنت أفعل ما فعلته أنت بالضبط.

ربت على كتفي.

- ستعيش في مستوى راقٍ، يا فتى، سيارة ومال. ديدي فتاة ممتازة. انظر إلى هذه المنحنيات.

أشار غامزًا.

- لديَّ عرض..

- منير، ديدي نكلا جالسة هناك. إذا أرادت أن تتزوجك، فلتتزوجك. إذا أرادت أن تتزوجني، فلتتزوجني. هذا كل ما في الأمر.

- تكلمت معها بالتأكيد.

- وماذا قالت؟

- حسنًا..

- هل أخبرتها أنني أريد أن أتزوجها لأموالها؟

- أعتقد أني فعلت، يا ابن الخالة.

- وماذا قالت؟

- لا شيء.

- حسنًا، سأذهب لأتحدث إليها بنفسي.

كانت تجلس بمفردها في زاوية ما.

- ديدي، لقد سئمت كل هذا. تعرفين أنهم يحاولون رشوتي. لقد أخبرتك قبل ذلك أنني ما كنت لأسألك أن تتزوجيني لو كنت فقيرة. لكني نسيت أن أخبرك أنك ستضطرين إلى الإنفاق على أمي كذلك.

- أعرف، يا رام. لقد أخبروني.

- ثم؟

- لا أهتم.

جلست إلى جوارها. هذا بسبب الجنس، الفتاة المسكينة. كنت أنا رجلها الوحيد، ويرنو جسدها إليَّ، أدركت ذلك، كما أدركت أنها قد تحتقرني فيما بعد، أخبرتها ذلك.

- لا، أريد أن أعيش معك. أنا فقط قلقة بسبب إدنا وهذا الشيء الآخر.

- إدنا متزوجة.

- حقًّا؟

- أجل، يا ديدي.

- وماذا بشأن هذا الشيء الآخر؟

- ما الشيء الآخر؟

- العمل السياسي. إنه خطر جدًّا، يا رام. أنا قلقة جدًّا عليك.

- سأتركه.

- أحبك بشدة.

وقفتُ، وجذبتُها لتقفَ معي.

لو كنت تحبينني، قبليني أمامهم جميعًا.

أغمضت عينيها وتقدمت إلى ذراعي. تبادلنا القبلة، ومشينا يدًا بيد إلى السلالم.

- هل ستأتي معي إلي المنزل الآن؟

- لا، لا أستطيع. سوف.. يجب أن أذهب لأخبر هذه المنظمة السياسية أنني ما عدت أعمل معها. سآتي غدًا، وسوف نقضي اليوم كله معًا.

قبلتها مجددًا قبل أن أضعها في سيارتها، لوحت لي وقذفت قبلة في الهواء قبل أن تقلع بسيارتها.

ذهبت إلى بار ميراندي مرة أخرى، وتوجهت إلى حيث التليفون؛ طلبت رقمًا؛ فرد صوت أجش:

- ألو، ألو.

- عصام، أيها الكلب القذر، أنا لم أحظ بمباراة بوكر جيدة منذ أشهر. ماذا؟ نعم، نعم لديَّ الكثير. جيد. أحضرهم وقابلني في جروبي.

وذهبت إلى جروبي.

منشورات بتانة
٢٠١٧

ولا شكَّ أن القارئ سيجد من المُتعة ما وَجَدْتُهُ في قراءة هذِه الترجمة العربية الدقيقة الجميلة من قلم هناء نصير، مُراوِحَةً -في لَفْتَةٍ موفَّقَةٍ- بين استخدام الفُصحى والعاميَّة في بعض مواضع الحوار.

د. ماهر شفيق فريد

لم يلجأ وجيه غالي إلى الأقنعة؛ لأنّه لم يَحْتَجْ إلى ذلك، فعالَجَ قضاياه، بعدما حطَّم السقوفَ الواطِئةَ التي قهرتْ المبدعين العربَ، وقدَّم وجهة نظر من خلال روايته الرائعة، قالِبًا الأوضاعَ من جديد حول ثورة يوليو، وحرب السويس، والعلاقات المسيحية-المسيحية، والصراع الاجتماعي الواضح والمُسْتَتِر بين أبناء الطبقة «الأرستقراطية» التي كان ينتمي الكاتبُ إليها، وفي الوقت نفسه يرفضها، بِحُكْم انتمائه إلى إحدى المنظَّمات اليسارية الشيوعية في ذلك الوقت.
إنها روايةٌ تَطْرَحُ الأسئلةَ مرَّةً أخرى، ولكن هذه المرَّة بقسوةٍ لم تعرفها الروايةُ المصريَّة من قبل.

شعبان يوسف

وتبدو الروايةُ أقربَ إلى جِدارية تمتدُّ في المكان بين القاهرة ولندن، راصِدَةً اختلافَ الرؤى بين المصريين والإنجليز في قضايا الاستقلال، والنظرة "العنصرية"، من خلال عين بطلٍ حادِّ الملاحظة، ويُجيد اصطيادَ المُفارَقة، ويمتلك القدرة على الفكاهة والدُّعابة، وينظر إلى نفسه كأحد أفراد الأسرة الإنسانية، وليس مجرَّدَ مصريٍّ يقرأ بِنَهَمٍ.

سعد القرش

غلاف: عبد الرحمن الصواف

9 789776 233850

منشورات بتانة